قال: مايكل هارت فى كتابه:
«الخالدون مائة أعظمهم محمد»
و فى هذا الكتاب
معالم العظمة والخلود فى
شخص وحياة الرسول
الأعظم ﷺ

أعظم الخالدين

الأستاذ الدكتور

شحات حسيب الفيومى

وكيل كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

يطلب من

مكتبة علاء الدين

شبين الكوم. ت: ٠٤٨/٢٣١٥٧٤٩١

اسم الكتاب : أعظم الخالدين
اسم المؤلف : الدكتور شحات حسيب الفيومى
الطبعة : الأولى
مكتبة علاء الدين بشبين الكوم – منوفية
صفحة : ١٧ × ٢٤سم
تاريخ النشر : ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م
رقم الإيداع : ١٣٢٤٦/ ٢٠٠٦
الترقيم الدولى : I. S. B. N.
٣ – ٥٠٤ – ٢٢٤ – ٩٧٧

المقدمة

الشمس نجم مكونٌ من كتلة عظيمة ملتهبة تشع ضوءاً وحرارة، والقمر جسم معتم، وهو كوكب يعكس الضوء الواقع عليه من الشمس، والكاتب الكبير «أنيس منصور» ترجم كتاباً ألفه العالم الرياضى الفلكى «مايكل هارت» الذى يعمل فى هيئة الفضاء الأمريكية، وعنوان هذا الكتاب «الخالدون مائة أعظمهم محمد»، فالأستاذ «أنيس منصور» كان بمثابة القمر فى ترجمته إذ عكس ضوء «مايكل هارت».

ولقد أحسن وأجاد الأستاذ «أنيس منصور» فى عرضه فى المقدمة البديعة، إذ ساق الأسس التى اختار مايكل هارت الشخصية على أساسها وهى:

١- أن تكون الشخصية حقيقية لها واقع ووجود، وليست مجهولة أو خيالية.

٢- أن يكون الشخص عميق الأثر.

٣- أن يكون تأثيره عالمياً.

وبناءً على هذه الأسس اختار «مايكل هارت» الرسولَ الأعظم على رأس القائمة، قبل عيسى وموسى، وها أنذا أبيِّن فى هذا الكتاب أدلة العظمة ومظاهرها فى شخص الرسول ﷺ ، وذلك من ميلاده إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، ونسأل الله التوفيق.

المؤلف

معالم العظمة والخلود فى نسب الرسول الأعظم ﷺ

العظمة فى نسب الرسول وشهرته :

لقد اتخذ الله نبينا من دوحة عظيمة، كانت معروفة للعرب جميعاً حتى يعرف العرب أصله، فلا يشك أحد فى جذوره، قال رسول الله ﷺ: «"إنّ الله اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إسمَاعِيلَ، واصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إسمَاعِيلَ بنِي كِنَانَةَ، واصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشاً، واصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» [1].

ويبين الرسول ﷺ شرف نسبه وأنه فى تقلُّبه ينتقل من شرف إلى شرف، فهو فى خير تقلُّب، فعن المُطَّلِبِ بن أبي وَدَاعَةَ قالَ: «جَاءَ العَبّاسُ إلَى رَسُول اللّهِ ﷺ فَكَأَنّهُ سَمِعَ شَيْئاً، فقامَ النبيّ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ فقالَ: مَنْ أَنَا؟ فقَالُوا أَنْتَ رَسُولُ اللّهِ عَلَيْكَ السّلاَمُ، قالَ أنَا مُحمّدُ بنُ عَبْدِ اللّهِ بن عَبْدِ المُطّلِبِ. إنّ اللّهَ خَلَقَ الخَلْقَ فَجَعَلَنِي في خَيْرِهِمْ، ثُمّ جَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْن فَجَعَلَنِي في خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ فَجَعَلَنِي في خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمّ جَعَلَهُمْ بُيُوتاً فَجَعَلَنِي في خَيْرِهِمْ بَيْتاً وَخَيْرِهِمْ نَفْساً» [2].

فالرسول ﷺ اصطفاه الله من أشرف العرب، ولقد أدرك هذه الحقيقة «هرقل» ملك الروم حين أراد أن يتثبت من صدق الرسول ﷺ، فسأل أبا سفيان عن رسول الله ﷺ، وأجابه أبو سفيان وأظهر من كلام أبى سفيان الأدلة على صدق رسالة الرسول ﷺ، ففى البخارى ومسلم –واللفظ له–: (عَنْ عُبَيْدِ اللّهِ بْن عَبْدِ اللّهِ بْن عُتْبَةَ، عَن ابْن عَبّاس أَنّ أَبَا سُفْيَانَ أَخْبَرَهُ، مِنْ فِيهِ إِلَىَ فِيهِ. قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي الْمُدّةِ الّتِي كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رَسُول اللّهِ ﷺ. قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا بِالشّأْمِ، إِذْ جِيءَ بِكِتَابٍ مِنْ رَسُول اللّهِ ﷺ إِلَىَ هِرَقْلَ. يَعْنِي عَظِيمَ الرّومِ. قَالَ: وَكَانَ دِحْيَةُ الْكَلْبِيّ جَاءَ بِهِ. فَدَفَعَهُ إِلَىَ

---

(١) رواه الترمذى عن واثلة.

(٢) رواه الترمذى

عَظِيمِ بُصْرَى. فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَى إِلَى هِرَقْلَ. فَقَالَ هِرَقْلُ: هَلْ هَهُنَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَدُعِيتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَدَخَلْنَا عَلَى هِرَقْلَ، فَأَجْلَسَنَا بَيْنَ يَدَيْهِ. فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَباً مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا، فَأَجْلَسُونِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَجْلَسُوا أَصْحَابِي خَلْفِي، ثُمَّ دَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ لَهُ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. قَالَ: فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَايْمُ اللَّهِ! لَوْلاَ مَخَافَةُ أَنْ يُؤْثَرَ عَلَيَّ الْكَذِبُ لَكَذَبْتُ. ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: سَلْهُ، كَيْفَ حَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ. قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: وَمَنْ يَتَّبِعُهُ؟ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قَالَ قُلْتُ: لاَ. بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ، بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، سَخْطَةً لَهُ؟ قَالَ قُلْتُ: لاَ.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قَالَ قُلْتُ: تَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالاً، يُصِيبُ مِنَّا وَنُصِيبُ مِنْهُ. قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لاَ. وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ صَانِعٌ فِيهَا.

قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا أَمْكَنَنِي مِنْ كَلِمَةٍ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئاً غَيْرَ هَذِهِ.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ قَالَ قُلْتُ: لاَ.

قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ حَسَبِهِ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو حَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ. فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ. وَسَأَلْتُكَ عَنْ أَتْبَاعِهِ، أَضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَقُلْتَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ. فَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَرْتَدّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَهُ سَخْطَةً لَهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ. وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ القُلُوب.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ فَزَعَمْتَ أَنهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حَتَى يَتِمّ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنكُمْ قَدْ قَاتَلْتُمُوهُ. فَتَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالاً، يَنَالُ مِنكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الرّسُلُ تُبْتَلَى ثُمّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَزَعَمْتَ أَنهُ لاَ يَغْدِرُ، وَكَذَلِكَ الرّسُلُ لاَ تَغْدِرُ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ. فَقُلْتُ: لَوْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ، قُلْتُ رَجُلٌ ائْتَمّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ.

قَالَ: ثُمّ قَالَ: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَأْمُرُنَا بِالصّلاَةِ وَالزّكَاةِ وَالصّلَةِ وَالْعَفَافِ.

(نتيجة توصَّل إليها هرقل بعد هذه المقدمات)

قَالَ هرقل لأبى سفيان ومن معه: إِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقّاً، فَإِنهُ نَبِيّ. وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنهُ خَارِجٌ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنهُ مِنكُمْ، وَلَوْ أَنّي أَعْلَمُ أَنّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ، لأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ، وَلَيَبْلُغَنّ مُلْكُهُ مَا تَحْتَ قَدَمَيّ».

ومن هذا الحوار الشَّيِّق البليغ الذى يدل على عمق فكر هرقل وعمى أهل مكة وقتها عن نور رسالة الإسلام رغم أنهم فى دائرة النور. وكشف عن أمر هو أن الرسل تُبعث فى أنسابٍ شريفة فى أقوامها، لأن النسب الشريف يؤثر فى قرارات مجتمعه، ومن العادة أن العشيرة القريبة تحمى ابنها وتساعده.

● نسب الرسول ﷺ يعرفه العرب جميعاً:

لقد عرف العربُ جدَّه عبدَ المطلب فى موقفه من جيش أبرهة، وتذكير أبرهة بالله تعالى، ولكنَّ غطرسته أصَمَّتْ آذانَه وقولُ عبد المطلب يذكِّر أبرهةَ بأن الحرب ستكون مع الله. فكانت الهزيمة له ولجيشه، وتظل الأجيال تذكرها إلى يوم القيامة ما دام القرآن يُتلى.

● خروج أبرهة لهدم الكعبة :

عند الحديث عن عبد المطلب نُلقى الضوء على الحدث الذى أظهر عبد المطلب ظهوراً أكثر من ظهوره فى جزيرة العرب، وهذه تذكرة لعضو الكونجرس الأمريكى الذى دعا إلى ضرب الكعبة بالقنبلة النووية، ففى هلاك أبرهة عبرة لـه وللبشرية كلها، والله والله والله لا تستطيع قوة أن تضرب بيت الله ولو كانت الصواريخ النووية بعيدة المدى.

لقد خرج أبرهة يريد هدم الكعبة لسبب ظاهرى تافه لا يستدعى خروجه، ولكن السبب الذى كان وراء خروجه هو هدم بيت الله الذى يحجه العرب كل عام ليتوجه العرب إلى القُلَّيس[1]، وهى كنيسة بناها أبرهة بصنعاء باليمن لم يُر مثلُها فى زمانها، وسُمِّيت بذلك لارتفاعها الشاهق، فخرج لهدم الكعبة متخذاً من سلوك الرجل الكِنانى الذى قعد فى الكنيسة ذريعة لهدمها، ولكنه يريد صرف النَّاس إلى القُلَّيس.

لما تحرك جيش أبرهة يؤم الكعبة خرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له: ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخرابه، فأجابه إلى ذلك مَنْ أجابه، ثم عرض له فقاتله، فهُزِمَ ذو نفر وأصحابه، فأُخِذَ ذو نفر فأُتِيَ به أسيراً، فلما أراد أبرهة قتله قال ذو نفر: أيها الملك، لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي، فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق [2].

ثم مضى أبرهة على وجهه يريد الكعبة حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نُفيل بن حبيب ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة، وأُخِذَ له نفيل

(١) نقل أبرهة رخامها المجزَّع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان إلى هذه الكنيسة فهى تبعد عن القصر فراسخ قليلة.

(٢) سيرة ابن هشام ٦٤/١.

أسيراً، فأتي به فلما همَّ بقتله قال له نفيل: أيها الملك، لاتقتلني فإني دليلك بأرض العرب...، فخلى سبيله [1].

ومرَّ أبرهة بثقيف بيد أنهم هادنوه: فقالوا له: أيها الملك، إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذي بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه، فتجاوز عنهم.

وبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المُغمَّس، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك، فرجمت قبره العرب، فهو القبر الذي يَرْجُم الناسُ بالمغمس.

فلما نزل أبرهة المغمس، بعث رجلاً من الحبشة يقال له: الأسود بن مقصود على خيل له، حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، فهَمَّتْ قريش وكنانة وهذيل ومَن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك.

وبعث أبرهة حُنَاطةَ الحِمْيري إلى مكة، وقال له: سلْ عن سيد أهل هذا البلد وشريفها، ثم قل له:

إن الملك يقول لك: إني لم آتِ لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم، فإن هو لم يُرِدْ حربي فأتني به،

فلما دخل حناطة مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له: عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة،

---

(١) المرجع السابق ص٦٥.

فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه،وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام - أو كما قال -، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يُخَلِّ بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه،

فقال له حناطة: فانطلق معي إليه فإنَّه قد أمرني أن آتيه بك[1].

لقاء عبد المطلب بأبرهة:

ذهب عبد المطلب ومعه وفد من قومه إلى أبرهة، وكان عبد المطلب أوسَم الناس وأجملهم وأعظمهم، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعْظَمَه وأكرَمَهُ عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه، وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك ؟

فقال له ذلك الترجمان،

فقال عبد المطلب: حاجتي أن يَرُدَّ عليَّ الملكُ مئتي بعير أصابها لي،

فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنتَ أعجبتني حين رأيتُك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتُها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه ؟!

● كلمة عبد المطلب تدوى فى البشرية إلى يوم القيامة

قال له عبد المطلب:

إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربّاً سيمنعه، أو إنَّ للبيت ربّاً يحميه،

قال أبرهة: ما كان ليمتنع مني،

قال عبد المطلب: أنت وذاك[2].

وخذل الله أبرهة، وجعله الله عبرةً للدنيا كلها.

---

(١) المرجع السابق ص٦٨، ٦٩.

(٢) المرجع السابق ص٦٩

ولقد أورد صاحب دلائل النبوة (عن معمر بن راشد عن الزُّهرى قال: أول ما ذكر من عبد المطلب جد رسول الله ﷺ أن قريشا خرجت من الحرم فارّة من أصحاب الفيل وهو غلام شاب، فقال: والله لا أخرج من حرم الله أبتغي العزّ في غيره، فجلس عند البيت وأجلت عنه قريش، فقال:

لاهُمَّ إنَّ المرء يمـــ ∴ ـنع رحله فامنع رحالك

فلم يزل ثابتا في الحرم حتى أهلك الله الفيل وأصحابه، فرجعت قريش وقد عظم فيها لصبره وتعظيمه محارم الله تعالى)[1].

هذا هو عبد المطلب جدّ رسول الله ﷺ، أثّر في قومه، وهذا من العظمة.

● عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول ﷺ

قال ابن إسحاق: وكان عبد المطلب بن هاشم - فيما يزعمون، والله أعلم - قد نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم، لئن وُلِدَ له عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة، فلما توافى بنوه عشرة، وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم، ثم أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع ؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتوني، ففعلوا ثم أتوه، فدخل بهم على هُبَلَ في جوف الكعبة، وكان هبل على بئر في جوف الكعبة، وكانت تلك البئر هي التي يُجْمَعُ فيها ما يُهْدَي للكعبة.

واحتكم عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على بَنيَّ هؤلاء بقداحهم هذه، وأخبره بنذره الذي نذر، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه، وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر بني أبيه، وكان أحب ولد عبد المطلب إليه، وهو أبو رسول الله ﷺ ، فخرج القدح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ليذبحه،

---

(١) قال السيوطى: أخرجه عبد الرزاق في المصنف والأزرقي في تاريخ مكة والبيهقي في دلائل النبوة عن الزهرى رضى الله عنه. (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور)

فقامت إليه قريش من أنديتها.

فقالوا: ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

قال: أذبحه ؛ فقالت له قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبدا حتى تُعْذَر فيه، لئن فعلتَ هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا !

وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة -وكان عبد الله ابن أخت القوم-: والله لا تذبحه أبدا حتى تُعْذَر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه.

وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل، وانْطَلِقْ به إلى الحجاز، فإنَّ به عرَّافة لها تابع- أى من الجن- فسلها، ثم أنتَ على رأس أمرك، إن أمرتك بذبحه نبحتَه، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته.

فركبوا حتى جاءوها فسألوها، وقصَّ عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه، وما أراد به ونذره فيه ، فقالت لهم: ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله، فرجعوا من عندها، فلما خرجوا عنها، قام عبد المطلب يدعو الله، ثم غدوا عليها، فقالت لهم: قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم ؟

قالوا: عَشْرٌ من الإبل. وكانت كذلك.

قالت: فارجعوا إلى بلادكم، ثم قرِّبوا صاحبكم، وقرِّبوا عشراً من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجتْ على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه، فقد رضي ربكم، ونجا صاحبكم.

فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر، قام عبد المطلب يدعو الله ؛ ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل، وعبد المطلب يدعو الله ﷻ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ؛ فزادوا عشرا من الإبل[1]،

وظلوا يضربونها وهى تخرج على عبد الله ويزيدون حتى بلغت مائة من

(١) انظر: السيرة النبوية ١٧٦/١ – ١٧٨.

الإبل، وبعدها خرجت على الإبل، فقالت قريش ومن حضر لعبد المطلب: قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب. فزعموا أن عبد المطلب قال: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ؛ فضربوا على عبد الله وعلى الإبل ثلاث مرات وهى تخرج على الإبل.

عرفت مكة هذا الأمر واشتهروا أمر عبد الله الذى فاقت ديته دية البشر فى وقتها عشر مرات، وتحدث أهل مكة بل أتى التشريع الإسلامى مواكباً فى الدية لدية عبد الله بن عبد المطلب مائة من الإبل فى العدد، لقد تأثر النّاس بعبد الله، وهذا وجه من أوجه العظمة.

● ذكر المرأة المتعرضة لنكاح عبد الله بن عبد المطلب

هذا العنوان ذكره ابن هشام فى سيرته ثم ذكر:

عبد الله يرفضها:

قال ابن إسحاق: ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد عبد الله، فمر به على امرأة من بني أسد بن عبد العزى وهي عند الكعبة ؛ فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله ؟

قال: مع أبي،

قالت: لك مثل الإبل التي نُحرت عنك، وقَعْ عليَّ الآن،

قال: أنا مع أبي، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه [1].

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهو يومئذ سيِّد بني زهرة نسباً وشرفاً، فزوَّجه ابنته السيدة آمنة بنت وهب، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا، ودخل بها، فحملت بسيد البشر ﷺ ؛ ثم خرج من عندها، فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت، فقال لها: ما لك لا تعرضين عليَّ اليوم ما كنت عرضتِ علي بالأمس ؟

(١) المرجع السابق ص١٧٨.

قالت له: فارقك النورُ الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة، وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل أنه سيكون في هذه الأُمَّة نبيّ.

والذى أراه:

أن هذه المرأة عرضت الزواج على عبد الله بن عبد المطلب فتركها، وحين عاد إليها عاد إليها للزواج منها فرفضت؛ لأن النور الذى كان فى جبهته ذهب، وإن كانت عرضت عليه الزنا.

فلقد ورد أنها عرضت نفسها فأبى إلاّ العفاف، فرد عليها:

أمّا الحَرَامُ فالحِمَــامُ دُونَهُ ∴ والحِلُّ لا حِلَّ فأسْتَبينَهْ[1]

فَكَيْفَ بِالأمْرِ الَّذِى تَبْغِينَهُ ∴ يَحْمِى الكَرِيمُ عِرْضَه وَدِينَهْ

وورد أنها كانت زوجة له قبل السيدة آمنة وجمع بينهما.

قال ابن إسحاق: وحدثني أبو إسحاق بن يسار أنه حدث أن عبد الله إنما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب، وقد عمل في طين له، وبه آثار من الطين، فدعاها إلى نفسه، فأبطأت عليه لما رأت به أثر الطين، فخرج من عندها فتوضأ وغسل ما كان به من ذلك الطين، ثم خرج عامدا إلى آمنة، فمر بها، فدعته إلى نفسها، فأبى عليها، وعمد إلى آمنة، فدخل عليها فأصابها، فحملت بمحمد ﷺ، ثم مر بامرأته تلك، فقال لها: هل لك ؟ قالت: لا، مررتَ بي وبين عينيك غُرَّةٌ بيضاء، فدعوتُك فأبيت عليَّ، ودخلتَ على آمنة فذهبتْ بها[2].

و على أى حال فإن والد رسول الله ﷺ لم يفعل الخنا ولا الفاحشة.

ولقد صدق الله عندما تحدث عن هذا النسب فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ، الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [3].

---

(١) الحمام : الموت.

(٢) سيرة ابن هشام ١٧٩/١.

(٣) الشعراء: ٢١٧ – ٢١٩.

فلقد قال ابن عباس فى هذه الآية: يعنى تقلبه من صلب نبى إلى صلب نبى حتى أخرجه نبياً[1].

و يمكن أن نقول: تقلبك من صلب موحِّد إلى رحم موحِّد، وهكذا حتى أخرجك.

ولقد ذهب بعض العلماء إلى أنه يراه وحده ويراه فى الجمع مع أصحابه[2].

معالم العظمة والخلود فى تاريخ ميلاده ﷺ

لقد ولد الرسول ﷺ فى عام أرَّخ العربُ به وهو عام الفيل فكان مشهوراً وولد فى ربيع الأول لاثنتى عشرة ليلة خلت منه. وربيعُ الأول يسمى عند العرب ربيعَ الماء والأمطار، (وفى حديث الدعاء «اللهم اجعل القرآن ربيع قلبى»، جعله ربيعاً له لأن الإنسان يرتاح قلبه فى الربيع من الأزمان)[3].

وهناك لفتة فى هذا الميلاد فقد ولد فى عام مشهور، وولد فى ربيع الأول لأن البشرية كانت كالأرض التى قُحطت، فهى فى شوق وتلهُّفٍ للمطر، فولد رسول الله ﷺ فى ربيع فكان كالمطر، ووجوده فى هذا الشهر كان إيذاناً بأن البشرية سترتاح من الحيرة والتخبط فى الأديان التى حُرِّفت، والملل التى زُيِّفت، وعن ميلاد الرسول ﷺ فى عام الفيل يروى الترمذى بسنده (عن المطلب ابن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده قال: ولدتُ أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل)[4].

معالم العظمة والخلود فى حَمْلِه وميلاده ﷺ:

المعلم الأول:

قال ابن إسحاق: وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة الأنصاري. قال: حدثني من

(١) تفسير ابن كثير ١٨٢/٦، سورة الشعراء.
(٢) انظر المرجع السابق .
(٣) لسان العرب ١٥٦٤/٣ مادة : رَبَع.
(٤) رواه الترمذى.

شئت من رجال قومي عن حسان بن ثابت قال: والله إني لغلام يَفَعَةٌ، ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كل ما سمعت، إذ سمعتُ يهوديًا يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب: يا معشر يهود، حتى إذا اجتمعوا إليه، قالوا له: وَيْلَك ما لَكَ ؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي وُلد به.

قال محمد بن إسحاق: فسألت سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، فقلت: ابن كم كان حسان بن ثابت مَقْدِمَ رسول الله ﷺ المدينة ؟ فقال: ابن ستين سنة، وقدمها رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فسمع حسان ما سمع وهو ابن سبع سنين[1].

فقول اليهودى فى صُراخِه: «طلع الليلة نجمُ أحمد الذى ولد به» يدل على العظمة والخلود.

المعلم الثاني: حال بيته عند ولادته ﷺ:

روى عن عثمان بن أبى العاص عن أمّه أم عثمان الثقفية واسمها فاطمة بنت عبد الله، قالت: حَضَرتُ ولادةَ رسول الله ﷺ، فرأيت البيتَ حين وَضع قد امتلأ نوراً، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننتُ أنها ستقع عليَّ. ذكره أبو عمر فى كتاب النساء، وذكره الطبرى أيضاً فى التاريخ[2].

المعلم الثالث: صفة رسول الله ﷺ عند الولادة:

وُلد رسول الله ﷺ: معذوراً مسروراً أى مختوناً مقطوع السُّرَّة، يقال: عُذِر الصبىُّ وأعذر إذا خُتن، وكانت أمه تحدِّث أنها لم تجد حين حملت به ما تجده الحوامل من ثقل ولا وَحَم ولا غير ذلك، ولما وضعتْه ﷺ وقع إلى الأرض مقبوضة أصابعُ يديه مشيراً بالسَّبَّابة كالمسبِّح بها[3].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/١٨١.

(٢) الرَّوض الأنف للسهيلى ١/١٨١ على هامش السيرة لابن هشام.

(٣) المرجع السابق.

المعلم الرابع : صراخ إبليس لعنه الله :

ورد في تفسير بقيٍّ بن مَخْلَد: أن إبليس لعنه الله رَنَّ - أى صاح صيحة شديدة - أربع رنَّات: رَنَّةً حين لُعن. ورنَّةً حين أُهبط. ورنَّة حين وُلِدَ رسول الله ﷺ. ورنَّة حين أنزلت فاتحة الكتاب.

قال: والرنين والنَّخار - صوت يخرج من الخياشيم كالصوت الذى يخرج من النائم[1].

المعلم الخامس :

عن العِرْباض بن سارية قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول إني عبد الله وخاتم النبين، وإن آدم عليه السلام لمنجدلٌ في طينته وسأخبركم عن ذلك:

دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بى، ورؤيا أمي التى رأت، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْن، وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام»[2].

● **معاني العظمة والخلود في اسمه ﷺ :**

روى البيهقى قال: (حدثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: فكانت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ تُحَدِّث أنها أُتِيَتْ حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها إنك قد حملتِ بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي:

أُعِيذُهُ بالواحدْ ∴ من شرِّ كلِّ حَاسد

من كلِّ بَرٍّ عاهد ∴ وكلِّ عبدٍ رائد

يرود غيرَ رائد

فإنه عبد الحميد الماجد ∴ حتى أراه قد أتى المشاهد

قال: آية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بُصْرَى من أرض الشام، فإذا وقع

(١) المرجع السابق .

(٢) دلائل النبوة.

فسمّيه محمدًا، فإن اسمه في التوراة أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في الإنجيل أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في الفرقان مُحَمَّد، فسمَّتْه بذلك)[1].

ولقد وردت أسماء رسول الله ﷺ فى حديث البخارى عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لي خمسة أسماء: أنا محمدٌ، وأحمدُ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب)[2].

لقد ورد اسمان من هذه الأسماء فى القرآن وهما محمَّدٌ وأحمدُ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [3].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ [4].

و قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [5].

وبقية الأسماء الواردة فى حديث البخارى أوضح معانيها رسول الله ﷺ، فمحمَّد: مُفَعَّل: وهو الذى يتكرر منه الحمد فيحمد حمداً بعد حمد لا ينقطع، أمَّا أحمد فهو أفْعَل، وفيه التفضيل الظاهر، فمعناه أحمدُ الحامدين أى: فاق الحامدين فى حمده، وهو محمود فى السماء ومحمود في الآخرة بالشفاعة.

(ثم إنه لم يكن محمَّداً حتى كان أحمد، حَمِد ربه فنبَّأه وشرَّفه فلذلك تقدَّم

---

(١) المرجع السابق ص٨٢، ٨٣.

(٢) رواه البخارى.

(٣) سورة محمد آية ٢.

(٤) سورة الفتح آية ٢٩.

(٥) سورة الصف آية ٦.

اسم أحمد على الاسم الذى هو محمَّد، فذكره عيسى ﷺ فقال: (اسمه أحمد)، وذكره موسى ﷺ حين قال له ربُّه: تلك أمة أحمد فقال: اللهم اجعلنى من أمة أحمد فبأحمد ذكر قبل أن يذكر بمحمد؛ لأن حمده لربه كان قبل حمد النَّاس له فلما وُجِدَ وبعث كان محمَّداً بالفعل، وكذلك فى الشفاعة يحمد ربَّه بالمحامد التى يفتحها عليه فيكون أحمد الحامدين لربه، ثم يشفَّع فيحمد على شفاعته، فانظر: كيف ترتَّب هذا الاسم قبل الاسم الآخر فى الذِّكْر والوجود. وفى الدنيا والآخرة تبلج لك الحكمة الإلهية فى تخصيصه بهذين الاسمين)[1].

(وانظر كيف أنزلت عليه سورة الحمد، وخص بها دون سائر الأنبياء، وخُصَّ بلواء الحمد، وخُص بالمقام المحمود، وانظر كيف شرع لنا سنة وقرآناً أن نقول عند اختتام الأفعال وانقضاء الأمور: الحمد لله رب العالمين، قال الله ﷻ: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3] تنبيهاً لنا على أن الحمد مشروع لنا عند انقضاء الأمور، وسنَّ ﷺ الحمد بعد الأكل والشرب، وقال عند انقضاء السفر: «آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون»، ثم انظر لكونه ﷺ خاتم الأنبياء ومُؤْذِناً بانقضاء الرسالة وارتفاع الوحى ونذيراً بقرب الساعة وتمام الدنيا مع أن الحمد مقرون بانقضاء الأمور مشروع عنده، تجد معانى اسميه جميعاً وما خص به من الحمد والمحامد مشاكلاً لمعناه مطابقاً لصفته، وفى ذلك برهان عظيم وعَلَمٌ واضح على نبوته وتخصيص الله له بكرامته، وأنه قدَّم له هذه المقدِّمات قبل وجوده تكرمةً له وتصديقاً لأمره ﷺ)[4].

(١) الرَّوض الأنف للسهيلى ١/١٨٢، ١٨٣.
(٢) سورة الزمر آية ٧٥.
(٣) سورة يونس آية ١٠.
(٤) انظر: المرجع السابق ص١٨٣

ندرة هذا الاسم قبل تسمية الرسول ﷺ به:

(لا يُعرف فى العرب مَنْ تسمى بهذا الاسم قبله ﷺ إلاَّ ثلاثةً طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد ﷺ، وبقرب زمانه وأنه يبعث فى الحجاز أن يكون ولداً لهم.

ذكرهم ابن فورك فى كتابه «الفصول»، وهؤلاء الثلاثة هم: محمد بن سفيان بن مجاشع، جد جد الفرزدق الشاعر، والآخر: محمد بن أُحَيْحة بن الجلاح بن الحريش، والثالث: محمد بن حُمْران بن ربيعة.

و كان آباء هؤلاء قد وفدوا على بعض الملوك، وكان عنده علم من الكتاب الأول، فأخبرهم بمبعث النبى ﷺ وباسمه، وكان كل واحد قد خَلَفَ امرأته حاملاً، فنذر كل واحد منهم إن وُلِد له ذكر أن يسميه محمَّداً ففعلوا ذلك)[1].

رؤية عبد المطلب وتسميته:

(ذكر ابن دريد أنه ألقيت عليه – أى على الرسول ﷺ عندما وُلد جَفْنَةٌ – وعاء طعام – لئلا يراه أحدٌ قبل جده فجاء جدُّه، والجفنة قد انفلقت عنه ولما قيل له: ما سمَّيت ابنك؟ فقال: محمَّداً، فقيل له: كيف سميت باسم ليس لأحدٍ من آبائك وقومك؟

فقال: إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلُّهم، وذلك لرؤيا كان رآها عبد المطلب، وقد ذكر حديثها علىٌّ القيروانى فى كتابه «البستان» قال: كان عبد المطلب قد رأى فى منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض، وطرف فى المشرق وطرف فى المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون فيها، فقصَّها فعُبِّرت بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السموات والأرض، فلذلك

---

(١) الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٨٢.

سماه محمَّداً مع ما حَدَّثَتْ به أُمُّهُ حين قيل لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وضعته فسميه محمَّداً[1].

و ليس ثمة تعارض بين تسمية جده والسيدة والدته، فهى أُخْبِرَت وأُخبر جده عن طريق المنام معنى الاسم فسمياه معاً، لأن عبد المطلب يعتبر والداً، فأتت التسمية عن طريق الوالد المجازى والأم الواضعة.

معالم العظمة والخلود فى إرضاعه ﷺ

المراحل التى تقلَّب فيها الرسول وهو طفل فى ميدان الرضاعة تدعو إلى الدهشة والتفكير فقد رضع أولاً من أمه وهى حُرَّةٌ، فتكونت فى جسده مقومات الحرية، ورضِع من السيدة ثويبة وهى أَمَةٌ مملوكة لعمه أبى لهب، فتكونت مقومات التخلُّص من العبودية، لأن الدين الذى يحمله مستقبلاً ينكرالعبودية أىْ: عبودية الإنسان لأخيه الإنسان، ولذلك تبعه العبيد والمستضعفون، وكانوا يزيدون، وكان رسول الله ﷺ يعرف ذلك لثويبة، ويصلها من المدينة بعد هجرته، فلما فتح مكة سأل عنها وعن ابنها مسروح، فأُخبر أنهما ماتا، وسأل عن قرابتها، فلم يجد أحداً منهم حياً[2].

ولقد أرضعت ثويبة عمَّه حمزة وعبد الله بن جحش، فهم إخوة من الرضاع.

● **مرحلة الرضاع من السيدة حليمة:**

لقد أرضعته السيدة حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية، يقول ابن هشام فى سيرته عن ابن إسحاق: (إنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء،

---

(١) الرَّوض الأنف للسهيلى ١٨٢/١.
(٢) انظر: المرجع السابق ص١٨٦

قالت: وذلك في سنة شهباء [1]، لم تُبق لنا شيئا. قالت: فخرجت على أتان لي قَمْرَاء[2]، معنا شَارِف لنا، والله ما تبضُّ بقطرة - لبن - وما ننام ليلنا أجمع من صبيِّنا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثدييَّ ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذِّيه، ولكنَّا كنَّا نرجو الغيث والفرج فخرجتُ على أتاني تلك، فلقد أدَمْتُ بالركب حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنَّا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم ! وما عسى أن تصنع أمُّه وجدُّه ! فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذتْ رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق، قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم أخُذْ رضيعا، والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخُذَنَّه ، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذتُه، وما حملني علي أخذه إلا أني لم أجد غيره)[3].

● **الخير الذى نزل على حليمة وأهل بيتها :**

(قالت حليمة: فلما أخذته، رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنَّا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافِل، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا ريًا وشبعا، فبتنا بخير ليلة.

قالت: يقول صاحبي - يعنى زوجها- حين أصبحنا: تعلمي والله ياحليمة، لقد أخذت نَسَمة مباركة ؛ قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا

---

(١) سنة ذات قحط.

(٢) أتان: أنثى الحمار ولا يقال أتانة والقمراء بضم القاف : البيضاء.

(٣) سيرة ابن هشام ١/١٨٤-١٨٥.

وركبت أنا أتاني، وحملته عليها معي، فوالله لقَطَعَتْ بالركب ما يقدر عليها شيء من حُمُرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك ! أرْبعي علينا -أي ارفقي بنا-، أليست هذه أتانك التي كنت خرجتِ عليها ؟ فأقول لهن: بلى والله، إنها لهي هي؛ فيقلن: والله إن لها لشأنا.

قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شباعا لُبَّنَا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم سرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعا ما تَبِضُّ بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لُبَّناً.

فلم نزل نتعرَّف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته -وفطمته-، وكان يشبّ شبابا لا يشبُّهُ الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جَفْراً[1])[2].

وهذا الحديث عن السيدة حليمة ذكره البيهقى بنصه فى دلائل النبوة فى الجزء الأول.

معالم العظمة فى استرضاعه فى بني سعد

هناك أسباب دفعت قريشاً وغيرهم من سادات العرب إلى استرضاع أبنائهم بعيداً عنهم:

(أحدها: تفريغ النساء إلى الأزواج كما قال عمار بن ياسر لأم سلمة رضى الله عنها، وكان أخاها من الرضاعة حين انتزع من حجرها زينب بنت أبى سلمة فقال: دعى هذه المقبوحة المشقوحة - أى المبعدة - التى آذيت بها رسول الله ﷺ.

ثانيها: أن ذلك قد يكون منهم لينشأ الطفل فى الأعراب، فيكون أفصَح للسانه

(١) الجفر: ما عظم وامتلأ.

(٢) المرجع السابق ص١٨٥، ١٨٦.

وأجلد لجسمه، وأجدر لأن لا يفارق الهيئة المَعَدّية[1] كما قال عمر بن الخطاب: تمعددوا وتمعززوا[2] واخشوشنوا. وقد قال ﷺ لأبى بكر ﷺ حين قال له: ما رأيت أفصح منك يا رسول الله، فقال: وما يمنعنى وأنا من قريش وأُرضعتُ فى بنى سعد؟ فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء إلى المراضع الأعرابيات.

وقد ذكر أن عبد الملك بن مروان كان يقول: أضرَّ بنا حُبُّ الوليد. لأن الوليد كان لحَّانا، وكان سليمان فصيحاً، لأن الوليد أقام مع أمه وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية فتعرَّبوا ثم أُدِّبوا فتأدَّبوا، وكان من قريش أعرابٌ ومنهم حَضَر، فالأعراب منهم بنو الأدرم وبنو محارب، وأحسب بنى عامر بن لُؤَى كذلك، لأنهم من أهل الظواهر وليسوا من البطاح)[3].

معالم العظمة والخلود فى شق صدره ﷺ

● **شق الصدر إرهاص لنبوته:**

لقد تكرر شق الصدر ثلاث مرات:

أُولاها: فى بنى سعد وهو مع السيدة حليمة السعدية بعد أن أتم سنتين وذهبتْ به حليمةُ لأمه، فقد انتهت مدة الرضاع، بَيْدَ أن حليمة يصعب عليها أن تفارقها البركة التى حلَّت معه فى بيتها، فذهبت به إلى أمه. تقول حليمة:

(فقدمنا به على أمه ونحن أضنُّ شيء به مما رأينا فيه من البركة، فلما رأته أمه قلنا لها: يا ظِئْر[4] دعينا نرجع ببُنَيِّنا هذه السنة الأخرى، فإنا نخشى عليه وباء مكة، فوالله ما زلنا بها حتى قالت: فَنَعَمْ، فسَرَّحته معنا، فأقمنا به شهرين أو

(١) نسبة إلى معدّ وكانوا أهل قوّة وشدَّة.

(٢) أشتدوا.

(٣) الرَّوض الأنف للسهيلى ١/١٨٧ - ١٨٨.

(٤) الظئر: المرضعة.

ثلاثة، فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة في بَهْمٍ لنا جاء أخوه ذلك يشتد فقال: ذاك أخي القرشيُّ، جاءه رجلان عليهما ثياب بياض، فأضجعاه فشقَّا بطنه فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائماً منتقعاً لونه فاعتنقه أبوه فقال: أى بُنَي ما شأنك؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بياض، فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا منه شيئا فطرحاه، ثم ردَّاه كما كان، فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقي بنا فلنردَّه إلى أهله قبل أن يظهر فيه ما نتخوَّف، قالت حليمة: فاحتملناه فلمَّا تُرَعْ أمُّهُ إلا به، فقدمنا به عليها، فقالت: ما ردكما به؟ فقد كنتما عليه حريصين. فقلنا: لا والله يا ظئر إلا أن الله تعالى قد أدى عنا وقضينا الذي علينا، فقلنا نحشى الإتلاف والأحداث نردُّه إلى أهله، قالت: ما ذاك بكما فاصدقاني شأنكما، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره،

فقالت: أخشيتما عليه الشيطان ؟ كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإنه لكائن لابني هذا شأن، ألا أخبركما خبره ؟ قلنا: بلى، قالت: حملت به فما حملت حِملاً قط أخف منه فأُريتُ في النوم حين حملتُ به كأنه خرج منِّي نورٌ أضاءت له قصور الشام، ثم وقع حين ولدتُه وقوعاً ما يقعه المولود معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء، قالت أمه: فدعاه عنكما)[1].

ثانيها: (روى الإمام أحمد وابن حِبَّان وابن عساكر عن أُبَيِّ بن كعب أنَّ أبا هريرة سأل رسول الله ﷺ: يا رسول الله، ما أول ما رأيت فى أمر النبوة؟ فقال النبى ﷺ: إني لفي صحراء ابن عشر سنين وأشهر وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ قال: نعم.

فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إلي يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد

(١) دلائل النبوة.

لأخذهما مسا، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه، فأضجعاني بلا قَسْر ولا هَصْر[1]، وقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئًا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج منه شبه الفضة! ثم هز إبهام رجلي اليمني، فقال: اغْدُ واسْلَمْ، فرجعت بها أغدو رِقَّة للصغير ورحمة للكبير.

ولقد وردت رواية أخرى (لابن أبى الدنيا وغيره بإسناد يرفعه إلى أبى ذر ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله، كيف علمت أنك نبي؟ وبم علمت حتى استيقنت ؟ قال: يا أبا ذر أتاني مَلَكان وأنا بطحاء مكة، فوقع أحدهما بالأرض، وكان الآخر بين السماء والأرض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو أهو؟ قال: هو هو، قال: فزِنْهُ برجل. فوزننى برجل فرجحته، ثم قال: زنه بعشرة، فوزنني فرجحتهم، ثم قال: زنه بمائة. فوزنني فرجحتهم، ثم قال: زنه بألف فوزنني فرجحتهم، حتى جعلوا يتثاقلون عليَّ من كِفَّة الميزان، فقال أحدهما لصاحبه: شُقَّ بطنه، فشقَّ بطني فأخرج قلبى، فأخرج منه مغمز الشيطان وعلق الدم فطرحهما، فقال أحدهما لصاحبه: اغسل بطنه غَسْلَ الإناء، واغسل قلبه غسل المُلاَء، ثم قال أحدهما لصاحبه: خِطْ بطنه، فخاط بطنى، فخاط بطني وجعلا الخاتم بين كتفيَّ، كما هو الآن، ووليًا عنى، فكأنى أعاين الأمر معاينة)[2].

ثالثها: أخرج البخارى فى حديث الإسراء (عن أنس بن مالك عن مالك ابن صعصعة رضي الله عنهما، أنَّ نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به: (بينما أنا في الحطيم، وربما قال في الحجر، مضطجعاً، إذ أتاني آت، فقد قال: وسمعته يقول:

---

(١) القَسْر: الإجبار. والهَصْر: العطف والكسر. والمراد بلا إجبار وبلا ضغط بل برقةٍ ورحمة.
(٢) أورده السهيلى فى الرَّوض الأنف على هامش سيرة ابن هشام ١/١٨٨- ١٨٩.

فشق – ما بين هذه إلى هذه – فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته، وسمعته يقول: من قصه إلى شعرته – فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض – فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟).

● **السر في الشق في المرات الثلاث:**

لا شك أن الشق فى كل مرة له غاية وهدف، وإن كنا لا نسأل عن السرِّ بل نؤمن بذلك، ولكن إذا كان هناك التماس لمعرفته فلا بأس.

أمَّا عن الشقِّ فى طفولته المبكرة وفى باكورة عمره، فهى تطهير صدره من مغمز الشيطان، وهذا المغمز هو المنافذ التى ينفذ منها الشيطان إلى الإنسان، وهى نوافذ الوسوسة، فأُغْلِقت واستؤصلت وأصلحت وحُصِّن منه، والشق الثانى وقبل مرحلة الشباب وقع الشِّق الثانى، ولقد نفاه بعض العلماء، وإذا كان قد وقع فإنَّه هيِّئ حتى لا يغلب عليه الطابع الإنسانى فَيُحْفَظَ عن مزالق الطبع، وفيه إعداد لحمل الرسالة، فلا يحملها أى إنسان، فإنّه أُعِدَّ لحملها، فإن الله قال عن القرآن وعن وحيه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[1].

فهيَّأه بالشق الأول والثانى ليتحمَّل وَحْىَ الله، ويرى جبريل، ويتحمل الضم ويراه على هيئته وثبت فؤاده، وامتلأت مكة فِتناً من عبادة الأصنام، ومروراً بإدمان أهل مكة الخمر ووجود المغنيات الماجنات الراقصات وانتشار الزنا دون استحياء من أهلها، وهذه الفتن كانت مكة مترعة بها فكان الشق الأول والثانى تهيئة لحفظه وتحصينه حتى لا ينزلق إليها.

أمَّا الشَّقُّ الثالث: فهو الذى كان بالحطيم، وكان قبل البدء فى رحلة الإسراء والمعراج، فهذا الشق كان لإعداد جسده وقلبه لاجتيازه السموات العلى إلى سدرة

(١) سورة المزمل آية ٥.

المنتهى ورؤية الله ﷻ، فقُدِّس ظاهراً وباطناً وملئ إيماناً وحكمة.

يقول السهيلى عن الحديث الوارد -السابق- فى الشق: (ففى هذا الحديث بيان لما أبهم فى الأول لأنه قال: فأخرج منه مغمز الشيطان وعلق الدَّم، فبيَّن أن الذى التمس فيه هو الذى يغمزه الشيطان من كل مولود إلاَّ عيسى بن مريم وأمَّهُ عليهما السلام لقول أمِّها «حَنَّة»: ﴿وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[1]، فلم يصل إليه لذلك، ولأنه لم يخلق من منىِّ الرجال فأعيذه من مغمزه، وإنما خلق من نفخة روح القدس، ولا يدل هذا على فضل عيسى عليه السلام على محمد ﷺ، لأن محمَّداً ﷺ قد نُزِع منه ذلك المغمز، وملئ قلبه حكمةً وإيماناً بعد أن غسله روح القدس بالثلج والبرد، وإنما كان ذلك المغمز فيه موضع الشهوة المحرِّكة للمنى، والشهوات يحضرها الشياطين، لا سيما شهوة مَنْ ليس بمؤمن، فكان ذلك المغمز راجعاً إلى الأب لا إلى الابن المطهَّر ﷺ.

وفى الحديث فائدة أخرى: وهى من نفيس العلم، وذلك أن خاتم النبوة لم يُدْرَ هل خلق به أم وُضِع فيه بعد ما ولد أو حين نُبِّئ، فبيَّن فى هذا الحديث متى وضع وكيف وضع ومَنْ وضعه زادنا الله علماً)[2].

● **الحكمة في خاتم النبوة:**

خاتم النبوة يتعلق بشق الصدر، وله حكمة، والحكمة فيه: أنه لما ملئ قلبه بالحكمة والإيمان خُتِمَ عليه كما يختم على الوعاء المملوء مسكاً، وأمَّا وضع خاتم النبوة عند نُغض كتفه - أى على أعلى منقطع الغضروف - فلأنه معصوم من وسوسة الشيطان، وذلك الموضع منه يوسوس الشيطان لابن آدم[3].

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٦.
(٢) الروض الأنف ١٨٩/١.
(٣) المرجع السابق ١٩١/١.

● رجوع السيدة حليمة بالرسول ﷺ:

لقد كان رجوع حليمة بالرسول ﷺ رجوعين، الأول: بعد أن أتمَّ سنتين وفصلته، فرجعت به وعزَّ عليها أن تفارق البركةُ بيتها، فحاورت أمَّه إلى أخذه والرجوع به إلى دارها في بنى سعد، وفى رواية ابن هشام أنَّه بعد شهور من الرجوع وقع شق الصدر فعادت به إلى أمه، بَيْدَ أن السهيلى ذكر أنه كان رد حليمة إياه إلى أمِّه وهو ابن خمس سنين وشهر فيما ذكر أبو عمر، ثم لم تره بعد ذلك إلاَّ مرَّتين: إحداهما بعد تزويجه خديجة – رضى الله عنهما – جاءته تشكو إليه السَّنة وأن قومها قد أسنتوا – أجدبوا – فكلم لها خديجة فأعطتها عشرين رأساً من غنم وبكرات، والمرة الثانية يوم حنين[1].

معالم العظمة والخلود فى رعى الغنم

● رعي الغنم في بني سعد والحكمة منها:

لقد رعى الرسول ﷺ الغنم فى بنى سعد وفى مكة («ما من نبيٍ إلاَّ وقد رعى الغنم، قيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا» وإنما أراد ابن إسحاق بهذا الحديث رعايته الغنم فى بنى سعد مع أخيه من الرضاعة، وقد ثبت فى الصحيح أنه رعاها بمكة أيضاً على قراريط لأهل مكة، وذكر البخارى عنه أيضاً أنه قال: «ما هممت بشىء من أمر الجاهلية إلاَّ مرتين»، وروى: أن إحدى المرتين كان فى غنم يرعاها هو وغلام من قريش، فقال لصاحبه: اكفنى أمر الغنم حتى آتى مكة وكان بها عُرس فيها لهو وزمر، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك. ألقى عليه النوم. فنام حتى ضَرَبَتْه الشمس عصمة من الله له، وفى المرة الآخرة قال لصاحبه مثل ذلك، وأُلقى عليه النوم فيها كما ألقى فى المرة الأولى. ذكر هذا المعنى ابن إسحاق فى غير رواية البكائى،

(١) الروض الأنف ١٩٢/١.

وفى غريب الحديث للقُتَبِىِّ: بُعِث موسى ﷺ وهو راعى غنم، وبُعث داود ﷺ وهو راعى غنم)[1].

- **السر في رعي الرسول ﷺ الغنم:**

أولاً: رَعْىُ الأنبياء الغَنَمَ تَقْدِمَةٌ لهم وتدريب لهم ليكونوا رعاة الخلق، ولتكون أممهم رعايا لهم.

ثانياً: تدريب الأنبياء على سياسة الرعية، فتعوِّده الصبر والتحمل، وهذا زاد فى الدعوة إلى الله.

ثالثاً: يخلق رَعْىُ الغنم فى النفس الرفق والرحمة، فإن رعى الغنم يتطلب معها الرحمة لأنه إن قسا عليها الراعى قتلها أو أصابها، بخلاف رعى الإبل فرعيُها يورث الشدة والقسوة كما فى عمر بن الخطاب، فكان يرعى إبل الخطاب بيد أن شدته هذبها الإسلام ووضعها على طريق الحق.

رابعاً: يورث رعْىُ الغنم فى الراعى اليقظة والحرصَ على حياة غنمه خوفاً عليها من السباع الضوارى.

خامساً: يحرص راعى الغنم على أن يرتاد لها أطيب المراعى ويسقيها من أعذب الجداول.

وهذه أزودة للأنبياء للتعامل مع أممهم لاختلاف معادنهم ومشاربهم وأخلاقهم.

معالم العظمة والخلود فى يُتْم رسول الله ﷺ

لقد مات عبد الله بن عبد المطلب والد رسول الله ﷺ والسيدة آمنةُ والدته حامل به[2] وذكر ابن إسحاق فى وفاة السيدة آمنة: كان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت

---

(١) المرجع السابق ص١٩٢.

(٢) انظر: السيرة النبوية ١/١٨٠.

وهب وجده عبد المطلب بن هاشم فى كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته، فلما بلغ رسول الله ﷺ ستَّ سنين تُوُفِّيتْ أمُّه آمنة بنت وهب بالأبواء[1] بين مكة والمدينة، وكانت قد قَدِمتْ به على أخواله من بنى عدى بن النجار تُزيره إياهم، فماتت وهى راجعة به إلى مكة [2].

و عاد رسول الله ﷺ وهو طفل مع السيدة أم أيمن حاضنته إلى مكة يحمل فى قلبه أحزاناً لا يتحملها قلب إنسان، حيث فَقَد أباه ثم أمه، وعاد إلى مكة إلى أحضان جده عبد المطلب، وقد كان يجلُّه فقد (كان يوضع لعبد المطلب فراشٌ فى ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس أحد من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام جفر[3] حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابنى فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

فلما بلغ رسول الله ﷺ ثمانى سنين هلك عبد المطلب بن هاشم، وذلك بعد الفيل بثمانى سنين)[4].

- **كفالة أبى طالب لرسول الله ﷺ:**

فبعد وفاة جده كَفَلَه عمه أبو طالب تنفيذاً لوصية جده، والسر فى ذلك أنَّ عبد الله والد رسول الله ﷺ وأبا طالب أخوان لأب وأم «شقيقان»، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم، فضمه أبو طالب إلى أولاده.

- **السر فى يتم رسول الله ﷺ:**

أولاً: تَقَلُّبُ رسول الله ﷺ فى أحضان أمه من الرضاع فى بنى سعد وفى

(١) مكان بين مكة و المدينة وهو إلى المدينة أقرب: وسمِّى بهذا لِتَبَوُّء السيول فيه.

(٢) انظر: المرجع السابق ص١٩٤.

(٣) ما عظم فى طفولته.

(٤) انظر المرجع السابق ص١٩٥.

أحضان والدته وفى أحضان جده وفى أحضان عمّه، هذه الحياة لم يكن فيها استقرار حتى ينهل السلوك البشرى، وحتى يتشكل ضميره الإنسانى، فأراد الله له ذلك حتى لا يكون إلاَّ المعينُ الإلهى فيأخذ منه، وهذا من نعم الله التى أنعم بها على رسوله، ولقد ذكّره الله بها، فقد كان يتيماً ليس له أب يرحمه ولا أمٌ تر أمّه – تلحظه –، فأخذه الرحمن الرحيم، وهو خير من والديه قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾[1].

وهذا الاستفهام للتقرير، وفيه تذكير بنعمة الله التى أدركته فى يتمه، فقطع أحبابه ليتعلق بما هو أسمى من الوالدين، وهو الحبيبُ المُنعمُ الحقيقى الذى يربيه ليعدّه لمهمة هى القدوة والأسوة للبشرية كافة، ويظهر هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[2].

(يا له من تعبير، ويا له من تصوير، ويا له من تقدير، إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان، هذه المرتبة التى يصوِّرها هذا التعبير الفريد فى القرآن كلّه حتى بين التعبيرات المشابهة، لقد قيل لموسى عليه السلام ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾[3]، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[4]، ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[5]، وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة، ولكنه قيل لمحمد ﷺ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ وهو تعبير فيه إعزاز خاص، وأنس خاص، وهو يُلقى ظلاً فريداً أرقَّ وأشفَّ من كل ظل، ولا يملك التعبير البشرى أن يترجم هذا التعبير الخاص، فحسبنا أن نشير إلى ظلاله وأن نعيش فى هذه الظلال)[6].

(١) سورة الضحى آية ٦.
(٢) سورة الطور آية ٤٨.
(٣) سورة طه آية ١٣.
(٤) سورة طه آية ٣٩.
(٥) سورة طه آية ٤١.
(٦) فى ظلال القرآن للشيخ/ سيد قطب ٣٤٠٢/٦.

ومعنى ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: بمرأىً منا وتحت كلاءتنا، تحيطك عنايتنا، ويُحدق بك حفظنا ورعايتنا، ولا يخفى معنى الجمع فى «أعين» وإضافته إلى «نا» الفاعلين، وكلاهما يدلان على العظمة وبلوغ الغاية التى ليس بعدها غاية.

ثانياً: رعاية الله لرسوله وهو طفل تحدق به، وعنايته تكتنفه، وحفظه يظلُّه، ونجد ذلك فى هاتين الروايتين: (كان رسول الله ﷺ يحدث عما كان الله يحفظه به فى صغره وأمْرِ جاهليته أنه قال: لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى، وأخذ إزاره فجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة ؛ فإني لأُقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال: شد عليك إزارك ؛ قال: فأخذته وشددته عليَّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عليَّ من بين أصحابي)[1].

ولقد روى الإمام البخارى فى صحيحه (عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: لما بنيت الكعبة، ذهب النبي ﷺ وعباسٌ ينقُلان الحجارة، فقال عباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخرَّ إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: إزاري إزاري، فشدَّ عليه إزاره).

فهذا يدل على رعاية الله له وعنايته به فى أطوار حياته ونجد هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[2].

فهذا قسم من الله ﷻ بأنه ما ودَّع رسوله محمَّداً ﷺ وما تركه «وما قلى» أى: ما أبْغَضه وما كرهه.

ثالثاً: أن رسول الله ﷺ سيكون المثل الأعلى للبشرية وهو القدوة لها، فالذى أرسله أراد أن يربيه ويهذبه، فاختاره لنفسه بعيداً عن الوالدين والأهل، فهذا هو المعنىّ مِنْ يُتْمِهِ.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٠٨/١.

(٢) سورة الضحى آية ١-٣.

معالم العظمة والخلود فى شبابه وقبل بعثته ﷺ

انخرط رسول الله ﷺ فى أسرة عمه أبى طالب، وكانت الأسرة قليلة المال كثيرة العيال بيد أن رسول الله ﷺ وجد فى هذه الأسرة الأحضان الدافئة ورياض العطف وجنان الرحمة وينابيع الحنان، ووجد إخوةً له، فخفف ذلك عنه وحشة اليتم وألم الوحدة، وتقلّب فى هذه الفترة إلى مبعثه فى أحوال متعددة ومواقف مختلفة منها:

١- موقفه مع اللّهبى العائف.

قال (ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، أنّ أباه حدَّثه أن رجلا من لِهْب - قال ابن هشام: ولهب: من أزد شنوءة - كان-الرجل- عائفا، فكان إذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم. قال: فأتى به أبو طالب وهو غلام مع من يأتيه، فنظر إلى رسول الله ﷺ، ثم شغله عنه شيء، فلما فرغ قال: الغلام عليَّ به، فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيَّبه عنه، فجعل يقول: ويلكم، رُدُّوا علي الغلام الذي رأيت آنفا، فوالله ليكونن له شأن، قال: فانطلق أبو طالب)[١].

٢- موقفه مع «بحيرى».

قال ابن إسحاق: (ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجرا إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل، وأجمع المسير صبَّ[٢] به رسول الله ﷺ - فيما يزعمون - فَرَقَّ له أبو طالب وقال: والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني، ولا أفارقه أبدا، أو كما قال. فخرج به معه)[٣].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٠٤/١.

(٢) الصبابة: هى رقة الشوق.

(٣) المرجع السابق ص٢٠٥.

(وقع فى سير الزهرى أن بحيرى كان حَبْراً من يهود تيماء، وفى المسعودى: أنه كان من عبد القيس واسمه سَرْجس، وفى المعارف لابن قُتيبة قال: سُمِع قبل الإسلام بقليل هاتف يهتف: ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة: بحيرى، ورباب بن البراء الشَّنِّىّ، والثالث: المنتظر، فكان الثالث: رسول الله ﷺ، قال القُتْبى وكان قبر رباب الشنى وقبر ولده من بعده لا يزال يُرَى عليها طَشٌّ – المطر – الضعيف)[1].

بحيرى يحتفي بتجار قريش:

(فلمَّا نزل الركب بُصْرَى من أرض الشام، وبها راهب يقال له: بحيرى في صومعة له، وكان إليه علمُ أهل النَّصرانية ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها فيما يزعمون، يتوارثونه كابرا عن كابر.

فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ، وهو في صومعته، في الركب حين أقبلوا، وغمامة تظله من بين القوم.

قال: ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبا منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها ؛ فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته، وقد أمر بذلك الطعام، فصنع ثم أرسل إليهم، فقال: إني قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحركم، فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم، فما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيراً، فما شأنك اليوم ؟ قال له بحيرى: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم.

---

(١) هامش المرجع السابق ص٢٠٥، ٢٠٦.

فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سِنِّه في رحال القوم تحت الشجرة؛ فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده، فقال: يا معشر قريش، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي ؛ قالوا له: يا بحيرى، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام، وهو أحدث القوم سنا، فتخلف في رحالهم ؛ فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. قال: فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى، إن كان لَلؤمٌ بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم.

بحيرى يتثبت من الرسول ﷺ

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا، قام إليه بحيرى، فقال له: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ؛ وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: لا تسألني باللات والعزى شيئا، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما ؛ فقال له بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ؛ فقال له: سلني عما بدا لك.

فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره ؛ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

بحيرى يوصي أبا طالب بمحمد ﷺ

قال ابن إسحاق: فلما فرغ، أقبل على عمه أبي طالب، فقال له: ما هذا الغلام منك ؟ قال: ابني. قال له بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ؛ قال: فإنه ابن أخي ؛ قال: فما فعل أبوه ؟ قال: مات وأمه حبلى به ؛ قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه

وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده.

بعض من أهل الكتاب يريدون بمحمد ﷺ الشر

بعد اللقاء مع بحيرى وحفظ وصيته لأبى طالب: خرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام ؛ فزعموا فيما روى الناس: أن زُرَيْرا وتَمَّاماً ودَرِيًا، وهم نفر من أهل الكتاب، قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ مثل ما رآه بحيرى في ذلك السفر، الذي كان فيه مع عمه أبي طالب، فأرادوه فردهم عنه بحيرى، وذكرهم اللهَ وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم، وصدقوه بما قال، فتركوه وانصرفوا عنه.

معالم العظمة والخلود فى دخول الرسول ﷺ ميادين القتال مع قومه

علم الله أزلاً أنه سيرسل رسوله محمَّداً ﷺ وأنه رسولٌ إلى البشرية كلها وأنه الخاتم، وسيقود جيوشاً تبدد الشرك، وتحطم الأصنام، وتنشر التوحيد والأمنَ والعدل والسلام، فهيَّأ له ميادين التجربة فى حروب وقعت بين قومه وبين أقوام آخرين فى جزيرة العرب، ووقف بين أعمامه فى الميدان يشارك على قدر طاقته وخبرته، فاكتسب خبرة ومهارة وثقة تؤهله لقيادة الأمة، وتورثه شجاعة لا مثيل بين البشر، فلقد وصفه أصحابه بأوصاف منها ما يلى:

١- روى البخارى بسنده عن أنس بن مالك ﷺ قال: (كان رسول الله ﷺ: من أجمل الناس وأجود الناس وأشجع النَّاس).

٢- روى الإمام مسلم بسنده عن الْبَرَاءِ قال: (كُنَّا، وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ)، واحمرار البأس اشتداد الحرب. فكان ﷺ

يدنو من العدو، وكانوا يتقون به سهام العدو، ويجعلونه واقية لهم من العدو.

ولقد شهد مشاهد مع أعمامه منها:

١- حرب الفِجَار[١]:

قال ابن هشام: فلما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة، فيما حدثني أبو عبيدة النحوي، عن أبي عمرو بن العلاء، هاجت حرب الفِجَار[٢] بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان.

وكان الذي هاجها أن عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، أجار لطيمة[٣] للنعمان بن المنذر؛ فقال له البرَّاض بن قيس، أحد بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة: أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم، وعلى الخلق كله، فخرج فيها عروة الرحال وخرج البرَّاض يطلب غفلته – ليقتله –، حتى إذا كان بتَيْمَنَ ذي طلاَّل بالعالية، غفل عروة فوثب عليه البراض فقتله في الشهر الحرام، فلذلك سمي الفجار.

وقال البراض في ذلك:

وداهية تهُمُّ النـــــاس قبلي ∴ شددت لها بني بكر ضلوعي

هدمت بها بيوتَ بني كلابٍ ∴ وأرضعـــتُ الموالِيَ بالضـروع

رفعـــتُ لـه بذي طلاَّل كفِّي ∴ فخرَّ يميدُ كالجذع الصريع[٤]

لقد دخلت قريش الحربَ مع كنانة حين أتاهم أن البراض قد قتل عروة وهم فى الشهر الحرام بعكاظ، وهوازن لا تشعر بفجعتها فى عروة فلما علمت هوازن

---

(١) الفِجَار: بكسر الفاء، بمعنى المفاجرة كالقتال والمقاتلة و ذلك أنه كان قتالاً فى الشهر الحرام ففجروا فيه.

(٢) سيرة ابن هشام ٢٠٩/١.

(٣) اللطيمة : عيرٌ تحمل البز والعطر.

(٤) المرجع السابق ص٢١٠.

بالخبر أتبعوا قيساً فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل فدخلوا الحرم فأمسكت عنهم هوازن، وانضمت قريش إلى كنانة دفاعاً عن الحرم ثم استمروا معهم، وكان رئيس جيش قريش وكنانة حربُ بن أُمَيَّة، واستمرت هذه الحربُ أربعة أعوام[1].

نهاية حرب الفجار:

خرج عتبة بن ربيعة، فلم يشعر الفريقان بخروجه إلاَّ وهو على بعيره بين الصفين ينادى: يا معشر مضر، علام تقاتلون؟ فقالت له هوازن: ما تدعو إليه؟

فقال عتبة: الصُّلح، على أن ندفع إليكم ديَّة قتلاكم، ونعفوا عن دمائنا.

قالوا: وكيف؟ قال: ندفع إليكم رَهْناً مِنَّا

قالوا: ومن لنا بهذا؟ قال: أنا.

قالوا: ومن أنت؟ قال: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس.

فرضوا، ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلاً فيهم حكيم بن حزام، فلما رأت بنو عامر بن صعصعة الرهن فى أيديهم، عفوا عن الدماء وأطلقوهم وانقضت حربُ الفجار، فكان يقال: لم يَسُد من قريش مُمْلِقٌ[2] إلاَّ عتبة وأبو طالب[3].

فى هذه الحرب اشترك الرسول ﷺ فيها، فكان يقف بجوار أعمامه يردُّ عنهم النَّبل إذا رماهم أعداؤهم، فأعطاه وجوده فى الميدان طوال هذه المدة خبرة وفروسية وصبراً وملكة فى الحرب، وتقديراً للمواقف من صلح أو مواصلة الحرب، وكل هذا نفعه فى غزواته وتقدير الموقف فى صلح الحديبية الذى أبرمه مع قريش رغم الظلم البيِّن فيه.

---

(١) انظر: «القول المبين فى سيرة سيد المرسلين» للدكتور/ محمد الطيب النجار ص٧٠.

(٢) فقير.

(٣) الروض الأنف على هامش سيرة ابن هشام ٢١١/١.

معالم العظمة والخلود فى عمله بالتجارة ﷺ

عمل الرسول ﷺ بالتجارة، فعمل عند السيدة خديجة فى تجارتها، ولقد كان له سابقة فى هذا العمل، بيد أنه كان مصاحباً لعمه، وهذه المهنة امتهنها رعى الغنم، وتميز سلوكه التجارى بالصدق والأمانة والوفاء، فأورثته التجارة أشياء، وربح منها ما يأتى:

أولاً: تعرَّف من خلالها ومن التغلغل فى أعماقها من معرفة معادن النَّاس وعقولهم، فأكسبه ذلك ملكة فى عَرْض دعوته على البشر، فسهُل عليه الأمر.

ثانياً: أورثته هذه المهنة صبراً فى عرضه السلعة، فيقلّب بعض النَّاس فيها ثم ينصرفون ولا يشترون ، وبعضهم يقلب ويشترى، وبعضهم يفاوض على الثمن كلٌّ، هذا أورثه صبراً جميلاً ، وكان هذا مطلوباً لدعوته.

ثالثاً: حين قصد الأسواق وخرج إليها، واطلع على الطرق وعلى البلدان التى يمر بها ففتحت له آفاق تساعده على نشر دعوته، وتطمح نفسه إلى نشر دعوته فى هذه الآفاق والبلدان.

رابعاً: حين ظهرت معالم سلوكه المتعلق بالتجارة من صدق وأمانة ووفاء، عرَّفت قريشاً به، وأطلقوا عليه وصفاً صادقاً هو الصادق الأمين، فلما جاءه الوحى باح به، ودعاهم إليه حتى لا يشُكُّوا فى صدقه وأمانته؛ لأنهم يعرفونه.

● **خروج الرسول ﷺ فى تجارة السيدة خديجة :**

قال ابن إسحاق: وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه، بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوما تجارا ؛ فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها، من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا،

وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام[1].

● **لقاء الرسول ﷺ براهب من الرهبان:**

يقول ابن إسحاق: فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة، فقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم ؛ فقال له الراهب: «ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي»[2] وهذا الراهب ليس بحيرى الذى سبق الحديث عنه، بل ذكر السهيلى فى «الروض الأنف»[3] أن اسمه «نسطور».

معنى قول الراهب:

قال الراهب: «ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي»

يقول السهيلى فى معنى قول الراهب: «ما نزل تحت هذه الشجرة إلاّ نبى»: يريد: ما نزل تحتها هذه الساعة إلا نبي، ولم يرد: ما نزل تحتها قط إلا نبي ؛ لبعد العهد بالأنبياء قبل ذلك، وإن كان في لفظ الخبر: قط ،فقد تكلم بها على جهة التوكيد للنفي، والشجرة لا تعمر في العادة هذا العمر الطويل حتى يدري أنه لم ينزل تحتها إلا عيسى أو غيره من الأنبياء -عليهم السلام- ويبعد في العادة أيضا أن تكون شجرة تخلوا من أن ينزل تحتها أحد حتى يجيء نبي، إلا أن تصح رواية من قال في هذا الحديث: «لم ينزل تحتها أحد بعد عيسى ابن مريم عليه السلام ، وهي رواية

---

(١) سيرة ابن هشام ٢١٢/١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) هامش المرجع السابق ص٢١٢.

عن غير ابن إسحاق، فالشجرة على هذا مخصوصة بهذه الآية والله أعلم [1].

● **رجوع الرسول ﷺ بالتجارة إلى مكة:**

باع رسول الله ﷺ واشترى وتاجر وربح أكثر من غيره من الذين قاموا بتلك التجارة قبله، ثم رجع قافلاً إلى مكة فى صحبة ميسرة، يقول ابن إسحاق:

فكان ميسرة فيما يزعمون إذا كانت الهاجرة واشتد الحرُّ يرى ملكين يُظلاّنه من الشمس وهو يسير على بعيره[2]، ومما لا مراء فيه أن ميسرة طبع فى ذهنه كل حدث وكل مشهد رآه من الرسول ﷺ، وباح به إلى السيدة خديجة عليها السلام، وأدلى بشهادته من صدقه وأمانته ووفائه وكرم أخلاقه ومن الملكين اللذين أظلاّه.

معالم العظمة والخلود فى زواجه ﷺ من سيدة نساء قريش

كانت السيدة خديجة امرأةً قويةَ الشخصية حازمةً شريفةً لبيبةً ثريةً، يعرف شرفها وعفّتها أهلُ مكة، ولقد عَرَفتْ من عبدها ميسرة سلوك الرسول ﷺ وهى السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قصى بن كلاب ابن مُرَّة بن كعب بن لُؤَيٍّ بن غالب بن فِهْر، وأمُّها: فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواحة بن حجر، وينتهى نسبها إلى فهر.

ولقد تزوجت قبل رسول الله ﷺ برجلين هما: عتيق بن عائذ بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم، وأنجبت منه أولاداً. والثانى: أبو هالة، وهو هند بن أبى زرارة، وقيل: اسمه زرارة، وهند ابنه، وأنجبت منه أولاداً[3].

(١) هامش المرجع السابق ص٢١١، ٢١٢.
(٢) سيرة ابن هشام ٢١٢/١.
(٣) انظر: هامش سيرة ابن هشام ص٢١٥، ٢١٦.

● تعريض السيدة خديجة للرسول ﷺ بالزواج:

ترك حديث ميسرة عن الرسول ﷺ في قلب السيدة خديجة أثراً، ففتح قلبَها على شخصية ليس لها في الخلق مثيل، وليس لها بين البشر شبيه، اجتمعت فيها الكمالات البشرية، والخصائص الإنسانية والجلال الإلهي، فدعاها ذلك إلى أنْ تُعرِّض له بالزواج، وتبوحَ له بميلها، فهي بذلك تكون لها فراسة، ولديها تفكير عميق، وعقل كبير، ونظر بعيد.

قال ابن إسحاق: فقالت للرسول ﷺ - فيما يزعمون -: يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك وسِطَتِك - شرفك - في قومك وأمانتك وحُسْن خُلقك، وصِدْق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها.

وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبا، وأعظمهن شرفا، وأكثرهنَّ مالا ؛ كل قومها كان حريصا على ذلك منها لو يقدر عليه)[1].

وذكر الزهري في سيرته أنَّ رسول الله ﷺ قال لشريكه الذى كان يتجر معه في مال خديجة: هلمَّ فلنتحدث عن خديجة فلما ذهبا إليها، دخلت عليهما امرأة مستنشئة - هي الكائنة - فقالت له: جئتَ خاطباً يا محمد؟ فقال: كلاَّ، فقالت: ولِمَ؟ فوالله ما في قريش امرأة - وإن كانت خديجة - إلاَّ تراك كُفئاً لها، فرجع رسول الله ﷺ خاطباً لخديجة مستحيياً منها[2].

● وليُّ السيدة خديجة:

قيل: إن وليَّها كان والدها خويلد بن أسد، ومشى الرسول ﷺ إليه في صحبة عمه حمزة، وقيل إنَّ وليَّها كان عمُّها عمرو بن أسد، لأنَّ أباها كان قد هلك، وقيل: إنه عمرو بن خويلد أخوها.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢١٣/١.

(٢) هامش سيرة ابن هشام ٢١٤/١.

وقال المبرّد: إن أبا طالب خطب خطبة النكاح، وكان مما قاله: أمّا بعد، فإن محمداً ممن لا يوازن به فتىً من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قلَّ فإن المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك[1]، وكان صداقها عشرين بكرة، أي: فتيّة من الإبل ناقة شابة.

● **أولاد رسول الله ﷺ من السيدة خديجة :**

لقد أنجبت السيدة خديجة من الرسول ﷺ ذكوراً وإناثاً، أمّا الذكور فهم: القاسم والطيّب والطاهر، وماتوا فى الجاهلية، أمّا الإناث فهن: رقيّة ثم زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة، فكلهن أدركن الإسلام، أمّا إبراهيم فكان من السيدة مارية القبطية.

● **أسرار فى زواج الرسول ﷺ من السيدة خديجة وهي ثيّب:**

أولاً: تزوج الرسول ﷺ السيدة خديجة، وكانت نيّفت الأربعين من عمرها، وكان عمره عند زواجه خمساً وعشرين سنة، ولا شك أن المرأة إذا بلغت هذا العمر تكون قد بلغت مقام التعقُّل، وتزن الأمور بميزان العقل لا بميزان الهوى والعواطف، وزواجها باثنين قبل رسول الله ﷺ جعلها خاضت تجربتين فى ظل بناء أسرتين صارت بهما خبيرة فى كيفية معاملة الرجل، فهى تعرف مكمن فرحه وإرضائه فتفعله، وتعرف مواطن أحزانه وآلامه فتتجنبها، وفوق هذا لديها الخبرة بالمحافظة على الأسرة من العواصف الهوج التى تهب عليها، فحملت عن رسول الله ﷺ عبئاً نفسياً.

ثانياً: عمل السيدة خديجة فى التجارة، وهى تدير تجارتها بنفسها وتتابعها وتتفقد أموالها وأحوالها، جعلها إداريّة ناجحة تدير شئونها وشئون

---

(١) انظر: المرجع السابق ص٢١٣.

بيتها، فحملت عن رسول الله مشقة الإدارة الأسرية التى كانت ستثقل كاهله.

ثالثاً: غنى السيدة خديجة فاض وانتفع به الرسول ﷺ فأراحه من مشاكل كثيرة ولا غرو أنه كان يشاركها فى إدارة بيتها وتجارتها.

رابعاً: ورد نص يدل على هذه الحقائق فى أسرة رسول الله ﷺ، فلقد أورد السهيلى حديثاً (عن السيدة عائشة أنها قالت: ما تذكُرُ من عجوز حمراءَ الشدقين هلكتْ فى الدهر قد أبدلك الله خيراً منها؟ فغضب وقال: والله ما أبدلنى الله خيراً منها: آمنت بى حين كذَّبنى النَّاس، وواستنى بمالها حين حرمنى النَّاس ورزقت الولد منها، وحُرمته من غيرها)[1].

خامساً: ظهرت رجاحة عقلها وحسن تصرفها وبُعدُ نظرها حين رجع رسول الله ﷺ من غار حراء بعد أول لقاء بينه وبين جبريل، وبعد أن ضمه جبريل وعاد يرجف فؤاده وهو يقول: زمِّلونى زمِّلونى، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوعُ، ثم أخبر السيدة خديجة وقال لها: لقد خشيت على نفسى، فطمأنته وقالت له: «والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتَقْرى الضيفَ، وتُعين على نوائب الحق)[2].

وقامت السيدة خديجة بتجربة لتميز بين المَلك وبين الشيطان، وتتثبَّت من أن هذا وحيٌ أم وسوسة، قال ابن إسحاق: وحدثنى إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير أنه حُدث عن خديجة -رضي الله عنها- أنها قالت لرسول الله ﷺ: أي ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك ؟ قال: نعم ؛ قالت: فإذا جاءك فأخبرني به.

فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع، فقال رسول الله ﷺ لخديجة:

---

(١) هامش سيرة ابن هشام ٢٧٧/١.

(٢) القول المبين فى سيرة سيد المرسلين ص٧٩.

يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني ؛ قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى ؛ قال: فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها ؛ قالت: هل تراه ؟ قال: نعم ؛ قالت: فتحولْ فاجلس على فخذي اليمنى ؛ قال: فتحول رسول الله ﷺ فجلس على فخذها اليمنى ؛ فقالت: هل تراه ؟ قال: نعم. قالت: فتحول فاجلس في حجري ؛ قالت: فتحول رسول الله ﷺ فجلس في حجرها ؛ قالت: هل تراه ؟ قال: نعم ؛ قال: فتحسرت[1] وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها، ثم قالت له: هل تراه ؟ قال: لا ؛ قالت: يا ابن عم، اُثْبُت وأَبْشِر، فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان.

سادساً: بعد أن تثبتت السيدة خديجة من أن هذا مَلَكٌ وأنه يأتي بوحي اتجهت به إلى ورقة بن نوفل فهو خبير بهذا الأمر، يقول ابن إسحاق: ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصَّر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع، فقال ورقة بن نوفل، قدوسٌ قدوسٌ، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت.

فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته بقول ورقة بن نوفل، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف، صنع كما كان يصنع، بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، وقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى[2].

---

(١) انكشفت.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٢٧٠ – ٢٧١.

ولقد ذكر له موسى ولم يذكر عيسى وهو أقرب فى الزمن لأن ورقة كان قد تنصَّر، والنصارى لا يقولون فى عيسى: إنه نبى يأتيه جبريل، إنما يقولون فيه: إنه أُقنُوم – أصْلٌ – من الأقانيم الثلاثة اللاهوتية، حل بناسوت المسيح واتحد به، وهذا الأقنوم هو الكلمة، والكلمة عندهم عبارة عن العلم، فلذلك كان المسيح عندهم يعلم الغيب، ويخبر بما فى الغد، أو أنَّ ورقة اعتقد أن جبريل كان ينزل على موسى[1]. روى مسلم والبخارى (أن ورقة قال: يا ليتنى فيها جَذَعاً – شاباً – أكون حياً حين يخرجُك قومُك، فقال رسول الله ﷺ «أو مخرجيٌ هم؟» قال ورقة: نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلاَّ عُودى وإن يدركنى يومُك أنصرْك نصراً مؤزراً ثم لم ينشب أن توفى)

ولقد أورد السهيلى[2]: أن السيدة خديجة انطلقتْ تسأل من عنده علم من الكتاب كعدَّاس ونسطور الراهب، فقال لها: قدوس أنَّى لهذا الاسم أن يذكر فى هذه البلاد بعد هذا.

أليست السيدة خديجة هى الأجدر أن تكون هى الأولى من غيرها لتكون زوجة فى مقتبل حياته؟ بلى.

واختيار السيدة خديجة أن تكون زوجة لرسول الله ﷺ هو اختيار الله له فلقد رضى الله عنها (فعَنْ أَبِي زُرْعَةَ. قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْكَ. مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ. فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لاَ صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَصَبَ)[3].

---

(١) انظر هامش سيرة ابن هشام ٢٧٣/١.

(٢) المرجع السابق .

(٣) رواه مسلم.

معالم العظمة والخلود في اشتراكه ﷺ
في بناء الكعبة

الكعبة بيت الله، وهو أول بيت وضع للناس، وهو في أم القرى ولقد اختُلف فيمن بناه:

قال فريق من العلماء: إن أول من بناه آدم عليه الصلاة والسلام، وساق أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة بعض الآثار الدالة على ذلك منها:

١- عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: (قال النبي ﷺ: بعث الله جبريل إلى آدم وحواء، فقال لهما: ابنيا لي بناءً، فخط لهما جبريل عليه السلام، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أجابه الماء، ثم نودي من تحته: حسبك يا آدم! فلما بنياه أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به، وقيل له: أنت أول النّاس، وهذا أول بيت، ثم تناسخت القرون حتى حجَّه نوح، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه).

٢- وروى بسنده عن محمد بن كعب القرظي أو غيره قال: (حج آدمُ عليه السلام فلقيته الملائكة فقالوا: بُرَّ نُسُكُك يا آدم، لقد حججنا قبلك بألفي عام) ومعنى بُرَّ نُسُكُك: أي قُبِلت.

وقال فريق من العلماء: إن إبراهيم هو الذي أقام بناءه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١).

و لو تدبرنا النص لوجدنا الحق مع الفريق الأول، فقواعد البيت كانت موجودة، بيد أن إبراهيم قام برفعها ومعه ابنه إسماعيل.

ومن خلال تاريخ البيت نرى أنها بنيت خلال الدهر كله أربع مراتٍ بيقين، ووقع الخلاف والشك فيما قبل هذه المرات الأربع، وهذه المرات الأربع هي:

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٧.

الأولى: وهى التى قام إبراهيم وإسماعيل ببنائها: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾،

الثانية: وهى التى بنتها قريش بعد أن احترقت من شرارة من مجمرة امرأة وعُمْرُ رسول الله ﷺ خمس وثلاثون سنة، واشترك رسول الله ﷺ فى بنائها، وسنتحدث عن هذه المرة بشىء من التفصيل لأنها المرادة من بين هذه المرات.

الثالثة: عندما هُدمت فى عهد يزيد بن معاوية على يد جيش من الشام وحاصروا عبد الله بن الزبير فيها، فرموها بالمنجنيق بأمر من يزيد بن معاوية، وكان هذا الجيش بقيادة الحصين بن نمير السكونى، ثم قام ببنائها ابن الزبير رضى الله عنه.

الرابعة: لما قُتل عبد الله بن الزبير وهدمها سفاحُ بنى أميَّة الحجاج بن يوسف الثقفى كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان، فأمره بأن يُقر الطول الذى زاده ابن الزبير، وأمَّا ما زاده فى الحِجْر فليرده إلى بنائه.

وروى أن الرشيد عزم بعد ذلك على أن ينقضها ويعيدها كما بناها ابن الزبير، فنهاه الإمام مالك عن ذلك حتى لا يكون البيتُ ملعبة للملوك [2].

(١) سورة الحج آية ٢٦.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢٦٢/١، ط الشعب وانظر: الروض الأنف هامش سيرة ابن هشام ٢٢٢/١.

معالم العظمة والخلود فى اشتراك رسول الله ﷺ فى بناء الكعبة

لقد اشترك الرسول فى بناء الكعبة كما مرَّ، ووقع حدث رواه البيهقى فى دلائل النبوة (عن يونس عن ابن شهاب قال «لما بلغ رسول الله ﷺ الحُلُم أجمرت امرأة الكعبة، فطارت شرارة من مجمرتها في ثياب الكعبة فاحترقت فهدموها، حتى إذا بنوها فبلغوا موضع الركن اختصمت قريش في الركن أي القبائل تلي رفعه؟، فقالوا: تعالوا نحكِّم أول من يطلع علينا، فطلع رسول الله ﷺ وهو غلام عليه وشاح نمرة، فحكَّموه فأمر بالركن فوضع في ثوب، ثم أخرج سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب، ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن فكان هو يضعه، ثم طفق لا يزداد على السِّنِّ إلا رضى حتى دعوه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحي، فطفقوا لا ينحرون جزوراً إلا التمسوه فيدعو لهم فيها).

وتتبدَّى عظمة الرسول ﷺ فى جوانب هذا الموقف:

١- حقن الدماء حين أطلَّت الفتنة برأسها، ووصل بهم الخلاف إلى أن بنى عبد الدار قرَّبوا جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدى على الموت، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً دون أن يردها إلى الوفاق أى رأى أو تدبير حتى خمدت الفتنة على يد النبى ﷺ، فلقد وجَّهه الله تعالى إلى ذلك حتى توقن قريش أن هذا الرجل مصدر رحمة للناس فحين يأتى بالرسالة يؤمنون به، وظهر فى هذا الموقف عبقريته وذكاؤه.

٢- هذا الموقف سما برسول الله ﷺ فزادت أسهمه فى قلوبهم، وأضيف رصيد إلى وصف الصادق الأمين، وهذه أدلة على صدق ما جاء به لأنهم لم يعهدوا عليه كذباً.

٣- فاق رسول الله سادة قريش بما فعله، بيد أنه حين أتته الرسالة تملكهم الحقد والحسد، فأبوا قبول دعوته حتى لا يسبقهم فى الفضل.

معالم العظمة والخلود في نزاهته ﷺ عن أقذار الجاهلية

أولاً: روى الإمامان البخاري ومسلم واللفظ له: (لَمَّا بُنِيَتِ الْكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلَانِ حِجَارَةً. فَقَالَ الْعَبَّاسُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى عَاتِقِكَ مِنَ الْحِجَارَةِ. فَفَعَلَ، فَخَرَّ إِلَى الأَرْضِ، وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: "إِزَارِي، إِزَارِي" فَشَدَّ عَلَيْهِ إِزَارَهُ).

ثانياً: روى البيهقي بسنده عن علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله تعالى فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الفتيان، فقال: بلى، فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذُنَيَّ، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس! فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئا، ثم أخبرتُه بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة، ففعل فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألتُ فقيل: فلان نكح فلانة، فجلستُ أنظر، وضرب الله على أذنيَّ، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس! فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلتَ؟ قلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما بشيء من ذلك حتى أكرمني الله ﷻ بنبوته).

ثالثاً: روى البيهقي بسنده عن أسامة بن زيد عن زيد بن حارثة قال (فوالذى هو أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً حتى أكرمه الله بالذى أكرمه وأنزل عليه).

معالم العظمة والخلود
في الإرهاصات[1] التي سبقت نُبُوته ﷺ

لقد عرفت البشرية رسول الله قبل وجوده فلقد روى الإمام أحمد فى مسنده (عن العرباض بن سارية السلمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل – أى: مطروح– في طينته وسأنبئكم بتأويل ذلك: دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه ورؤيا أمِّي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام)[2].

لقد عرفه الأنبياء كما أخبر بذلك الله تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[3].

(قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به وينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه)[4].

وذهب إلى هذا كثير من العلماء منهم القرطبي.

و ذهب بعض العلماء إلى أنَّ هذا لكل رسول، والمعنى: وإذ أخذ الله ميثاق كل نبى لما آتيتكم من كتاب فيه حكمة، ثم جاء بعدك رسول منى بكتاب مصدق لما معكم لتتبعنَّه ولتنصرنه.

---

(١) الإرهاصات : هى الأمور الخارقة للعادة تظهر قبل مبعث النبى.

(٢) رواه أحمد وابن حبان والحاكم وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان والطبراني فى الكبير، وابن سعد عن العرباض بن سارية [كنز العمال].

(٣) سورة آل عمران آية ٨١.

(٤) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٦٥/٢.

و الذى أراه:

أن المراد بقوله: ﴿ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ هو رسول الله محمد ﷺ، ونكّر (رَسُولٌ) للتفخيم والتعظيم.

ولقد عرفت الأمم رسول الله محمّداً ﷺ قبل وجوده الجسدى، وعرفه اليهود أكثر من معرفتهم لأبنائهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [1]، وترسخ فى أذهان اليهود نعوت رسول الله ﷺ (فعن عطاء بن يسار قال:

لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكِّل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سَخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفرُ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملَّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً)[2].

فلقد عرفه اليهود، وعرفوا مقامه لدى الله ﷻ، فسألوا الله به أن ينصرهم فى معاركهم التى كانوا يخوضونها، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[3].

(عن ابن عباس أن يهوداً كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه،

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٦.

(٢) رواه البخارى.

(٣) سورة البقرة آية ٨٩.

فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، ما هو الذي كنا نذكر لكم، فينزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ﴾)[1].

● **ومن الإرهاصات التي سبقت رسول الله ﷺ**

أولاً: (عن سلمة بن سلامة بن وقش، وكان سلمة من أصحاب بدر، قال: كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يوما من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل – قال سلمة: وأنا يومئذ من أحدث من فيه سناً، عليّ بردة لي، مضطجع فيها بفناء أهلي – فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ؛ قال: فقال ذلك لقوم أهل شركٍ أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثا كائن بعد الموت ؛ فقالوا له: ويحك يا فلان أوترى هذا كائنا، أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بأعمالهم ؟ قال: نعم، والذي يُحْلَفُ به، ولودّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدار، يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطينونه عليه، بأن ينجو من تلك النار غدا ؛ فقالوا له: ويحك يا فلان ! فما آية ذلك ؟ قال: نبيٌّ مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده إلى مكة واليمن ؛ فقالوا: ومتى تراه ؟ قال: فنظر إليَّ وأنا من أحدثهم سنا، فقال: إن يستنفد هذا الغلامُ عمرَه يدركْه)[2].

ثانياً: ابن الهَيَبان:

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة

---

(١) تفسير ابن كثير ١/١٧٨.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٢٤٥.

قال: قال لي: هل تدري عمَّ كان إسلام ثعلبة بن سَعْية وأسِيد بـن سـعية وأسـد بـن عبيد، نفر من بني هدْل، إخوة من بني قريظة، كانوا معهم في جاهليتهم ثم كـانوا سادتهم في الإسلام؟ قال: قلت: لا والله، قال: فإن رجلا من يهود مـن أهـل الشـام، يقال له: ابن الهيَّبان، قدم علينا قبيل الإسلام بسنين، فحل بين أظهرنا، لا والله ما رأينا رجلا قط لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا فكنا إذا قحط عنا المطر قلنـا له: اخرج يا ابن الهيبان فاستسـق لنـا ؛ فيقـول: لا والله حتـى تقـدموا بـين يـدي مخرجكم صدقة ؛ فنقول له: كم ؟ فيقول: صاعاً من تمـر، أو مُـدَّين[1] مـن شـعير، قال: فنخرجها ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرَّتنا[2] فيستسقي الله لنا، فـوالله مـا يـبرح مجلسه حتى يمر السحاب ونسقى، قد فعل ذلـك غـير مـرة ولا مـرتين ولا ثـلاث، قال: ثم حضرته الوفاة عندنا. فلما عرف أنه ميت،

قال: يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمـير إلى أرض البؤس والجوع ؟

قال: قلنا: إنك أعلم ؛ قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكَّـف – أنتظـر– خـروج نبى قد أظل زمانه ؛ وهذه البلدة مُهَاجَرُهُ، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تُسْبَقُنَّ إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، وسـبي الـذراري والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه.

فلما بُعث رسول الله ﷺ وحاصر بني قريظـة، قـال هـؤلاء الفتيـة، وكـانوا شبابا أحداثا: يا بني قريظة، والله إنه للنبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيَّبان ؛ قالوا: ليس به ؛ قالوا: بلـى والله، إنـه لهـو بصـفته، فنزلـوا وأسـلموا، وأحـرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم [3].

---

(١) المُدّ: هو نصف قدح بالكيْل، و الصاع: أربعة أمداد. والمد: حفنة بكفى الرجل العادى مجتمعين.

(٢) الحرَّة: هى الحجارة السوداء فى المدينة الحرَّة الشرقية و الحرة الغربية.

(٣) سيرة ابن هشام ٢٤٦/١.

حديث الجن وقَذْفُهُم بالشُّهب إرهاص لمجيئه ﷺ

أولاً: حديث الغيطلة عن صاحبها من الجن:

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم: أن امرأة من بني سهم، يقال لها: الغيطلة، كانت كاهنة في الجاهلية، فلما جاءها صاحبها في ليلة من الليالي، فأنقض تحتها، ثم قال: أدر ما أدر، يوم عقر ونحر؛ فقالت قريش حين بلغها ذلك: ما يريد؟ ثم جاءها ليلة أخرى، فأنقض تحتها، ثم قال: شعوب ما شعوب، تُصْرَع فيه كَعْبٌ لِجنُوب، فلما بلغ ذلك قريشا، قالوا: ماذا يريد؟ إن هذا لأمر هو كائن، فانظروا ما هو، فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأُحُد بالشعب، فعرفوا أنه الذي كان جاء به إلى صاحبته[1].

ثانياً: حديث كاهن جنب عن الرسول ﷺ:

وحدثني عليُّ بن نافع الجُرشِيِّ: أنَّ جنباً- بطنا من اليمن- كان لهم كاهن في الجاهلية، فلما ذُكِر أمر رسول الله ﷺ وانتشر في العرب، قالت له جنب: انظر لنا في أمر هذا الرجل، واجتمعوا له في أسفل جبله؛ فنزل عليهم حين طلعت الشمس، فوقف لهم قائما متكئاً على قوس له، فرفع رأسه إلى السماء طويلا، ثم جعل ينزو، ثم قال: أيها الناس، إن الله أكرم محمَّداً واصطفاه، وطهَّر قلبه وحشاه، ومُكْثُهُ فيكم أيها النَّاس قليل، ثم اشتد في جبله راجعا من حيث جاء[2].

ثالثاً: حديث عمر عما رآه عند الوثن:

روى ابن إسحاق: بسنده عن عمر بن الخطاب قال: والله إني لعند وثن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش، قد ذَبَح له رجل من العرب عجلا، فنحن ننتظر

---

(١) المرجع السابق: ٢٣٨/١.

(٢) المرجع السابق ص٢٣٩، ٢٤٠.

قَسْمَه ليقسم لنا منه، إذ سمعت من جوف العجل صوتا ما سمعت صوتا قط أنفذ منه، وذلك قبيل الإسلام بشهر أو شيعه –أى دونه بقليل– يقول: يا ذريح، أمر نجيح، رجل يصيح، يقول: لا إله إلا الله[1].

رابعاً: حديث خطر بن مالك الكاهن:

روى أبو جعفر العقيلي في كتاب الصحابة عن رجل من بني لهب يقال له: لهب أو لهيب –وقد تكلمنا على نسب لهب في هذا الكتاب– قال لهيب: حضرت مع رسول الله ﷺ فذكرت عنده الكهانة فقلت: بأبي وأمي، نحن أوّل من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم، وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له: خطر بن مالك، وكان شيخا كبيرا قد أتت عليه مائتا سنة وثمانون سنة، وكان من أعلم كُهَّانِنا، فقلنا: يا خطر هل عندك علم من هذه النجوم التي يرمى بها فإنا قد فزعنا لها وخشينا سوء عاقبتها ؟ فقال:

ائتوني بسَحَرْ
أخبرْكم الخَبَرْ
أبخيرٍ أم ضَرَر
أو لأمنٍ أو حَذَرْ

قال: فانصرفنا عنه يومنا، فلما كان من غدٍ في وجه السحر أتيناه فإذا هو قائم على قدميه شاخصٌ في السماء بعينيه، فناديناه: أخطر يا خطر ؟ فأومأ إلينا: أن أمسكوا، فانقض نجم عظيم من السماء وصرخ الكاهن رافعا صوته:

أصابه وصَابُه خامرهُ عقابُه
عاجله عذابه أحرقه شهابه
زايله جوابُه

(١) المرجع السابق ص٢٤٣.

يـا ويلـه مـا حالـه بَلْبَلَـةُ بَلبالُـه

عـاوده خبالُـه تقطعـتْ حِبالُـه

وغُيِّـرتْ أحـواله

ثم أمسك طويلا وهو يقول:

يـا مَعْشَـر بَـني قَحْطَـان أُخْـبِرُكُم بـالحَقِّ وَالبَيَـان

أقْسَـمْتُ بالكَعْبَـةِ والأرْكَـان وَالبَلَـدِ المُـؤْتَمن السُّـدّان

لقـد مُنـع السَّـمْعَ عُتَـاةُ الجَـان بثاقـبٍ بكـفِّ ذي سـلطان

مِـنْ أجْـلِ مَبْعُـوثٍ عَظـيم الشَـان يُبْعـثُ بالتَّنْزيـل والقُـرآن

وبالهُـدَى وفَاصِـل القُـرآن تَبْطُـل بِـهِ عِبَـادَةُ الأوْثَـان

قال: فقلنا: ويحك يا خطر إنك لتذكر أمراً عظيماً، فماذا ترى لقومك؟

فقال:

أرى لقـومي مـا أرى لنفسـي أن يتَّبعـوا خـير نـبيِّ الإنـس

برهانـه مثـلُ شـعاع الشـمس يُبعـثُ في مكـةَ دار الحُمْـس

بِمُحْكَم التنزيل غير اللبس

فقلنا له: يا خطر وممن هو ؟ فقال: والحياةِ والعيش، إنَّه لمن قريش ما في حلمه طيش، ولا في خلقه هيش، يكون في جيش وأي جيش، من آل قحطان وآل أيش، فقلت له: بين لنا: من أي قريش هو ؟ فقال: والبيت ذي الدعائم، والركن والأحائم، إنه لمن نجل هاشم، من معشر كرائم، يبعث بالملاحم، وقَتْل كُلِّ ظَالم، ثم قال: هذا هو البيان، أخبرني به رئيس الجان، ثم قال: الله أكبر جاء الحق وظهر، وانقطع عن الجن الخبر، ثم سكت وأغمي عليه، فما أفاق إلا بعد ثلاثة، فقال:

لا إله إلا الله؛ فقال رسول الله ﷺ: لقد نطق عن مثل نبوة وإنه ليبعث يوم القيامة أمةً وحده)[1].

معالم العظمة والخلود لرسول الله ﷺ في حديث سلمان الفارسي

لقد فطر الله النَّاس على التوحيد والانتماءِ إلى خالقهم، وهي الفطرة التي قال الله عنها: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [2]. وهي التي قال عنها الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه» فمن يُبَدِّلها هم البشر، فإذا بُدِّلتْ كان في أعماق الإنسان أثر لها يحن إليها، وتهفو نفسه إلى الخروج عن دائرة الدين المزيف الذي ورثه عن والده، وتحت إلحاح أثارة الفطرة يخرج الإنسان يبحث عن الدين الصحيح، فهو الحقيقة المطلوبة، وهذا واحد من هؤلاء هو سلمان الفارسي.

- **سلمان يترك المجوسية ويتشوَّف إلى النصرانية.**

روى ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: حدثني سلمان الفارسي، وأنا أسمع مِنْ فِيهِ، قال: كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان من قرية يقال لها: جَيّ، وكان أبي دِهقان قريته، وكنت أحبَّ خلق الله إليه، لم يزل به حبُّه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحْبَسُ الجاريةَ، واجتهدتُ في المجوسية حتى كنتُ قَطِنَ النار الذي يوقدها، لا يتركها تخبو ساعةً.

قال: وكانت لأبي ضيعةٌ عظيمة، قال: فَشُغِلَ في بنيان له يوما، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فاطلعها – وأمرني فيها ببعض ما يريد– ثم قال لي: ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني

---

(١) الروض الأنف على هامش سيرة ابن هشام ٢٣٩/١ – ٢٤١.

(٢) سورة الروم الآية ٣٠.

كنت أهمَّ إليَّ من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري.

قال: فخرجتُ أُريد ضيعته التي بعثني إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعتُ أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس، لحبس أبي إياي في بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلتُ عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس، وتركتُ ضيعةَ أبي فلم آتها ؛ ثم قلت لهم: أين أصْلُ هذا الدين ؟ قالوا: بالشام.

فرجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي، وشغلته عن عمله كله، فلما جئته قال: أي بني أين كنت ؟ أولم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟ قال: قلت له: يا أبت، مررت بأناسٍ يصلُّون في كنسية لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس ؛ قال: أي بُنَيَّ، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه؛ قال: قلت له: كلا والله، إنه لخير من ديننا. قال: فخافني، فجعل في رجلي قيدا، ثم حبسني في بيته[1].

- سلمان يلحق بالشام بحثاً عن الحقيقة.

يقول سلمان: وبعثت إلى النصارى. فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم. قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى، فأخبروني بهم. فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم، فآذنوني بهم. قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام. فلما قدمتها، قلت: مَنْ أفضل أهل هذا الدين علما؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة.

(١) سيرة ابن هشام ٢٤٧/١.

- سلمان مع أسقف النصارى السّيء:

قال: فجئته فقلت له: إني قد رغبتُ في هذا الدين، فأحببت أن أكون معك، وأخدمك في كنيستك، فأتعلم منك، وأصلي معك؛ قال: ادخل، فدخلت معه. قال: وكان رجلَ سوء، يأمرهم بالصدقة، ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئا منها اكتنـزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جَمَع سبع قلال من ذهب ووَرق – أي فضة–.

قال: فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع؛ ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إنَّ هذا كان رجل سَوْء، يأمركم بالصدقة، ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها، اكتنـزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئا. قال: فقالوا لي: وما علمُك بذلك ؟ قال: فقلت لهم: أنا أدلُّكم على كنـزه؛ قالوا: فدُلَّنا عليه؛ قال: فأريتهم موضعه، فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءةً ذهبا ووَرِقاً.

قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدا. قال: فصلبوه، ورجموه بالحجارة، وجاءوا برجل آخر، فجعلوه مكانه[1].

- سلمان مع أسقف النصارى الصالح:

يقول سلمان: فما رأيت رجلا يصلي الخمس مثله، أرى أنه كان أفضل منه وأزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ولا نهاراً منه. قال: فأحببته حباً لم أحبه شيئا قبله مثله. قال: فأقمت معه زمانًا طويلاً، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان، إني قد كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه شيئا قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني ؟ قال: أي بُنَـي، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه، فقد هلك الناس، وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالمَوْصل، وهو فلان، وهو على ما كنت عليه فالحق به[2].

---

(١) المرجع السابق ص٢٤٨.

(٢) المرجع السابق.

- **سلمان يلحق بأسقف الموصل.**

قال سلمان: فلما مات وغيِّب لحقت بصاحب الموصل، فقلت له: يا فلان، إنَّ فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره؛ قال: فقال لي: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات.

فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا فلان، إن فلاناً أوصي بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من تُوصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: يا بني، والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه، إلا رجلاً بنصيبين[1]، وهو فلان، فالحق به[2].

- **سلمان يلحق بأسقف نصيبين.**

فلما مات وغيِّب لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته خبرى، وما أمرني به صاحبه، فقال: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه. فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حُضر قلت له: يا فلان، إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك؛ فإلى من توصي بي ؟ وبم تأمرني ؟ قال: يا بُنيِّ، والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعَموريَّة من أرض الروم، فإنَّه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، فإنه على أمرنا [3].

- **سلمان يلحق بصاحب عمورية.**

يقول سلمان: فلما مات وغيِّب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبري؛ فقال: أقِم عندي، فأقمت عند خير رجل، علي هدي أصحابه وأمرهم. قال: واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة. قال: ثم نزل به أمر الله تعالى، فلما حُضر

---

(١) منطقة باليَمَنْ

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق

قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان، فأوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي ؟ وبم تأمرني ؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مُهاجَره إلى أرض بين حَرَّتين، بينهما نخل به علامات لا تخفى:

١- يأكل الهدية،

٢- ولا يأكل الصدقة،

٣- وبين كتفيه خاتم النبوة،

فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل[١].

- مأساة سلمان وذهابه إلى وادي القرى:

قال سلمان: ثم مات وغيب، ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من كَلْبٍ تجار، فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه؛ قالوا: نعم. فأعطيتُهمُوها وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني، فباعوني من رجل يهودي عبداً، فكنتُ عنده، ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يَحِقْ في نفسي[٢].

- سلمان يذهب إلى يثرب - المدينة المنورة -:

يقول سلمان: فبينا أنا عنده، إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها، وبُعث رسول الله ﷺ، فأقام بمكة ما أقام، لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة.

---

(١) المرجع السابق ص٢٤٩.

(٢) المرجع السابق.

- سلمان يسمع بهجرة الرسول ﷺ.

يقول سلمان: فوالله إني لفى رأس عذق لسيدي أعمل له فيه بعض العمل، وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال: يا فلان، قاتل الله بني قيلة -أم الأوس والخزرج- والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي.

قال سلمان: فلما سمعتها أخذتني العُرَوْراء - الرعدة والانتفاضة- حتى ظننت أني سأسقط على سيدي، فنزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ فغضب سيدي، فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: ما لَكَ ولهذا؟ أقبل على عملك. قال: قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال.

- سلمان يستوثق من صفات الرسول التى ذكرها له أسقف عمورية.

مضى آنفاً أن صاحب عمورية ذكر لسلمان ثلاثة أوصاف فى سلوك رسول الله وجسده، وهى: أنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فذهب بعد أن قال لسيده: إنما أردت أن أستثبته عما قال.

يقول سلمان: وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته، ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء، فدخلت عليه، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء قد كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، قال: فقربته إليه؛ فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: كلوا، وأمسك يده فلم يأكل، قال: فقلت في نفسي: هذه واحدة. قال: ثم انصرفت عنه، فجمعت شيئا، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته به فقلت له: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، فهذه هدية أكرمتك بها. قال: فأكل رسول الله ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه. قال: فقلت في نفسي: هاتان ثنتان.

قال: ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد، قد تبع جنازة رجل من

أصحابه، وعليَّ شملتان لي، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؛ فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي؛ فقال لي رسول الله ﷺ: تحول، فتحولت فجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، فأعْجَبَ رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه. ثم شغل سلمان الرِّقُّ حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدرٌ وأُحد[1].

- سلمان يفك نفسه من الرِّقّ بأمر الرسول ﷺ ومساعدته.

قال سلمان: ثم قال لي رسول الله ﷺ: كاتب[2] يا سلمان؛ فكاتبتُ صاحبي على ثلثمائة نخلة أحييها له بالفقير [3]، وأربعين أوقية ذهب. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: أعينوا أخاكم، فأعانوني بالنخل، الرجل بثلاثين وَدِيَّة -وهى النخلة ما بين أن تخرج من النواة وبين الفسيلة - والرجل بعشرين وَدِيَّة، والرجل بخمس عشرة وَدِيَّة، والرجل بعشر، يعين الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة وَدِيَّة؛ فقال لي رسول الله ﷺ: اذهب يا سلمان ففقِّرْ لها، فإذا فرغت فأتني أكنْ أنا أضعها بيدي.

قال: ففقَّرت وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته، فخرج رسول الله ﷺ معي إليها، فجعلنا نقرِّب إليه الودي، ويضعه رسول الله ﷺ بيده، حتى فرغنا. فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها وَدِيَّة واحدة.

قال سلمان: فأديت النخل وبقي عليَّ المال. فأتي رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب، من بعض المعادن، فقال: ما فعل الفارسي المكاتب ؟

---

(١) المرجع السابق ص٢٥٠.

(٢) المكاتبة: أن يطلب العبد من سيده العتق مقابل مال يأتى به العبد من عمل خارجى.

(٣) قال السهيلى: الفقير للنخلة. والذى أراه أنه موضع وحقل.

قال: فدُعيت له، فقال: خذ هذه، فأدِّها مما عليك يا سلمان. قال: قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليَّ ؟ فقال: خذها فإن الله سيؤدي بها عنك.

قال: فأخذتها فوزنت لهم منها، والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم منها، وعتق سلمان. فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حُرًا، ثم لم يفتني معه مشهد[1].

- حديث آخر لرجل عمورية مع سلمان:

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة، قال: حدثني من لا أتهم عن عمر بن عبد العزيز بن مروان، قال: حُدثت عن سلمان الفارسي: أنه قال لرسول الله ﷺ، حين أخبره خبره: إن صاحب عمورية قال له: ائت كذا وكذا من أرض الشام، فإن بها رجلا بين غيضتين، يخرج في كل سنة من هذه الغيضة إلى هذه الغيضة مستجيزا، يعترضه ذوو الأسقام، فلا يدعو لأحد منهم إلا شُفي، فاسأله عن هذا الدين الذي تبتغي، فهو يخبرك عنه.

قال سلمان: فخرجت حتى أتيت حيث وَصَفَ لي، فوجدت الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هنالك، حتى خرج لهم تلك الليلة، مستجيزًا من إحدى الغيضتين إلى الأخرى، فغشيه الناس بمرضاهم، لا يدعو لمريض إلا شُفي، وغلبوني عليه، فلم أخلص إليه حتى دخل الغيضة التي يريد أن يدخل، إلا منكبه.

قال سلمان: فتناولته، فقال: من هذا ؟ والتفت إليَّ، فقلت: يرحمك الله، أخبرني عن الحنيفيَّة دين إبراهيم. قال: إنك لتسألني عن شيء ما يسأل عنه الناس اليوم، قد أظلَّك زمان نبي يبعث بهذا الدين من أهل الحرم، فأته فهو يحملك عليه. قال: ثم دخل.

قال: فقال رسول الله ﷺ لسلمان: لئن كنت صدقتني يا سلمان، لقد لقيت

(١) المرجع السابق ص٢٥١، ٢٥٢.

عيسى ابن مريم[1].

عبادة الرسول قبل الوحى

شب الرسول ﷺ ومضى ركب العمر نحو الأربعين سنة، وكان قومه يعبدون الأصنام والأوثان، وهو مفطور على التوحيد، فلا اتفاق بينه وبين قومه فى عقيدتهم، ولقد كره آلهتهم وصرَّح ذلك لبحيرى حينما كان فى صحبة عمه، حين أقسم بحيرى باللات والعزى جرياً على أيمان قومه التى سمعها منهم، فلم يتدنس بعبادة قومه.

ولقد اختلف العلماء فى العبادة التى كان عليها الرسول ﷺ:

فقال بعضهم: كان يعبد الله على البقية الباقية من دين إبراهيم، وهذا الرأى مجانب للصواب؛ لأنَّه لو كانت هناك بقية لاعتنقها الحنفاء قبل الإسلام كقُسٍّ بن ساعدة الإيادى وورقة بن نوفل، وحفظها بعض النَّاس، بيد أن هناك رجلاً فى العرب قبل الإسلام أبى عبادةَ الأصنام، وفارق دين قومه ولم يدخل اليهوديَّةَ ولا النصرانية، فلقد عفَّ عنهما للتحريف الذى تغلغل فيهما وذلك بحسِّه الفطرى، هذا الرجل هو زيد بن عمرو بن نفيل.

زيد بن عمرو بن نفيل يتوقف عن الأديان قبل الإسلام:

قال ابن إسحاق: وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد ربَّ إبراهيم؛ وبادى قومه بعيب ما هم عليه.

وقال ابن إسحاق: وحدثني هشام بن عروة عن أبيه، عن أمِّه أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنهما- قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً

(١) المرجع السابق ص٢٥٢، ٢٥٣.

ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري[1]، ثم يقول: اللهمَّ لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحلته.

وقال زيد بن عمرو:

أربّـاً واحـداً أم ألـفَ ربٍّ	∴	أديـن إذا تُقسِّـمتْ الأمـورُ
عزلـت الـلات والعُـزّى جميعًـا	∴	كـذلك يفعـل الجَلْـدُ الصـبورُ
فـلا العـزى أدِيـنُ ولا ابْنَتَيْهَـا	∴	ولا صَـنَمَيْ بنـى عمـرو أزورُ
ولا هُـبَلاً أديـنُ وكـان ربّـاً	∴	لنـا في الـدَّهر إذ حِلْمـي[2] يسـيرُ
عجبـت وفي الليـالي معجبـاتٌ	∴	وفي الأيـام يعرفهـا البصـيرُ
بـأنَّ الله قـد أفنـى رجـالاً	∴	كـثيراً كـان شَـأنَهم الفجـورُ
وأبقـى آخـرين بـبرِّ قـوم	∴	فيربـل[3] مـنهم الطفـل الصـغير

وأورد ابن إسحاق فى رواية له عن سعيد بن زيد وعمر بـن الخطـاب، أنهما قالا لرسول الله ﷺ: أنستغفر لزيد بن عمرو؟ قال: نعم، فإنَّه يُبْعث أمةً وحده.

فهذا يدل على أنه لم يكن فى جزيرة العرب بقيةٌ باقية من دين إبراهيم.

وذهب بعض العلماء إلى أن عبادة الرسول ﷺ كانت قائمة على التأمل والتفكر فى خلق الله، ولذلك اعتزل قومه وتركهم وانفرد فى غار حراء حتى أتاه الوحى، وهذا هو الصحيح.

يقول الأستاذ الدكتور/ محمود محمد زيادة فى كتابه «العرب وظهور الإسلام»: (وكان النبى فى ذلك الوقت قد قارب الأربعين، وهو على إطراقه العميق

(١) أى فى توحيد الله و البعد عن الأصنام والأوثان.
(٢) كان ربّاً لهم وعَقْله صغير.
(٣) فيربلُ: فيغلظ.

وتفكيره المتواصل مع الصمت والابتعاد عن ضوضاء الحياة، فكان يفكر فيما فيه قومه من الرضوخ للوثنية وبعدها عن أيَّةِ تغذية روحيَّة، ويفكر فى المسيحية واليهودية وما فيهما من المتناقضات والتعقيدات، فكان يخلو بنفسه للتفكير فى شغله الشاغل له، ويرى أن الحق وراء ما عليه جميع هؤلاء النَّاس، فهو حائر يرتاد الأودية الخالية حول مكة، وأكثر الأماكن ارتياداً هو غار فى جبل حراء الواقع فى شرق مكة على بعد فرسخين منها، وهو الذى أطلق عليه جبل النور فيما بعد، فكان النبى يذهب إليه ويبقى فيه أيَّاماً، وقد صحبته السيدة خديجة فى بعض الأحيان، وكان يذهب إليه بصفة خاصة طوال شهر رمضان من كل سنة للخلوة والتعبد بالقليل من الزاد، ولكنْ على أى شرع كان يتعبَّد الرسول ﷺ ؟

لم يحدثنا الرسول ﷺ عن هذه الفترة من حياته، ولذلك اختلف العلماء فى هذه المسألة ووضعوها موضع البحث والمناقشة:

فقال جمهور منهم: إنه لم يكن مكلفاً باتباع شريعة ما من الشرائع الماضية.

و توقف جماعة أمثال الغزالى وإمام الحرمين والآمدى.

و جماعة ثالثة ذكرتْ: أنه كان متعبِّداً على شريعة، ولكنَّهم اختلفوا فى تعيينهم هل هى شريعة آدم أو إبراهيم أو موسى أو عيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

سبب هذا الخلاف.

أنهم لم يجدوا دليلاً يعتمدون عليه، ويخرجهم من حيز الحدس والتخمين، ونقول لهؤلاء الذين يقولون: إنه كان يتعبَّد على شريعة: إذا كانت شريعة إبراهيم فلم تكن معروفة فى ذلك الوقت، أو على الأقل لم تكن تفاصيلها معروفة فى جزيرة العرب، وإذا كانت شريعة موسى أو شريعة عيسى لقضت العادة بمخالطة الرسول ﷺ لأهلها، ولنقل إلينا التاريخ ذلك، لكنه لم ينقل؛ بل كان يعيب ما عليه أتباع

موسى وأتباع عيسى وما هم عليه من التعقيد والخلاف المذهبى والتحريف، وفوق ذلك أن محمداً لم يكن يسمح لأحد أن يخالطه، فكان مُمْعِناً فى الخلوة ليتفرغ للأمر الذى شغله واستولى على قلبه، وهو الوصول إلى الحقيقة فى أمر الخالق جل جلاله بدليل، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ فهل يوجد بعد هذا من يقول إنه كان يتعبد على شريعة؟

فكان تفكيره فى الخالق حتى اتصل به)[1].

معالم العظمة والخلود فى بدء الوحى

تعلق فؤاد الرسول ﷺ بما وراء العقائد التى كانت تموج بها جزيرة العرب، فأنف من عبادة قومه ومن لوازمها، فأفرده الحق تبارك وتعالى فى غار حراء، ولكن لم يأته الوحى فجأة بل كانت هناك مرحلة هى توطئة ومقدمة لقلبه ونفسه، وهى الرؤيا الصادقة، فصار لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فلق الصبح. ومكث على ذلك ستة أشهر.

روى البخارى بسنده عن السيدة عائشة أنها قالت: (أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، (وَهُوَ التَّعَبُّدُ) اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ. قَالَ: "مَا أَنَا بِقَارِئٍ" قَالَ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي -أى عصرنى وضمَّنى- حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ[2]، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ

(١) العرب وظهور الإسلام ص١٥٠ ، ١٥١، ط دار الطباعة المحمدية بالأزهر.
(٢) الجَهْد: التعب، وورد بضم الجيم.

أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بنت خويلد –رضي الله عنها– فَقَالَ: "زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي"، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ – الخوف–، فقَالَ لِخَدِيجَةَ: وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: "لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي"، فقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ والله. ما يُخْزِيكَ الله أَبَدا. إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَبْرَانِي، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعَبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخا كَبِيرا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِن ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ الله عَلَى مُوسَى ﷺ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟" قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرا مُؤَزَّرا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَة أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ).

السرُّ في ضم جبريل لرسول الله ﷺ:

قال الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم: (قال العلماء: والحكمة في الغط شغله من الالتفات والمبالغة في أمره بإحضار قلبه لما يقوله له، وكرره ثلاثا مبالغة في التنبيه، ففيه أنه ينبغي للمعلم أن يحتاط في تنبيه المتعلم وأمره بإحضار قلبه. والله أعلم)[1].

ويقول السهيلى: (في تلك الغطات الثلاث من التأويل ثلاث شدائد يبتلى بها أولا ثم يأتي الفَرَج والرَّوْح – أى الراحة – ، وكذلك كان لقي هو وأصحابه شدةً من

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ١٩٩/٢.

الجوع في شعب الخَيْف حين تعاقدت قريش ألا يبيعوا منهم ولا يتركوا ميرة – أى طعاماً – تصل إليهم، وشدة أخرى من الخوف والإيعاد بالقتل، وشدة أخرى من الإجلاء عن أحب الأوطان إليه، ثم كانت العاقبة للمتقين)[1].

وأقول: إن الغَطّة الأولى: كانت لتخلية فؤاد الرسول ﷺ من المكدِّرات النفسية والعلائق الدنيوية التى لا تتعلق بالآخرة. والغطة الثانية: التحلية وهى التهيئة لقلبه ونفسه لتلقى أوامر الله. والغطة الثالثة: هى الأساس لتلقى الوحى، وردُّ الرسول ﷺ على أمر جبريل الأول: «اقرأ»، فرد عليه «ما أنا بقارئ»، فـ«ما» نافية، والباء الداخلة على خبر المبتدأ – فالمبتدأ «أنا» والخبر قارئ – الباء الداخلة على قارئ مزيدة للتوكيد، ومعنى هذا الرد : لا أحسن القراءة، وتكرر هذا الرد من الرسول ﷺ، فقال له جبريل بعد الغطّة الثالثة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾، وهذا الأساس: لا تقرؤه بقوّتك ولا بمعرفتك، لكن بحول ربك وإعانته، فهو يعلّمك كما خلقك، وأوحى إليك بعد أن اصطفاك، ويستمر هذا الوحى بإرادة الله وقدرته.

لماذا رأى الرسول ﷺ جبريل بعينه؟

لقد رأى الرسول ﷺ جبريل واحتك به وضمه جبريل حتى تظهر الحقيقة الإلهية بأن الوحى ليس بالاكتساب أو أن مرده إلى حديث النفس أو التمنى، وضمُّ جبريلَ له ثلاث مرات ليكون تأكيداً لهذا التلقى للوحى وإغلاقاً لباب الأفكار السقيمة من أن هذا الوحى من قبيل الخيال أو الصرع أو الجن. ولقد ألهم الله السيدة خديجة أن تقوم بالتثبت من أن هذا وحى وليس بشيطان، ولقد ألهمها الله إلى أن تذهب به إلى ورقة بن نوفل الذى سمع منه، ثم قال له: «إن هذا الناموس الذى كان ينزل على موسى».

---

(١) هامش سيرة ابن هشام ٢٧٢/١.

فترة الوحى

لقد انقطع الوحى عن الرسول ﷺ فترة من الزمن، اختلف العلماء فى تحديدها فذهب بعضهم إلى أنها كانت ثلاث سنوات، وذهب بعضهم إلى أنها ستة أشهر، وذهب بعضهم إلى أنها كانت أربعين يوماً.

والذى أراه:

أن السنوات الثلاث طويلةٌ تورث اليأس فى نفس رسول الله ﷺ، فلا تتطلع إليه نفسه، وكذلك الأشهر الستة وهذا مخالف لمعنى النصوص، فإن ورقة العالِمَ بالكتب السماوية أخبره بأن هذه نبوة. فاطمأنت نفسه وهدأت أعصابه، ولمّا انقطع الوحى تشوّفت نفسه إلى الوحي وإلى جبريل، فكان لا ينقطع عن التردد على غار حراء والصعود على الجبال علَّهُ يرى جبريل، فالأربعون يوماً هى الأقرب إلى العقل لخروج الرسول ﷺ طمعاً فى رؤية جبريل

يروى البخارى (عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: سمعت النبى ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «بَيْنَا أنَا أَمْشِي إذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإذَا المَلَكُ الّذِي جَاءَنِي بِحِرَاء جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْض، فَرعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى قوله ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فَحَمِيَ الوَحْيُ وَتَتَابَعَ).

قال الله تعالى مبدداً خوف رسول الله ﷺ من انقطاع الوحى ﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[1].

يقول الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطى (لقد قضت الحكمة الإلهية أن يحتجب عنه الملك الذى رآه لأول مرة فى غار حراء مدة طويلة، وأن يستبد به القلق من أجل ذلك، ثم يتحول القلق لديه إلى خوف فى نفسه أن يكون الله ﷻ قد قلاه بعد

(١) سورة الضحى الآيات: ١ – ٣

أن أراد أن يشرفه بالوحى والرسالة لسوء قد صدر منه، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه، وراحت تحدثه نفسه كلما وصل إلى ذروة جبل أن يلقى بنفسه منها، إلى أن رأى ذات يوم الملك الذى رآه فى حراء، وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض يقول: يا محمد أنت رسول الله إلى النَّاس، فعاد مرة أخرى وقد استبد به الخوف والرعب إلى البيت حتى نزل عليه قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ﴾، إن هذه الحالة التى مر بها رسول الله ﷺ، تجعل مجرد التفكير فى كون الوحى إلهاماً نفسياً ضرباً من الجنون، إذ من البداهة بمكان أن صاحب الإلهامات النفسية والتأملات الفكرية لا يمر إلهامه أو تأمله بمثل هذه الأحوال.

و إذاً فإن حديث بدء الوحى على النحو الذى ورد فى الحديث الثابت الصحيح ينطوى على تهديم كلِّ ما يحاول المشككون تخييله إلى النَّاس فى أمر الوحى والنبوة التى أكرم الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام، وإذا تبين لك ذلك أدركت مدى الحكمة الإلهية العظيمة فى أن تكون بداءة الوحى على النحو الذى أراده ﷻ وربما عاد بعد ذلك محترفو التشكيك يسألون: فلماذا كان ينزل عليه الوحى بعد ذلك وهو بين الكثير من أصحابه فلا يرى المَلَك أحد منهم سواه؟

والجواب أنه ليس من شرط وجود الموجودات أن تُرى بالأبصار إذ أن وسيلة الإبصار فينا محدودة بحدٍ معيَّن، وإلا لاقتضى ذلك أن يصبح الشىء معدوماً إذا ابتعد عن البصر بعداً يمنع من رؤيته، على أن من اليسير على الله جل جلاله، وهو الخالق لهذه العيون المبصرة، أن يزيد فى قوة ما شاء منها فيرى ما لا تراه العيون الأخرى، ثم إن استمرار الوحى بعد ذلك يحمل نفس الدلالة على حقيقة الوحى وأنه ليس كما أراد المشككون ظاهرة نفسية محضة)[1].

ولقد أتى الوحى إلى الرسول ﷺ فى صور أخرى، روى الإمام البخارى بسنده

---

(١) فقه السيرة ص٧٠، ٧١.

عن السيدة عائشة رضى الله عنها (أنَّ الحَارِثَ بْن هِشَام ﷺ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَحْيَاناً يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ[1] عَنِّي وَقَدْ وَعيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَاناً يَتَمَثَّلُ لِي المَلَكُ رَجُلاً، فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِيَ مَا يَقُولُ». قالت عائشة -رضي الله عنها-: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي الْيَومِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيُفْصَمُ عَنْه وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ[2] عَرَقاً).

الأمر بالدعوة إلى الإسلام

أخرج الشيخان عن جابر قال: (جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ شَهْرا، فَلَمَا قَضَيْتُ جِوَارِي نَزَلْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَلَمْ أَرَ أَحَدا، ثُمّ نُودِيتُ، فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدا، ثُمّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْش فِي الْهَوَاءِ (يَعْنِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السّلاَمُ)، فَأَخَذَتْنِي رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثّرُونِي، فَدَثّرُونِي، فَصَبّوا عَلَيّ مَاءً، فَأَنْزَلَ الله عَزّ وَجَلّ: ﴿يَا أَيّهَا الْمُدّثّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ﴾)[3].

(ولما رأت منه السيدة خديجة هذا الإجهاد والقلق طلبت منه أن يستريح، ولكن رسول الله ﷺ التفت إليها وهو يقول: يا خديجة قد انقضى عهد النوم والراحة، فقد أمرنى جبريل أن أنذر النّاس وأدعوهم إلى عبادة الله)[4].

المراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية :

لقد مرَّت الدعوة الإسلامية بمراحل مختلفة: وهذه المراحل هى:

---

(١) فيفصم: فينقطع.

(٢) يتفصَّد: يتصبب.

(٣) أسباب النزول ص٢٠٩.

(٤) العرب و ظهور الإسلام ص١٥٣.

١- الدعوة سرّاً، واستمرت ثلاث سنوات، والمراد بالسرية أن الدعوة الإسلامية كانت معروفة بيد أن الرسول ﷺ كان يدعو الأفراد فى سرية.

٢- الدعوة جهراً باللسان والخطاب وإظهار الدلائل على صدق هذه الدعوة، وهذه بعد السرية إلى الهجرة، ومن سمة هذه المرحلة أنه ليس فيها مواجهة بالقوة.

٣- الدعوة جهراً مع قتال المعتدين على المسلمين، واستمرت هذه المرحلة إلى صلح الحديبية، وهذه المرحلة فى جزيرة العرب.

٤- الدعوة جهراً مع قتال الذين يقفون فى نشرها وإقرار أهل الأديان على دينهم إذا لم يقاتلوا المسلمين وما داموا يعطون الجزية، وهذه المرحلة هى التى استقر عليها أمر الشريعة مع مصاحبتها للجهاد.

الدعوة سراً:

شرع النبى يلبى أمر ربه ﴿قم فأنذر﴾، فطفق يدعو إلى توحيد الله وعبادته وحده، وهَجْر الأصنام والأوثان، بيد أنه كان يدعو إلى دينه سرّاً حذراً من وقع المفاجأة على قريش التى أعماها التعصب لشركها ووثنيتها، فلم يَغْشَ الرسولُ مجالسهم العامة ولم يكن يدعو إلاً من كانت تشده إليه صلة قرابة أو صحبة سابقة.

وحركة رسول الله فى نشره للدعوة مرهونة بالوحى لا ينفك عنها ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ. وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [1]، وفى ظل هذه الدعوة الهادئة دخل الإسلام حشد من البشر، ولم يكن دخولهم إرضاء لمن يدعوهم بل دخل هؤلاء رياض هذا الدين عن اقتناع وتأمُّل ونظر، فإذا اقتنع الواحد منهم أعلن إسلامه، بيد أنَّ أبا بكر كان غير هؤلاء، فهو لم ينظر كثيراً لأنَّه يدرك صدق رسول الله ﷺ، ومما يدل على اقتناع كل من أسلم قول

(١) سورة الشعراء الآيات ٢١٤ – ٢١٩.

الرسول ﷺ: «ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر، ما عَكَمَ عنه حين ذكرته ولا تردد فيه »[1].

ولقد أسلمت السيدة خديجة، وعلَّمها الرسول ﷺ الوضوء والصلاة، وكانت الصلاة قبل الإسلام ركعتين قبل غروب الشمس وركعتين قبل طلوعها. ذكره السهيلى عن المزنى وذكر حديث عروة عن السيدة عائشة: «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، فزيد فى صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر»[2].

وأسلم علىٌّ بن أبى طالب وهو ابن عشر سنين، وأسلم زيد بن حارثة وأسلم أبو بكر الصديق، وكانوا قلة، روى البخارى بسنده عن عمار بن ياسر قال: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا مَعَهُ إلاَّ خَمْسَةُ أَعْبُدٍ وَامْرَأَتَانِ، وَأَبُو بَكْرٍ)، وشرع أبو بكر يدعو للإسلام، فأسلم على يديه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وهؤلاء الذين أسلموا على يد أبى بكر، ثم تتابع النَّاس فى الدخول فى الإسلام فأسلم أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة، والأرقم بن أبى الأرقم، وعثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد وامرأته، وأسماء وعائشة بنتا أبى بكر وغيرهم، ثم كثر دخول الضعفاء والأرقَّاء والعبيد، فكان أهل هذه الدعوة خليطاً من الأغنياء والضعفاء والفقراء، ولما بلغ عدد المسلمين ثلاثين ما بين رجل وامرأة اختار لهم رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم لتكون مركز الدعوة السرية، وهى دار قائمة على جبل الصفا قريباً من البيت الحرام، وقد أطلق على هذه الدار «بيت الإسلام»، (وظل هذا البيت فى حوزة أحفاد الأرقم إلى زمن الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور الذى أجبرهم على أن يبيعوه إياه لتسكن فيه أسرته، وقد سكنته الخيزران أم الرشيد حتى عرف ببيت الخيزران،

---

(١) رواه ابن إسحاق وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية وذكره السهيلى.

(٢) هامش سيرة ابن هشام ٢٨٢/١.

وبقايا هذا البيت باقية حتى الآن بمكة، وعلى الرغم من أن حديث المسلمين لم يكن فيما بينهم إلاً نجوى لا يفاتحون أحداً إلاً من وثقوا به واطمأنوا إليه فإن الإسلام أخذ طريقه إلى ألسنة قريش، واندفع عدد من الرجال والنساء يتبعون الرسول صلى الله عليه وسلم)[1].

الجهر بالدعوة

أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى: «يا صباحاه»، فاجتمع النَّاس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: يا بنى عبد المطلب يا بنى فهر يا بنى كعب، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى؟ قالوا: نعم، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فقال أبو لهب – لعنه الله – تبّاً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلاً لهذا؟ وأنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾)[2] وتوالى الأمر، يقول الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾[3].

لقد تنكرت قريش لرسول الله ﷺ وولّوا عنه مدبرين مؤثرين دينهم الذى ورثوه عن آبائهم، ولقد وصف الله حال رسوله مع قومه حين سفّه أحلامهم بتمسكهم بدين آبائهم وأن أباءهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون، وأيضاً قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾[4].

---

(١) العرب وظهور الإسلام ص١٥٥ ، ١٥٦.
(٢) البداية والنهاية ٣٨/٣.
(٣) سورة الحجر آية ٩٤، ٩٥.
(٤) سورة الزخرف آية ٢١.

ولقد أبى أهل مكة دعوته لما يأتي:

أولاً: أن دعوته بدأت فى مكة، وهى مركز دين العرب، والكعبة قبلتهم، ومن قريش سدنة للبيت، وهم القائمون على الأصنام والأوثان، وجاء الرسول ﷺ بالإسلام وأساسه التوحيد وشهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، فصار التوحيد والدعوة له مثار جدل ونقاش فى محيط الشرك، فأبت قريش دين التوحيد وآثرت الشرك.

ثانياً: الحقد والحسد لرسول الله ﷺ، فلقد كان لقب رسول الله ﷺ الذى منحه الله ﷻ للرسول ﷺ ثقيلاً عليهم، فكيف يُمنح هذا الفضل وهو اليتيم الفقير، وظهر هذا الحقد فى الصورة التى نقلها القرآن الكريم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ، أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ [1]، فمنعهم الحقد عن الدخول فى الإسلام.

ثالثاً: خوف قريش على ضياع مجدهم وقيادتهم للعرب، فإن الأنظار والأفئدة ستتجه إلى الرسول الأعظم، وتأفل نجومهم وتتوارى أسماؤهم، من أجل هذا أبَوْا الدخول فى الإسلام وسارع إليه الضعفاء والفقراء والأرقاء، فهؤلاء لا يخافون على أمجاد أدبية أو مادية.

رابعاً: كان العرب يفعلون ما يحلو لهم فى ظل عبادة الأصنام والأوثان، فيلبون نداء غرائزهم بالزنا الذى انتشر فى أرجاء مكة، ويشربون الخمر ويأكلون الربا، ويلعبون الميسر والقمار، وهذا الدين يحول بينهم وبين هذه الرذائل، فأبوا الدخول فيه.

خامساً: من مبادئ الإسلام ومن أصوله الإيمان بالبعث والحساب والميزان والجنة والنار، وهذا يفزعهم لسوء عقيدتهم وخُبث سلوكهم، فمنعهم من الدخول فى الإسلام.

---

(١) سورة الزخرف آية ٣١، ٣٢.

لهذا كله ظل رسول الله ﷺ بمكة داعياً لأهلها ثلاث عشرة سنة، يبشر وينذر، ويدعوهم سرّاً وجهراً فما لانت لهم قناة، ولا رقَّ لهم قلب، ولا انشرح لهم صدر، فحافظوا على ما ورثوه عن آبائهم من ضلال، واعتصموا بالوثنية، فزادهم ذلك عناداً وتكبراً وهم يدركون أن الرسول حقٌّ ودينه من عند الله، ولكنهم أعرضوا وتكبروا، فأرداهم تكبرهم.

معالم العظمة والخلود في صبر الرسول ﷺ على أذى قومه

بدأت قريشٌ تهادن رسول الله ﷺ، تترك الخصومة تارة، وتعلن الحرب تارة أخرى.

حوار هادئ مع أبي طالب :

ذهب وفد مكوّن من: عتبة وشيبة ابنى ربيعة، وأبي سفيان بن حرب، وأبي البختري والأسود بن المطّلب، وأبى جهل والوليد بن المغيرة ونبيه ومنبه ابني الحجاج بن عامر، وقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا؛ فإما أن تَكُفَّه عنا، وإما أن تخلّي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه؛ فقال لهم أبو طالب قولا رفيقاً، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه)[1]، واستمر الرسول ﷺ في تبليغ دعوته.

رجوعهم إلى أبي طالب مرة أخرى:

ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٢.

تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه [1].

ما دار بين الرسول وعمه عقب هذا الرجوع:

لما قالت قريش مقالتها السابقة بعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فأبقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق؛ قال: فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله ﷺ:

يا عَمِّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته، قال: ثم استعبر رسول الله ﷺ، فبكى ثم قام؛ فلما ولَّى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي؛ قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ ، فقال: اذهب يا بن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا[2].

قريش تعرض على أبى طالب عمارة بن الوليد:

ثم إن قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامَهُ لهم، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعُمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل؛

فقال أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم،

---

(١) المرجع السابق ص٥.

(٢) المرجع السابق

وأعطيكم ابني تقتلونه ! هذا والله ما لا يكون أبدا.

فقال المطعم بن عدي بن نوفل: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا؛

فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك، أو كما قال. قال: فحقب القوم -أى: احتبسوا-، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وبادى بعضهم بعضا [(١)]. وبدت منهم العداوة والبغضاء للرسول ﷺ والمسلمين.

ثم إن قريشاً تذامروا بينهم على مَنْ في القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم...

وقام أبو طالب حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه، من منع رسول الله ﷺ، والقيام دونه؛ فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب، عدو الله [(٢)].

كيد الوليد بن المغيرة للرسول ﷺ

إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم:

يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذِّب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً؛ قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقلْ وأقمْ لنا رأياً نقول به؛ قال: بل أنتم فقولوا أسمعْ؛ قالوا: نقول: كاهن؛ قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول:

---

(١) المرجع السابق

(٢) المرجع السابق ص٩.

مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رَجَزَه وهَزَجَه وقريضَه ومقبوضَهُ ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس ؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعِذْق-أي غصن ذو شعب-، وإن فرعه لجناه – لثمر– ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر، جاء بقولٍ هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذَّروه إياه، وذكروا لهم أمره [1].

وردَّ القرآن على الوليد، فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا، وَبَنِينَ شُهُودًا، وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ، كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾[2] أي: خصيما.

عتبة بن ربيعة يفاوض الرسول ﷺ

بعد إسلام حمزة ﷺ يروى ابن إسحاق بسنده عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدِّثْتُ أن عتبة بن ربيعة -وكان سيداً- قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلِّمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكفَّ عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون؛ فقال: بلى يا أبا

(١) المرجع السابق ص١١، ١٢.
(٢) سورة المدثر آية ١١-١٦.

الوليد، قم إليه فكلمه؛ فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة -أى الرفعة- في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

قال فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد، أسمعْ؛

قال: يا ابن أخي، إنْ كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سوَّدناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملَّكْناك علينا؛ وإن كان هذا الذي يأتيك رَئيًا تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك، طلبنا لك الطبَّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه، أو كما قال له.

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغتَ يا أبا الوليد؟

قال: نعم، قال: فاسمع مني؛ قال: أفعل؛

فقال رسول الله ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿حم، تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه؛ ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك [1].

شهادة حقٍّ تُدَوِّي في أسماع الدنيا إلى يوم القيامة.

وترك عتبة رسول الله ﷺ وذهب إلى قومه في المسجد، فلما رأوه قال بعضهم

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٥.

لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب بـه، فلمـا جلـس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله مـا هـو بالشـعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بـين هـذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ منه نبـأ عظـيم، فإن تُصبْه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكُه ملكُكُم، وعـزُّه عزُّكم، وكنتم أسعد الناس به؛

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه؛ قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[1].

إعلان قريش الحرب

ما مضى كان رد فعل قريش، وكان هادئاً، وتطور الأمر فأعلنوا العداء والإيذاء دون حياء ودون خوف، وهذه بعض صور الإيذاء:

١- إيذاء عمه أبي لهب له.

قال ابن إسحاق: وحُدثت أنه كان يقول – أى أبو لهب – فى بعض ما يقول: يعدني محمد أشياء لا أراها، يزعم أنها كائنة بعد الموت، فماذا وضع في يـديّ بعـد ذلك ؟ ثم ينفخ في يديه ويقول: تبّاً لكما، ما أرى فيكما شيئا مما يقول محمد. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[2].

ولقد ساق الله عقاب أبى لهب وأم جميل ، قال الله تعـالى: ﴿وَامْرَأَتُـهُ حَمَّالَـةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ والمراد بالحطب هو الشوك الذى دأبتْ على حمله ووضعه فى طريق سيد البشر.

و ذكر ابن إسحاق: أنّ أمّ جميل حمّالة الحطب، حين سمعت مـا نـزل فيهـا

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق ص١٠٢.

وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فِهْر من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة،

[ثم قالت – لعنها الله – بيتين من الشعر فيهما هجاء لسيد البشر، ولا ينقل قلمى هذا الهجاء لامرأة كرهت رسول الله ﷺ ولعنها الله]

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تُراها رأتك ؟ فقال: ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني[1].

٢- إيذاء أمية بن خلف للرسول ﷺ .

كان أميَّةُ بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ، الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ إلى آخر السورة، قال ابن هشام: الهمزة: الذى يشتم الرجل علانية ويكسر عينيه عليه ويغمز به[2]. واللُّمَزة: الذى يعيب النَّاس سراً ويؤذيهم.

٢- إيذاء العاص بن وائل للرسول ﷺ.

كان خباب بن الأرت، صاحب رسول الله ﷺ، قيناً[3] بمكة يعمل السيوف، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفاً عملها له حتى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه، فقال له: يا خباب، أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلُها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم ؟ قال خباب: بلى. قال: فأنظرني إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك

---

(١) سيرة ابن هشام ١٠٤/٢.
(٢) المرجع السابق ص١٠٤، ١٠٥.
(٣) القين: الحدَّاد ، جمعه: قُيون.

حقك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثر عند الله مني، ولا أعظم حظا في ذلك. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا، أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾...إلى قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [1].

٤- إيذاء أبي جهل للرسول ﷺ.

لقي أبو جهل بن هشام رسول الله ﷺ - فيما بلغني - فقال له: والله يا محمد، لتتركن سب آلهتنا، أو لنسبن إلهك الذي تعبد، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فذكر لي أن رسول الله ﷺ كف عن سب آلهتهم، وجعل يدعوهم إلى الله[2].

٥- إيذاء النضر بن الحارث للرسول ﷺ.

كان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلسا، فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذَّر فيه قريشاً ما أصاب الأمم الخالية، خلفه النضر بن الحارث في مجلسه إذا قام، فحدثهم عن رستم الشديد، وعن «إسفنديار»، وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسنَ حديثا مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين، اكْتَتَبَها كما اكتَتَبْتُها. فأنزل الله فيه: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. ونزل فيه: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3].

٦- إيذاء أُبَيُّ بن خلف وعُقْبة بن أبي مُعيط.

لقد كان أُبَيُّ بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، متصافيين، وكانت بينهما

(١) المرجع السابق ص١٠٥.
(٢) سيرة ابن هشام ١٠٥/٢.
(٣) المرجع السابق ص١٠٥.

علاقة حسنة، وكان عقبة قد جلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، فبلغ ذلك أبَيّاً، فأتى عقبة فقال له: ألم يبلغني أنك جالست محمداً وسمعت منه؟ قال: وجهي من وجهك حرامٌ أنْ أُكلمك - واستغلظ من اليمين - إنْ أنتَ جلستَ إليه أو سمعت منه، أو لم تأته فتتفل في وجهه، ففعل ذلك عدو الله عقبة بن أبي معيط لعنه الله. فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً﴾

ومشى أبي بن خلف إلى رسول الله ﷺ بعظمٍ بَالٍ قد ارْفتَّ، فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرمّ، ثم فتّه في يده، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: نعم، أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ، الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [1].

الهجرة الأولى إلى الحبشة

اشتدت قبضة قريش على المسلمين، وبالغوا فى إيذائهم واضطهادهم، وتأثر الرسول ﷺ بهذا، فأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، وكانت فى شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة[2]، فخرج إليها عثمان بن عفان برفقة زوجه السيدة رقيَّة بنت رسول الله ﷺ،و أبو حذيفة بن عتبة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، والزبير بن العوام بن خويلد، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف. وأبو سلمة بن الأسد وامرأته، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة وامرأته، وأبو سبرة بن أبى رهم، وسهيل بن بيضاء، وجعفر بن أبى طالب، وعبد الله بن جحش، وأخوه عبيد

---

(١) المرجع السابق ص١٠٧.

(٢) وهذا التاريخ موافق لسنة ٦١٥م.

بن جحش، وعتبة بن غزوان، وغيرهم.

ولما كان الرسول ﷺ لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرجوا إلى أرض الحبشة، وقال بعضهم كان عددهم عشرة رجال وأربع نسوة[1].

السبب في اختيار الحبشة دون غيرها من البلاد:

أولاً: لم يختر الرسول ﷺ القبائل القاطنة فى الجزيرة لأنها لا تصلح للهجرة، فهم يرفضون دعوة الإسلام فى مواسم الحج والتى يعرضها عليهم رسول الله ﷺ، وذلك إمّا للتمسك بدينهم الوثنى الذى ورثوه عن آبائهم، وترك القديم، وما ألفوه صعب على النفس البشرية، وإمّا مجاملة لقريش.

ثانياً: لم يأمرهم الرسول ﷺ بالذهاب إلى الكتل الاستيطانية اليهودية حول يثرب أو إلى نصارى نجران، لأنهما كانا يتنافسان فى النفوذ الأدبى فى بلاد العرب، فهما والحالة هذه لا يقبلان منافساً ثالثاً له عقيدة جديدة وعبادات جديدة.

ثالثاً: ولم يأمرهم بالاتجاه إلى اليمن لأنها فى ذلك الوقت مستعمرة فارسيَّة وهم مجوس لا يدينون بدين سماويّ، فخشى الرسول ﷺ على المسلمين منهم.

رابعاً: لم يأمر الرسول ﷺ المسلمين بالهجرة إلى العراق أو الشام لبعدهما عن مكة بعداً شاسعاً.

خامساً: علم الرسول ﷺ أن الحبشة هى أصلح مكان للهجرة، ولذلك أشار عليهم بالاتجاه إليها، وعلم ذلك عن طريق الوحى، ولذلك قال لهم: فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه.

---

(١) انظر كتاب: العرب وظهور الإسلام ص١٦١.

لقد خرج بعض المسلمين إلى الحبشة، ومكثوا فى الحبشة ثلاثة أشهر، أسلم أثناءها عمر بن الخطاب، فرجعوا من الحبشة لأسباب ثلاثة:

١- أنهم دفعهم الحنين إلى الأهل والوطن الذى نبتوا فيه.

٢- أنهم ظنوا أن المسلمين سيتحسن مركزهم بمكة بعد إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

٣- قيام ثورة فى الحبشة ضد النجاشى، فأصابهم الخوف من أن يصاب بهزيمة أو يأتى ملك لا يعرف حقهم، من أجل ذلك رجعوا إلى مكة.

الهجرة الثانية إلى الحبشة :

رجع المسلمون من الحبشة ظناً منهم بأن الأوضاع قد تحسنت فى مكة، وأن قبضة قريش قد خفَّت، بيد أنهم وجدوا الحال أسوأ مما كان، وعلموا أن النجاشى أخمد الثورة التى خرجت عليه وأحكم سيطرته على الحبشة، فعادوا إلى الحبشة مرة أخرى، وتتابع المسلمون فى أثرهم، فبلغوا ثمانين رجلاً وسبع عشرة امرأة، فأكرم النجاشى وفادتهم وأحسن استقبالهم وأمنهم على حياتهم.

مؤامرة قريش لإرجاعهم من الحبشة:

علمت قريش بخروج بعض المسلمين إلى الحبشة مرة ثانية، وعلموا بهذا العدد، فأتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا رجلين يتميزان بالدهاء، ووقع الاختيار على عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة، وحملا الهدايا الكثيرة إلى النجاشى ليطلبا منه أن يُسْلِمَ إليهم هؤلاء الذين خرجوا عن دين الآباء إلى الدين الإسلامى، فسأل النجاشى المهاجرين عن حقيقة الدين الذى اعتنقوه وهو يخالف دين قومهم.

حديث أم سلمة عن رسول قريش للنجاشى:

روى ابن إسحاق بسنده عن أم سلمة زوج رسول الله ﷺ قالت: لما نزلنا أرض

الحبشة، جاورنا بها خير جار «النجاشي»، أمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نُؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه؛ فلما بلغ ذلك قريشا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين، وأن يُهدوا للنجاشي هدايا/مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق[1] هديته قبل أن تُكَلِّما النجاشي فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم. قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار، عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بَعَثَنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم؛ فقالوا لهما: نعم.

ثم إنهما قدَّما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي. قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى

---

(١) البطريق: رئيس رؤساء الأساقفة عند النصارى جمعه: بطاريق و بطارقة.

بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

الحوار الذي دار بين المهاجرين إلى الحبشة وبين النجاشي:

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول: والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائنا في ذلك ما هو كائن.

فلما جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال له: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف؛ فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات؛ وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - قالت: فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل

لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك؛ ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

فقال له جعفر: نعم؛ فقال له النجاشي: فاقرأه علي؛ قالت: فقرأ عليه صدرا من: (كهيعص).

فبكى والله النجاشي حتى اخضلّت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما.

فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم.

قالت أم سلمة: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لاتفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنّه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد. ثم غدا عليه من الغد

فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسِلْ إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عما يقولون فى عيسى بن مريم.

قالت: ولم ينـزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائنا في ذلك ما هو كائن.

قالت: فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم ؟

فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عودا، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت بطارقته -تفرقت- حوله حين قال ما قال؛ فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شُيوم بأرضي - أي: آمنون - مَن سبَّكم غرم، من سبكم غرم. ما أحبُّ أن لي دبراً من ذهب، وأني آذيت رجلا منكم

قال ابن هشام: ويقال دبرى من ذهب، والدبر: بلسان الحبشة: الجبل - رُدُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ مُلْكِي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه.

قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار [1].

وظل المسلمون هناك فى رغد من العيش مدةً طويلة وقد رجع بعضهم إلى مكة قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وظلَّ بعضهم فى الحبشة إلى السنة السابعة من الهجرة[2].

الأهداف التي حققتها الهجرة إلى الحبشة :

أولاً: كانت أسلوباً اتقى به المسلمون المهاجرون إيذاء قريش، وتخلصوا بها من القبضة الحديدية القرشية.

ثانياً: أصابت قريشاً بالذلة حين عاد عمرو بن العاص وصاحبه يجران أذيال الخزى والعار، وتظللهما الخيبة، وتملأ قلبيهما الحسرة، وتعلو وجهيهما الغَبَرة حين رفض النجاشى تسليمهم إليهما، وأدْرَك مكرَ ابن العاص فاحتقره.

(١) سيرة ابن هشام ٢/٨٧، ٨٨.

(٢) العرب وظهور الإسلام ص١٦٢.

ثالثاً: أورثت المسلمين الذين لم يهاجروا قوة بأن كل ما يتعلق بقريش هين، وأنهم لا يستطيعون أن يصدوا المسلمين عن تبليغ دعوتهم.

رابعاً: كانت تمهيداً للهجرة الكبرى إلى المدينة المنورة، وفتحت أبواب الأفكار للمسلمين فى الخروج من مكة العنيدة.

دحض قصة الغرانيق

هذه القصة وردت فى بعض المصادر كالطبرى وابن الأثير وبعض كتب التفسير، فعند ذكر الهجرة الأولى إلى الحبشة وعودة المهاجرين منها بعد ثلاثة أشهر يروى بعض الرواة: (أن سبب قدوم المهاجرين إلى الحبشة فى المرة الأولى أن النبى ﷺ لما رأى مباعدة قومه له شق عليه، وتمنى أن يأتيه الله بشىء يقارب القرشيين به، فأنزل الله ﴿والنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ فلما وصل إلى قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ ألقى الشيطان على لسانه بما كانت تحدثه به نفسه: تلك الغرانيق العلى. وإن شفاعتهن لترتجى، فلما سمعت ذلك قريش سرَّهم ذلك، والمسلمون مصدِّقون بذلك لرسول الله ﷺ لا يتهمونه، ولا يظنون به سهواً ولا خطأً، فلما انتهى إلى سجدة سجد معه المسلمون والمشركون إلاَّ الوليد بن المغيرة، فإنَّه لم يطق السجود لكبره فأخذ كفاً من البطحاء فسجد عليها، ثم تفرق النَّاس وبلغ الخبر مَنْ بالحبشة من المسلمين أن قريشاً أسلمت، فعاد منهم قوم وتخلَّف قوم، وأتى جبريل النبى ﷺ فأخبره بما قرأ، فحزن رسول الله ﷺ، وخاف فأنزل الله عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُول وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1] فذهب عنه الحزن والخوف، واشتدت قريش على المسلمين فلما قرب المسلمون الذين كانوا بالحبشة من مكة بلغهم أن إسلام أهل مكة باطل، فلم يدخلْ أحدٌ منهم إلاَّ بجوار أو

(١) سورة الحج آية ٥٢.

مستخفياً، هذه قصة الغرانيق)[1].

يقول الدكتور/ محمود محمد زيادة فى كتابه «العرب وظهور الإسلام» ورأينا فيها أنها مكذوبة موضوعة لا أساس لها من الصحة، وأنها من وضع قريش أو الزنادقة للطعن فى الإسلام[2].

الأدلة على بطلان قصة الغرانيق:

أولاً: الأدلة القرآنية:

لقد وردت آيات قرآنية تدل على بطلان هذه القصة:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [3]

فهذه الآية تدل على أن الله أنزل الذكر على رسوله ﷺ، وتكفل بحفظه من الزيادة والنقصان، وحفظه من الشياطين، وحفظه من التحريف والتغيير والتبديل، فلا يستطيع الشيطان أن يُلقى على لسان رسول الله ﷺ أىَّ قول.

٢- قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ، تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾[4].

فهذه الآية تحدد مَن يُلقى الشياطين ما سمعوه فى قلوبهم وهم الأفاكون الكذابون. و الرسول ﷺ أمين و ليس أفَّاكاً، فهو محفوظ محروس من كل ما يؤذيه، و من كل ما ينال منه أو من رسالته.

٣- قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[5].

---

(١) العرب و ظهور الإسلام ص١٦٣.

(٢) المرجع السابق ص١٦٤.

(٣) سورة الحجر آية ٩.

(٤) سورة الشعراء: ٢٢١-٢٢٣.

(٥) سورة الطور آية ٤٨.

فالجملة الأخيرة تبين أنَّ العناية تلاحظه دائماً وأبداً، فلا يقترب منه شيطان ولا جن، فلا يستطيع شيطان أن يلقى على لسانه شيئاً.

٤- قال تعالى ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(١).

فقوله ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ يدل على أن الله هو الذى يتولى أمر القرآن، فهو الذى يجمعه فى صدر الرسول ﷺ، وهو الذى يُجريه على لسانه، فالشيطان لا يستطيع أن يلقى بشىء على لسان الرسول ﷺ، وحتى الرسول لا يستطيع أن يبدل شيئاً منه ولا حرفاً ولا كلمة، قال تعالى ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾(٢)، وقال تعالى ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ، لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾(٣)، وهذه الآية تبين أنه لا يتمنى شيئاً يتعلق بالقرآن وأن الله يؤاخذه.

ثانياً، السُّنَّة

لم ترد هذه القصة فى السُّنَّة الصحيحة، ورفضها جمهور العلماء، فقد (سئل ابن خزيمة عن هذه القصة فقال: إنها من وضع الزنادقة، وصنَّف فى ذلك كتاباً لدحضها، وقال البيهقى: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ورواية البخارى خالية عن ذكر الغرانيق، وقال القاضى عياض: إن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، وأنكرها القاضى: أبو بكر العربى، وأنكرها أبو منصور الماتريدى، وأنكرها الحافظ ابن كثير)(٤).

(١) سورة القيامة آية ١٧-٢٠.
(٢) سورة يونس آية ١٥.
(٣) سورة الحاقة آية ٤٤ - ٤٧.
(٤) العرب و ظهور الإسلام ص١٦٤.

ثالثاً: الأدلة العقلية:

هذه القصة باطلة، فالنصوص الواردة فيها تحمل في ثناياها براهين دحضها:

١- النص الوارد فيها: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى، إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى، أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى، فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى، وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى﴾.

والأدلة في هذه النصوص واضحة على بطلانها وهي:

أ- الاستفهام الإنكاري الذي صُدِّر به النص، كيف يقبله صناديد الشرك ويسجدون؟ والإنكار منصبٌّ على آلهتهم وعبادتها.

ب- كيف يمدح الغرانيق بالعلى وإنَّ شفاعتها لتُرتجى، ثم يقول عن سلوكهم حيالها ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ - أي جائرة - ويقول فيها ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ ؟ لقد حمل النص المدح والذم، فكيف تقبله قريش ويسجدون وهم أساطين البلاغة والفصاحة؟

جـ- كيف يصرِّح بأن شفاعتها ترتجى وينفي الشفاعة بعد ذلك ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى﴾ وفي هذا النفي للشفاعة دليل على بطلان ألوهية أصنامهم وأوثانهم؟ فالملائكة وهم العباد الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وينطقون بطلب الشفاعة، لا تقبل شفاعتهم إلاَّ بعد أن يأذن الله، فكيف يقبل الله الشفاعة من أصنام وأوثان تُعْبد من دون الله ولا تنطق ولا تسمع؟

د- كل النصوص بعد ذلك فيها ذم وقدح في أصنامهم وأوثانهم، فكيف مرَّت

على قريش وتركوها وسجدوا وفيها من التناقض من يفهمه من لـه أدنـى إلمام باللغة العربية؟

٢- كيف تمر هذه النصوص على المسلمين المصاحبين للرسـول ﷺ ويسـمعون مـدح الأصنام؟ فلو وقع ذلـك لسـألوا الرسـول، وتوقفـوا واعترضـوا، ولكنـه لم يـرد للسؤال ولا الاعتراض ذكر.

٣- يسوق الدكتور/ محمود محمد زيادة أدلةً على تفنيد هذه القصة:

(أ- لو فرضنا أن قريشاً مر بها كـل مـا سـبق أو قبلتـه باعتبـاره خطـوة نحـو مقاربتهم ، وهذا فرض غير مقبول، فأين المسلمون وعقـولهم وهـم الـذين كانت معجزة الرسول لهم القرآن وهم أهل بلاغة وعلم بضروب الكلام؟

ب- تهافت القصة: فقد وردت بصيغ مختلفة هي: الغرانيـق والغرانقـة.. الخ كما اضطربت الرواية، قالها النبي أو قالها الشيطان، فهـذا كلـه يـذهب الثقة بها.

جـ- وصف العرب لآلهتهم بالعرانيق لم يرد في نظمهـم ولا فـي خطبهم ولا على ألسنتهم، وإنما ورد الغِرْنَوْقُ والغِرْنيقُ على أنه طائر مائيٌّ أسـود أو أبيض.

د- أن ثبوت في هذه القصة يتنافى مع العصمة والأمانة التي هي شرط أساسـي في رسالة الرسل، فلو قلنا بأن الشيطان استطاع بوسيلة ما أنْ يضـع علـى لسان الرسول ﷺ آية أو آياتٍ ليست من القرآن لتسرب الشـك إلى جميـع القرآن، لأنه حينئذٍ تصبح كل آية فيـه مظنـة أنهـا مـن وضـع الشـيطان، جرت على لسان الرسول وهو لا يدري، ومن ذلـك يتبـيَّن كـذب القصـة، وأنها من الجائز أن تكون قريش قد اختلقتها في أول الأمر ثم روَّجها بعد ذلك المنافقون ومن على شاكلتهم لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَـادُواْ لَيَفْتِنُونَـكَ عَـنِ

الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ [1]) [2].

- **الرد على من فسَّر الآية تفسيراً ملائماً للغرانيق:**

ربما استدل القائلون بقصة الغرانيق بهذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

وهذه الآية سبقها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [3].

ففى هذا السياق بيان على أن الكفرة يسعون فى تعجيز وتثبيط من يريد الدخول فى الإسلام، ثم أتت الآية الثانية لتبيِّن تثبيط الشياطين لمن يريدون الدخول فى الإسلام، فما من رسول إلاَّ وتمنى أى: طلب أمراً محبوباً، وهو أن تسود رسالته وتعم، فيأتى الشيطان فيلقى الشُّبَهَ والشكوك فى سبيل هذه الدعوة ليثبط البشر عن الدخول، وهذا إلقاء الشيطان فى أمنيته ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ فيزيل الله ما يلقيه الشيطان بما يسوقه من الحجج والبراهين وهداية النَّاس، فهذا هو التفسير الذى يليق بالآية.

أمَّا ما ساقه الإمام الجليل السيوطى فى تفسيره بأن «تمنى» معناه: قرأ، فهذا بعيد عن اللغة، وما ساقه فى أسباب النزول من أقوال ابن حجر والطبرى فلا يصح ولا يجوز؛ لأنه يتعارض لما قدمنا آنفاً من أدلة.

---

(١) سورة الإسراء آية ٧٣.

(٢) العرب وظهور الإسلام ص١٦٥، ١٦٦.

(٣) سورة الحج آية ٥١.

معالم العظمة في مواجهة العقوبات التي فرضتها قريش على المسلمين وذويهم

قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدا – الحبشة– أصابوا به أمناً وقراراً، وأنَّ النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر بن الخطاب قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم، وبني المطلب:

على أن لا يُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئا، ولا يبتاعوا منهم ؛ فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم(١)، وحتى تأخذ محلها في القلوب ويكون لها مقام من الاحترام والتقديس.

و بعد هذا العهد وتوثيقه هجر بنو هاشم ومن معهم من المسلمين ديارهم التي كانت منتشرة في مكة، وانحازوا إلى شِعْبٍ(٢) من شعاب جبل أبي قبيس كان يقيم فيه أبو طالب فسُمِّي به، وفعل الرسول ﷺ والمسلمون ذلك ليلتقوا مجتمعين ليواجهوا عنت قريش التي ضربت نطاقاً من الحرَّاس يمنعون المسلمين وذويهم ومن معهم من الخروج كما يمنعون سواهم من الدخول إليهم.

- **حال المسلمين في ظل هذا الحصار:**

استمر هذا الحصار ثلاث سنوات تقريباً، والرسول ومن معه لم تلن لهم قناة ولم تهن لهم عزيمة، ولم يجرؤ أحد من بني هاشم على أن يدخل مكة للامتراء(٣)،

(١) سيرة ابن هشام ١٠١/٢.
(٢) الشِّعب: بتشديد مع الكسر: انفراج بين جبلين.
(٣) لشراء الطعام.

ولكن كانت هناك أمور خففت، هذا الحصار، منها:

١- أن هذا الحصار لم يسر فى الأشهر الحرم، فكانوا يشترون ما يلزمهم فى هذه الأشهر.

٢- أن بعض أهل مكة تحركت فى أفئدتهم الرحمة، فلم يلتزموا بعهدهم لما فيه من جور وظلم، وهم بعض القوم، والذين تحركت قلوبهم بالشفقة حكيم بن حزام وهشام بن عمرو بن الحارث. وأبو البخترى، فكانوا يمدون المسلمين بما يحتاجونه:

وقد أورد ابن هشام فى السيرة: أن أبا جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد، وهي عند رسول الله ﷺ، ومعه في الشِّعب، فتعلَّق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البَخْتري بن هشام بن الحارث بن أسد، فقال: ما لك وله ؟

فقال أبو جهل: يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال له أبو البختري: طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟! خلّ سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ أبوالبختري لِحْي بعير فضربه به فشجه، ووطئه وطأً شديداً، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه، فيشمتوا بهم[١].

- **الرسول ﷺ يدعو إلى الله في ظل الحصار:**

رغم الشدة والحصار والمقاطعة ظل رسول الله ﷺ يدعو ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وينتهز أيام الحج فيعرض دعوته على القبائل.

---

(١) سيرة ابن هشام ١٠٢/٢.

يسر بعد عسر:

امتد الحصار إلى أكثر من سنتين، وهناك كثير من أصحاب العقول الراجحة ترقُّ قلوبهم وتتمرد على هذا الجور، وبدأ الاحتجاج يطفو على سطح المجتمع القرشي، واتفقوا على نقض الصحيفة، من هؤلاء: هشام بن عمرو. وزهير بن أمية والمُطْعِمُ بن عدى وزمعة بن الأسود. وأبو البخترى بن هشام. وغيرهم، وبعد مناقشات مستفيضة حول الكعبة تقدَّم المطعم بن عدىٍّ إلى الصحيفة ليمزقها، فوجد أن الأرضة – أى: النمل الأبيض – قد أكلتها ما عدا اسم الله ﷻ، ويروى أن الرسول ﷺ أُخْبر بذلك.

وبنقض الحِلف وذهاب الصحيفة عاد بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى بيوتهم مرة أخرى، وهدأت العاصفة هدوءاً مؤقتًا لتُهَبَّ أخرى، لأن قريشاً لن يقبلوا هدى الله تعالى.

معالم العظمة والخلود في مواجهة الحزن ورحلة الطائف

انتهت العقوبات التى استمرت ثلاث سنوات وانكسر طوقها، وتهشَّم قيدها، وعاد الرسول ﷺ والمسلمون إلى ديارهم، وهدأت نفس الرسول ﷺ، وأقبل على نشر الدعوة ولكنه ابتلى ببلاء عظيم يطيش عقل الحليم حين يحلّ به. فلقد ماتت السيدة خديجة فى ديسمبر ٦١٩م، والمقابلة للسنة العاشرة من البعثة وفى شهر شوَّال منها، لقد ألمَّ به الحزن فلقد كانت وزير صدق له قبل البعثة وبعدها وكانت عماد بيته، وملجأ شكايته، ومات بعدها أبو طالب سنة ٦٢٠م فى يناير، ودفن بجوار قبرها، وكان موتهما فاتحة عهد جديد من المتاعب، وزالت الحصانة التى كان يستمدها من عمه، فبلغت سفاهات قريش معه حدّاً لا يطاق؛ مرة برميه بتراب، ومرة بإلقاء رحم شاة ملوثة على رأسه الشريف، وكان يدخل بيته بهذه السفاهات فترفعها عنه السيدة فاطمة ويقول لها لا تبك فإن الله مانع أباك. وتُلْقَى القاذورات

على بابه، ويخرج فيطرحها وهو يقول: «أى جوار يا بنى عبد مناف»، وقد حملته هذه المعاملة الخسيسة الدنيئة على البحث عن مكان آخر غير هذه الأرض التى أبت قبول الإسلام.

- **الخروج إلى الطائف:**

سئم الرسول الأعظم معاملة قريش، فخرج يلتمس مكاناً آخر يأمل أن تستجاب دعوته فيه، فاتجه إلى الطائف، واستصحب معه زيد بن حارثة مولاه، وفى الطائف ديار ثقيف، دعاهم إلى دين الله فسخروا منه.

يروى ابن إسحاق بسنده عن محمد بن كعب القرظى قال: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو ابن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم وهو يمرط ثياب الكعبة:

إن كان الله أرسلك.. – وقال كلمة لا تُقال ولا تكتب–.

وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك !

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسولا من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أردَّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغَ قومَه عنه، فيُذْئِرهم ذلك – فيزيدهم طغياناً– عليه، فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يَسُبُّونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل

حَبْلة[1] من عنب، فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، وقد لقي رسول الله ﷺ – فيما ذكر لي – المرأة التي من بني جُمح، فقال لها: ماذا لقينا من أحمائك ؟[2]

- **نسمة تهب على رسول الله ﷺ تريحه وتسليه «عدَّاس»:-**

لما اطمأن رسول الله ﷺ في ظل الحائط جلس يجفف دماءه، ويمسح عرقه، ويلمس جراحه حتى يخفَّ ألمُها، وفى هذه الشدة التى لحقته فوق شدائد قريش اتجه إلى خالقه بالدعاء، وفيه من معانى الشكوى المنبعثة من ركام الحزن فى قلبه فقال:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني– أهل الطائف– أم إلى عدو ملَّكْته أمري ؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقى تحركت له رَحِمُهما، فَدَعوَا غلاماً لهما نصرانياً يقال له: عدَّاس، فقالا له: خذ قطفاً من العنب فضعه فى هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ، ثم قال له: كُلْ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده. قال: باسم الله، ثم أكل، فنظر عدَّاسٌ في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: ومِنْ أَهْلِ أي البلاد أنت يا عدَّاس؟ وما دينك ؟

---

(١) الحبلة: الكرم والقضيب من الكرم: الجمع: حَبَل.
(٢) المرجع السابق.

قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى ؛

فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟

فقال له عدَّاس: وما يدريك ما يونس بن متى ؟

فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي،

فأكب عداس على رسول الله ﷺ يُقَبِّل

ث رأسه ويديه وقدميه.

فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك يا عداس ! ما لك تُقَبِّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي؛ قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه[1].

- **عداس ينهى عن حرب النبي ﷺ في المدينة :**

ذكر السهيلي: أن عداسا حين سمع الرسول ﷺ يذكر يونس بن متى قال: والله لقد خرجتُ منها -يعني: نينوى - وما فيها عشرة يعرفون: ما مَتَّى. فمن أين عرفتَ أنت مَتَّى وأنت أُمِّيٌّ وفي أُمَّة أُمِّيَّة ؟ فقال رسول الله ﷺ: هو أخي كان نبياً وأنا نبي، وذكروا أيضاً أن عداساً لما أراد سيداه- عتبة وشيبة- الخروج إلى بدر أمراه بالخروج معهما، فقال لهما: أقتال ذلك الرجل الذي رأيته بحائطكما تريدان؟ والله ما تقوم له الجبال. فقالا له: ويحك يا عدَّاس، قد سحرك بلسانه.

(١) سيرة ابن هشام ١٧٢/٢، ١٧٣ بتصريف.

الإسراء والمعراج

كلمتان تقرعان الآذان كلَّ عام حين يدور العام دورته، ويأتى شهر رجب، فما معنى «الإسراء والمعراج».

الإسراء: والسُّرى: يقول ابن منظور فى كتابه لسان العرب: (السُّرَى: سيرُ الليلِ كلِّه، تُذَكِّرُهُ العرب وتؤنِّثهُ، وقد سَرَى به وأَسْرَى. والسُّرَاءُ: الكثِيرُ السُّرى بالليل، وفي التنزيل العزيز: ﴿سبحانَ الذي أَسْرَى بعَبْدِهِ ليلاً﴾، وفيه أيضاً: ﴿والليل إذا يَسْرِ﴾، فنزَل القرآن العزيز باللغتين. وقال أبو عبيد: عن أصحابه: سَرَيْت بالليل وأَسْرَيْت، فجاء باللغتين. وقال أبو إسحق في قوله عز وجل: ﴿سبحان الذي أسْرَى بعبده﴾، قال: معناه سَيَّرَ عَبْدَه. يقال: أَسْرَيْت وسَرَيْت إذا سِرْتَ ليلاً، وأَسْراهُ وأَسْرَى به: مثلُ أَخَذَ الخِطامَ وأَخَذ بالخِطَامِ)(١)

والمِعْراج: (هو: السُّلَّم؛ ومنه ليلة المِعْراج، والجمع مَعارج ومَعاريج)(٢) وعليه:

فالإسراء: تسييرُ الله ﷺ: عبده فى بعض الليل من مكة إلى بيت المقدس على البراق(٣).

والمعراج: هو السُّلم الذى صعد عليه إلى السماء.

وهذه الرحلة الأرضية السماوية: وقعت بعد أزمات شديدة من موت السيدة خديجة، فقد كانت نِعْم المعين ونعم النصير. وموت أبى طالب، فقد كان نعم الأب. ونزول الأذى به من قومه إلى درجة أن ألجأه ذلك إلى الخروج إلى الطائف فى رحلة عاد منها بشر جواب ودون أن تحقق أهدافها وكانت ثمرتها جراحاً أصابت جسده الشريف، فأتت رحلة الإسراء لتحقق أهدافاً كثيرة:

---

(١) لسان العرب: ٢٠٠٣/٣ مادة: سر.

(٢) المرجع السابق ٢٨٧٠/٤ مادة: عرج.

(٣) دابة فوق الحمار ودون البغل خطوها إلى منتهى بصرها ، ساقها جبريل إليه.

- منها: أنها تسلية لرسول الله ﷺ حين يطّلع على آيات أرضية وآيات سماوية، قال تعالى: ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (1).
- ومنها: تقوية فؤاده ليزداد إدراكه بأن الله معه ولا يتركه ولا يتخلى عنه.
- ومنها: إعلامه بأن هذا الدين سيكسر حواجز قريش المنيعة، ويخرج من الجزيرة العربية، ويصل إلى بيت المقدس وإلى أبعد من ذلك.
- ومنها: فرض الصلوات الخمس بشكلها النهائى.
- ومنها: التعرُّف على الأنبياء بعد اقتدائهم به فى صلاتهم خلفه، لتدرك البشرية أنه النبى القدوةُ للأنبياء جميعاً، فلا يظل أحد من البشر متمسكاً بدينه، بل يترك دينه ويولّى وجهه شطر النبىِّ الخاتَم، فلقد صلى خلفه جميع الأنبياء، فهو الإمام القدوة للبشرية، وأن تنضوى تحت رايته كل رايات الأنبياء.
- ومنها: أنه وردت فى تلك الرحلة صور تهذب السلوك البشرى، وتقوِّم اعوجاجهم، وتصحح أخطاء حياتهم، وترشدهم إلى الطريق الصحيح فى عبادتهم لربهم.
- ومنها: أن الإسراء والمعراج كانا أمراً خارقاً للعادة، فكان اختباراً لأهل مكة، فازداد كثير من المؤمنين إيماناً، وارتد بعض المسلمين، وحين وصف الرسول ﷺ بيت المقدس للمشركين بناءً على طلبهم لم يؤمنوا، وحين أخبرهم بميقات قدوم العير وفقد بعير لم يؤمنوا.
- ومنها: بيان مقام الرسول ﷺ وأنه أفضل الخلق على الملائكة والإنس والجن.

---

(1) سورة الإسراء آية ١.

- **الرحلة كما أوردها البخاري:**

قال البخارى : حديث الإسراء وقول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾.

حدثنا يحيى بن بكير: حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب: حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ. قُمْتُ فِي الْحِجْرِ فَجَلاَ الله لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ)[1].

وعن المعراج يروى البخارى بسنده عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما: أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به: (بينما أنا في الحطيم، وربما قال في الحِجْر، مضطجعاً، إذ أتاني آتٍ، فقد قال: وسمعته يقول: فشق ما بين هذه إلى هذه، فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شِعْرته، وسمعته يقول: من قَصِّه إلى شعرته، فاستخرج قلبي، ثم أُتيتُ بطَسْتٍ من ذهب مملوءةٍ إيمانا، فغُسِلَ قلبي، ثم حُشِيَ ثم أعيد، ثم أُتِيتُ بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيضَ – فقال له الجارود: هو البُرَاق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم – يضع خطوه عند أقصى طَرْفه-عينه- فحُمِلْتُ عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء فَفَتَح، فلما خلصتُ فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلِّم عليه، فسلَّمتُ عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم صَعِد حتى إذا أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء فَفَتَح، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى،

---

(١) صحيح البخاري.

وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت فردا، ثم قالا: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إلى إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي، حتى إذا أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد أرسل إليه، قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح، والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى إذا أتى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح، والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبا به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام، قال: مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم رُفِعَت إلى سدرة المنتهى فإذا نَبِقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا

أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع لي البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك. ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن فقال: هي الفطرة أنت عليها وأمتك، ثم فرضت عليَّ الصلوات خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بم أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال: أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جرَّبت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال: بما أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلِّم، قال: فلما جاوزت نادى مناد: أمضيتُ فريضتي، وخففتُ عن عبادي)[1].

معالم العظمة والخلود فى الإسراء والمعراج

- **أولا: الإسراء:**

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾.

---

(١) صحيح البخاري.

أ- وردت روايات مختلفة عن مكان الانطلاق، فرواية تقول: إنه من بيت أم هانئ، ونصُّ البخارى: (بينما أنا فى الحطيم)، وهو ما بين الركن والباب، وفى نفس الرواية: فى الحِجْر، وفى النص القرآنى: (من المسجد الحرام)، ولا خلاف بين كل هذا فبيت أم هانئ فى مكة، وأرض مكة حرم ومسجد، والحطيم والحجر فى المسجد، فلا منافاة بينها. وقد يكون أنه كان فى بيت أم هانئ ثم حُمل إلى المسجد وبدأت الرحلة.

ب- وقع شق لصدر رسول الله ﷺ وهو فى المسجد الحرام كما أخبرت الروايات، وهذا الشَّق يخالف الشَّق فى بنى سعد عند حليمة السعدية، فهذا الشق تهيئة للصعود إلى السموات العلى، وإعداد لرؤية الآيات الكبرى ورؤية الله ﷻ. وهذا ما نراه فى إعداد روَّاد الفضاء، فإنهم يُعدُّونهم قبل أن تبدأ الرحلة بشهور.

جـ- الإسراء كان على دابة البراق التى ورد ذكرها فى حديث البخارى، وكان يمكن أن يُنْقل بالقدرة مع الاستغناء عن الدابة، والسر فى وجود الدابة أن فى الإسراء آيات لا ترى إلاَّ وهو على دابة مكشوفاً ليراها، وهى ليست كدواب الأرض، والمرشد فى هذه الرحلة هو الأمين على الوحى والرسول إليه حتى يكون بينهما الألفة وعدم الخوف والاطمئنان.

د- وردت روايات تبين أن الأنبياء اجتمعوا به فى بيت المقدس قبل المعراج وصلى بهم ركعتين، رواية تبين أن الصلاة كانت بعد العروج، مبيِّنة أن الصلاة كانت بعد المعراج، بعد أن فرضت الصلاة، والحقيقة أن الصلاة قبل المعراج كانت ركعتين ركعتين، فصلى بهم على ما كان قد سبق، ولا منافاة بين الصلاة قبل العروج وبعده، فقد يكون التقى بهم وصلى تحية المسجد منفرداً، ثم لما فرضت الصلاة عاد ولقيهم، ثم صلى بهم صلاة الصبح ركعتين بعد فرض صلاة الصبح.

هـ- سبق أن قلنا: إن السر فى إمامته للأنبياء أن يدخل كل التابعين لهؤلاء الأنبياء فى دين الإسلام.

و- كانت نهاية رحلة الإسراء إلى بيت المقدس دون أن تكون طور سيناء أو الوادى المقدس أو يثرب التى هاجر إليها لأمور:

١- لأنه كان أبعد بيت لله ليس وراءه بيت.

٢- إشعار الرسول ﷺ بأن دينه سيصل إلى هذا المكان البعيد، وفيه تسلية له، ويدل على هذا: ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ أى: الأبعد.

٣- إرهاص لهذه الأمة بأن هذه البقعة ستكون مكان جهاد إلى أن تقوم الساعة.

- **ثانياً: المعراج:**

١- رأينا الاستفتاح فى كل سماء: «فاستفتح، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء »، هذا ما ورد عند الاستفتاح فى كل سماء، وأهل كل سماء يعرفون أن محمداً رسول الله بدليل نزول جبريل بآيات الله غدّاً بها وروّاحاً. فما السر فى قولهم: وقد أرسل إليه، وفى رواية غير البخارى «أو قد بعث إليه»؟ قيل لجبريل ذلك فى كل سماء لأمرين:

أ- أن هذا توكيد للبشرية على أنه رسول الله حقاً، ولا يمترى فى ذلك أحد، واستمر ذلك إلى السماء السابعة، ليصل الأمر إلى العدد سبعة وهو كناية عن الكثرة، وكل سماء فيها دليل على صدق رسالته. حين يسألون ويجيبهم جبريل بـ«نعم».

ب- أن السماء محكمة الحراسة لا يخترقها أحد إلاّ بإذن.

٢- رأينا أن الذى نبهه على أن يراجع ربه ويسأله التخفيف هو موسى، مع أنه مر على إبراهيم ولم يلفت إبراهيم انتباهه؛ لأن موسى كليم الله، وصاحب تجربة فى ميدان الخطاب الإلهى. وصاحب تجربة مع قوم لئام، دأبهم التمرد والفساد، هذا هو الذى لفت انتباهه، وليس غيره.

٣- رأينا أن الله خفف عنه حتى وصل التخفيف إلى خمس صلوات وذهب بعض النَّاس إلى أن هذا لا يجوز؛ لأن الله يقول: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [(١)]، والجواب أن الله لم يبدل قوله، ولكنْ خفف لتكون خمسة فى العمل وخمسين فى الأجر والثواب، الحسنة بعشر أمثالها، وآخر الحديث يدرأ ما زعمه هؤلاء «أمضيت فريضتى وخفَّفت عن عبادى».

٤- قوله: «وأما الظاهران فالنيل والفرات» ليس النيل والفرات ينبعان فى السماء ولكن هذا كناية عن أن دينه سينتشر حتى يصل إلى مصر وفارس، وهذا تطمين لرسول الله ﷺ، وأن أهل النيل والفرات سيدخلون الإسلام، وعلى أثر ذلك يدخلون الجنة.

- **حقيقة الإسراء والمعراج هل كان بالروح والجسد أو بغير ذلك؟**

اختلف العلماء فى حقيقة الإسراء والمعراج، ومنشأ هذا الخلاف استبعاد وقوعه فى عقول بعضهم، وعدم القدرة على سبر النصوص والوصول إلى أغوارها، فخفيت على بعضهم الأدلة.

أولاً: جمهور العلماء:

قالوا: إن الإسراء والمعراج كانا بالروح وبالجسد معاً.

ثانياً: قال فريق من المفكرين: إنه كان مناماً.

ثالثاً: قال فريق: إن الإسراء كان بالجسد والروح، والمعراج كان بالروح فقط.

والحق أن اتجاه الجمهور إلى أن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد هو الصحيح للأدلة التالية:

أولاً: صدَّر الله الحديث عن الإسراء بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، وفى هذا النص دلائل

(١) سورة ق آية ٢٩.

على كونهما بالروح والجسد لما يأتى:

١- كلمة «سبحان» مصدر للفعل أُسبِّح أو يسبِّح، وفعله الماضى سبَّح، وقد وردت هذه المادة فى القرآن بالأفعال الثلاثة الماضى والمضارع والأمر «سَبَّحَ» و«يُسَبِّح»، و«سَبِّحْ» ووردت بالمصدر «سبحان» للدلالة على تسبيح الله فى كل الأزمنة، وهذه المادة حين تتعلق بالله تكون بمعنى تنزيه الله عما لا يليق بجلاله وجماله وكماله.

والعرب استعملت المصدر فى التعجب، فهو صيغة سماعية وليست قياسية كصيغتى: «ما أفْعَلَهُ» و«أفْعِلْ بهِ»، ويستعمل أيضاً فى تنزيه الله كما سبق ذكره.

ولما كان الإسراء والمعراج بالروح والجسد، وهو أمر خارق للعادة يدعو إلى التعجب صدَّر الله الحديث عنه بكلمة «سبحان».

وأيضاً لما كان الإسراء والمعراج حدثا بالروح والجسد، وربما تذهب النفس فى تصورها كل مذهب لتصل إلى الله، دعا إلى تنزيه الله تعالى بالمصدر «سبحان».

٢- كلمة «الذى أسرى» المراد باسم الموصول: الله ﷻ، وهو القادر وحده دون غيره على إحداث الخوارق، وكلمة «أسرى» أتى بهذا الفعل ولم يأت بالفعل «سرى»، لأن الفعل «أسرى» فاعله ضمير يعود على اسم الموصول، فيكون الله هو الذى سيَّره بأمره وقدرته، أمَّا الفعل «سرى» ففاعله ضميرٌ يعود على الرسول ﷺ، ويؤخذ من فحوى السياق، فالله هو الذى أسرى به دون أن يكون للرسول ﷺ دخل ولا اختيار فى هذا، وهذا موكول إلى الله، فهو القادر على خرق العادات، وكلمة «أسرى» هو السير ليلاً، والسير يكون للجسد، والروح لها السَّبح.

٣- كلمة «بعبده» كلمة تطلق على الإنسان بشحمه ولحمه وجسده وروحه، ولو كان بروحه أو مناماً لأتى بكلمة غيرها، فالقرآن محكم الدلالة على المعنى.

ثانياً: لو كان الإسراء والمعراج مناماً أو للروح ما أعلنت قريشٌ إنكارها له واستبعادها لوقوعه؛ لأن الإنكار على انتقاله بجسده إلى المسجد الأقصى ثم اختراق السماوات السبع، ولو كانا مناماً أو روحاً ما أنكروا، فقد يرى النائم في مصر أنه ذهب مناماً إلى أمريكا ودخل نيويورك ودخل مجلس الأمن وحاور «كوفي أنان» ولا ينكر عليه أحد ذلك، والإنكار انتقاله إلى أمريكا في جزء يسير من الليل وذهابه إلى نيويورك وفتحه مجلس الأمن وجمعه ولقاؤه بأعضائه وحديثه مع «أنان»، فلو كان الإسراء والمعراج مناماً ما اعترضت قريش فثبت أنه بالجسد والروح معاً.

ثالثاً: أنَّ الرسول ﷺ أخبرهم بوصول عير لقريش، وحدد وقتها بطلوع الشمس وهذا يدل على أنه بالروح والجسد معاً، ولو كان مناماً ما عَرَف شيئاً.

رابعاً: لو كانا مناماً ما عرف أن بني فلان قد فقدوا بعيراً لهم وأخبرهم بذلك.

خامساً: ارتداد بعض المسلمين لاستبعادهم وقوعه يدل على أنه كان بالروح والجسد.

- <u>**إلقاء الضوء على بعض الأمور المتعلقة بالحدث:**</u>

أ- قوله تعالى ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ الإسراء هو السير ليلاً فلماذا أتى بكلمة «ليلا»؟

«ليلاً»: نكرة، وهي هنا تفيد التقليل، فأفادت وقوع الإسراء في جزء يسير من الليل، والكلمة منصوبة على الظرفية.

ب- قوله تعالى: ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾

«مِنْ»: ابتدائية والمسجد الحرام: مكة، والمسجد الأقصى أي: الأبعد؛ لأنه ليس بعده مسجد، والمراد به بيت المقدس.

والمسجد الأقصى مبارك في داخله وحوله، ففي داخله يضاعف أجر الصلاة فيه، ومبارك حوله بالثمار والأنهار والزروع.

جـ- قوله تعالى ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ من العجائب الدالة على قدرتنا وعلمنا، ولم

يعيِّن الآيات للدلالة على عمومها وكثرتها، وهنا سؤال يقفز إلى الذهن، فقد قال الله عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [1]، فهل رأى إبراهيم أكثر مما رآه خاتم الأنبياء وسيدهم؟

والجواب: أن رسول الله ﷺ رأى أكثر مما رأى سيدنا إبراهيم عليه السلام لما يأتي:

أولاً: أن كلمة «مِنْ» ليست للتبعيض بل هى بيانية، والمعنى «سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه آياتنا».

ثانياً: على جعل «مِنْ» تبعيضية فالمعنى: «لنريه بعض آياتنا»، فالرسول ﷺ رأى أكثر من إبراهيم عليه السلام: لأمرين:

١- أن كلمة آيات فى «آياتنا» أضيفت إلى «نا» ضمير المعظِّم نفسه، وهو الله ﷻ، فاكتسبت الآيات العظم من الضمير العائد على الله تعالى، وأضيفت كلمة «ملكوت» فى حق نبى الله إبراهيم عليه السلام إلى السموات، والله أعظم من السماوات، قال تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [2].

فالآيات التى رآها رسول الله ﷺ أعظم من الملكوت الذى رآه إبراهيم عليه السلام.

٢- ملكوت السموات والأرض هو بعض آيات الله العظيمة الجليلة، فالله تعالى أطْلَعَ رسوله ﷺ على ما لم يطلع عليه غيره.

د- ورَدَت روايات تدل على أن رسول الله ﷺ عاد من الرحلة ومكان نومه ما زال دافئاً فكيف هذا؟

---

(١) سورة الأنعام آية ٧٦.

(٢) سورة الزمر: آية ٦٧.

والجواب على ذلك:

أن الرسول ﷺ ركب البُراق، وحين خرج إلى السموات وترك المجال الأرضى أصبح فى زمن بعيد عن الزمن الأرضى وهو مختلف عن زمن الأرض، فقد صدق، وعاد ومكانه مازال دافئاً، ولماذا نستبعد هذا على قدرة الله؟

هـ- لماذا لم يأت المعراج فى سورة الإسراء؟

والجواب:

أن الإسراء هو السير ليلاً على كوكب الأرض من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

والمعراج هو الصعود إلى السماوات، وهما متباينان وحدثان عظيمان، وفى كل حدث منهما رأى آيات، فاستقل كل حدث عن الآخر لعظم كل واحد منهما، فانفردت سورة الإسراء بالحديث عن الإسراء، وانفردت سورة النجم بالحديث الموجز عن المعراج ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى. مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى. أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى. وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾(1).

و- حين أخذ الرسول ﷺ: اللبن. قيل له «أصبت الفطرة»، أى: أن دينك هو دين الفطرة الذى ينسجم فى عقيدته وأحكامه كلها مع ما تقتضيه نوازع الفطرة الإنسانية الأصيلة، فليس فى الإسلام شىء مما يتعارض والطبيعة الأصيلة فى الإسلام.

---

(1) سورة النجم الآيات 1-18.

- **بعض الروايات التي تثبت أن الإسراء والمعراج بالجسد والروح:**

روى البيهقى فى دلائل النبوة بسنده عن شداد بن أوس قال: (قلنا: يا رسول الله كيف أسري بك ليلة أسري بك؟ قال: "صليت بأصحابي صلاة العتمة بمكة معتماً، فأتاني جبريل عليه السلام بدابة بيضاء فوق الحمار ودون البغل، فاستصعبت عليَّ، فأدارها بأذنها حتى حملني عليها، فانطلقت تهوي بنا، يقع حافرها حيث أدرك طرفها، حتى انتهينا إلى أرض ذات نخل قال: فأنزلني، فقال: صل فصليت،ثم ركبنا قال لي: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صليت بيثرب صليت بطيبة، فانطلقتْ تهوي بنا، يقع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضاً بدت لنا ذات قصور، فقال: انزل فنزلت، فقال: صلِّ فصليت ثم ركبنا، قال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم! قال: صليت ببيت لحم، حيث ولد عيسى – عليه السلام – المسيح ابن مريم، ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليمانى، فأتى قبلة المسجد فربط به دابته، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، فصليت من المسجد حيث شاء الله، وأخذنى من العطش أشد ما أخذنى، فأُتِيتُ بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر عسل أُرسل إلي بهما جميعاً، فعدلت بينهما ثم هداني الله عز وجل فأخذت اللبن فشربت حتى قرعتُ به جبيني، وبين يدي شيخ متكئ على مثراة له، فقال: أخذ صاحبك الفطرة إنه ليهدى، ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فى المدينة فإذا جهنم تنكشف عن مثل الزرابي، قلت – أي الصحابى شداد بن أوس–: يا رسول الله كيف وجدتها؟ قال: مثل الحمَّة السُّخنة، ثم انصرف بى فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيراً لهم فجمعه فلان، فسلمت عليهم فقال بعضهم لبعض: هذا صوت محمد ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة فأتاني أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أين كنت الليلة فقد الْتَمَسْتُكَ في مكانك؟ فقال: علمت أني أتيت بيت المقدس الليلة، فقال: يا رسول الله إنه مسيرة شهر فصفه لي، قال: ففتح لي صراط كأني أنظر إليه لا يسألني عن شيء إلا أنبأته به. قال أبو بكر: أشهد أنك

رسول الله، فقال المشركون: انظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة! قال: فقال: إن من آية ما أقول لكم أني مررت بعير لكم في مكان كذا كذا، وقد أضلوا بعيراً لهم، فجمعه فلان، وإنَّ مُسيِّرهم ينزلون بكذا ثم بكذا ويأتونكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم-أسود- عليه مسح أسود وغرارتان[1] سوداوان، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينتظرون حتى كان قريب من نصف النهار حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل كالذي وصفه الرسول الله ﷺ «وهذا إسناد صحيح»)[2].
ساق مشاهد من الإسراء والمعراج، وكله يدل على أنهما كانا بالجسد والروح.

- **مشاهد من المعراج تقوِّم السلوك البشري**

روى البيهقى بسنده عن رسول الله ﷺ (قال: ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس فصلَّى كل واحد منا ركعتين ثم أتيت بالمعراج الذى تعرج عليه أرواح بنى آدم، فلم ير الخلائق أحسن من المعراج ما رأيتم الميِّتَ حين يشق بصره طامحاً إلى السماء عجب بالمعراج، قال: فصعدت أنا وجبريل، فإذا أنا بمَلَكٍ يقال له: إسماعيل، وهو صاحب السماء الدنيا، وبين يديه سبعون ألف ملك، مع كل ملك جنده مائة ألف ملك، قال: وقال الله ﷻ: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾[3] فاستفتح جبريل باب السماء. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد: قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم. فإذا آنا بآدم كهيئته يوم خلقه الله على صورته تُعرضُ عليه أرواح ذريته المؤمنين فيقول: روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها على عليين، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجَّار فيقول: روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها فى سجين، ثم مضت هُنَيَّة فإذا أنا بأخونة – يعنى بالخوان المائدة التى

(١) الغرارة: وعاء من الخيش.
(٢) دلائل النبوة.
(٣) سورة المدثر آية ٣١.

يؤكل عليها لحم مشرَّحٌ – ليس يقربها أحد، وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح ونتن، عندها أناس يأكلون منها، قلت: يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون الحرام. قال: ثم مضت هنية: فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت، كلما نهض أحدهم خرَّ يقول: اللهم لا تقم الساعة. قال: وهم على سابلة[1] آل فرعون. قال: فتجيء السابلة فتطؤهم. قال: فسمعتهم يضجون إلى الله سبحانه. قلت: يا جبريل. من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قال: ثم مضت هنية: فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل. قال: فتفتح على أفواههم ويلقمون الحجر ثم يخرج من أسافلهم. فسمعتهم: يضجون إلى الله ﷻ فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك يَـأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَـأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا. قال: ثم مضت هنيَّة فإذا أنا بنساء يعلَّقن من ثديِّهن فسمعتهن يضججن إلى الله ﷻ، قلت: يا جبريل: من هؤلاء النساء؟ قال: هؤلاء الزناة من أمتك. قال: ثم: مضيت هنية فإذا أنا بأقوام تقطَّع من جنوبهم اللحم فيلقمون فيقال له: كل كما كنت تأكل من لحم أخيك. قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون. ثم صعدنا السماء الثانية)[2]. ووردت روايات أخرى[3].

عرض الرسول ﷺ الإسلام على القبائل وقبول بعض الأنصار به

بعد الإسراء والمعراج زادت قريش من إساءتها لعماها وإغلاق أفئدتها ولم يبق لرسول الله ﷺ رجاء في نصرة القبائل له، ولا سيما بعد رحلة الطائف التي لم

(١) السابلة: الطريق المسلوك والمارون عليه، جمعها سوابل.
(٢) دلائل النبوة.
(٣) ومن أراد المزيد فعليه بتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ، سورة الإسراء.

تُحقق أهدافها وخذلان أهلها له فقد رجع منها بشر جواب.

بيد أن رسول الله ﷺ ينفذ ما أمره الله به من الدعوة إلى الله غير ملتفت إلى النتائج، وليس عابئاً برد مجرمي البشر، وظل يدعو القبائل في موسم الحج وفي عكاظ والمجنة وذي المجاز، وصادفت دعوته آذاناً صاغية وقلوباً واعية ستة من يثرب أعجبهم قوله فآمنوا به وصدَّقوه ورجعوا إلى بلدهم وشرعوا في بث ما سمعوه من الرسول ﷺ، وبدأ الإسلام ينتشر انتشار الأريج مع النسيم، وأصبح اسم النبي ﷺ علماً يجري على كل لسان يثرب.

- **العقبة مكان له تاريخ ودلالة:**

غار حراء كهف في الجبل له تاريخه حيث المكان الذي التقى فيه رسول السماء برسول الأرض، فكان فيه اللقاء الأول، فتجلى فيه المولى بالهداية للحائر، ويأتي بعده غار ثور وهو مكان تجلَّت فيه عناية الله برسوله، وكان دليلاً على حفظ الله له، وكان محطة في الهجرة إلى المدينة، وثمَّة مكان آخر غُرست فيه أصول العقيدة الإسلامية هذا المكان يقع قريباً من منى في الطريق المنحدر من عرفات إلى مكة وهو ما يعرف بالعقبة. لقد عُقِد اجتماعان مهمان في تاريخ الإسلام في موسمَي حج في عامين متتاليين، هذان الاجتماعان فتحا رتاج[1] الأمل الكبير لرسول الله ﷺ فقد بزغت أنوار الفوز من يثرب، وقد عُرف ما حدث ببيعة العقبة الأولى والثانية.

- **بيعة [2] العقبة الأولى:**

استدار العام، وجاء موسم الحج الثاني عشر بعد البعثة، وبعد أنْ حمل النفر الستة بعض مبادئ الإسلام في الموسم السابق. أتى موسم الحج الثاني عشر، وبادر

(١) الرتاج: المغلاق والباب ، جمعه: رُتُج.

(٢) البيعة: الصفقة على إيجاب البيع و العهد على السمع والطاعة و كانت سنة ٦٢١م.

اثنا عشر رجلاً من مسلمى المدينة بالخروج إلى مكة، فالتقوا برسول الله ﷺ وحدثت مبايعة بينهم وبين النبى ﷺ عُرفت ببيعة العقبة الأولى أو ببيعة «النساء»؛ لأنها كانت على غرار بيعة النساء/التى وردت فى سورة الممتحنة، «ويروى ابن حجر أن البيعة هذه الليلة كانت على الإيواء والنصرة والسمع والطاعة، ولما انتهوا من أمر البيعة طلبوا إلى رسول الله أن يرسل معهم من يقرئهم القرآن ويعلمهم أمور دينهم، فأرسل معهم «مصعب بن عمير بن هاشم» فكان لشخصية مصعب وقوة إيمانه أثر كبير فى انتشار الإسلام وازدياد الراغبين فيه من الأوس والخزرج حتى لم تبق دار بالمدينة إلاّ وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات.

- **بيعة العقبة الثانية:**

جاء موسم الحج الثالث عشر للبعثة، ووفد على مكة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان يؤمهم فى الخروج مصعب بن عمير فى جمع من حجاج يثرب كانوا لا يزالون على دينهم القديم، ثم أرسل المسلمون سرّاً إلى الرسول ﷺ يطلبون لقاءه عند العقبة فى أواسط أيام التشريق، فلما فرغ النَّاس من حجهم وحان الموعد المضروب هبَّ المسلمون من رحالهم آخر الليل يتسللون لواذاً لا يُسمع لهم ركزاً من شدة الحذر، ووصلوا إلى العقبة وجلسوا ينتظرون رسول الله ﷺ فلم يطل بهم الانتظار حتى وافاهم الرسول ومعه عمه، وكان لا يزال على دين قومه إلاّ أن حبه لابن أخيه جعله يرافقه فى الحضور إلى هؤلاء القوم ليستوثق له، من أجل هذا كان العباس أول متكلم مع الأنصار فقال لهم: يا معشر الخزرج – قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها-: إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك ؛ وإن

كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت:

فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبيا، لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرنا، فبايعْنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابرا عن كابر.

فاعترض القول، والبراء يكلِّم رسول الله ﷺ، أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها – يعني اليهود – فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.

قال ابن هشام: الهدم الهدم: يعني الحرمة. أي: ذمتي ذمتكم، وحرمتي حرمتكم.

و قال رسول الله ﷺ: أخرجوا إليَّ منكم اثنى عشر نقيباً – يعنى: يشرفون على المسلمين– ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس)[1].

- **انزعاج قريش من بيعة العقبة الثانية:**

تطاير خبر البيعة في الصباح، وعلمت بها قريش فثارت ثائرتها، فأسرعوا إلى منازل حجاج يثرب وقالوا: «يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من

---

(١) سيرة ابن هشام ١٨٩/٢.

حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم. قال: فانبعث مَنْ هناك مِنْ مشركي قومنا - الخزرج - يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه. قال: وقد صدقوا، لم يعلموه. قال: وبعضنا ينظر إلى بعض)[1].

و بدأت وفود الحجيج في الرحيل، ومضت أيام على رحيل أهل المدينة، وصرَّح الرسول ﷺ بخبر البيعة، فهال قريشاً وقوعها وتفاصيلها وكثرة المبايعين، وقامت قيامتها فبعثت رهطاً ليتعقَّب ركب يثرب ويلحق بهم الأذى، لكنهم لم يلحقوا بهم ما عدا اثنين كانا قد تأخرا عن الركب فقبضوا عليهما وهما سعد بن عبادة والمنذر بن عمر أخو بني ساعدة بن كعب، وكانا من النقباء، فأما المنذر فأعجزهم وفرَّ منهم وأما سعد بن عبادة فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه حتى أدخلوه مكة بالضرب واستجار سعد بن عبادة بجبير بن مطعم والحارث بن حرب بن أمية، فأجاراه وخلَّصا سعداً من أيديهم[2] ورجع إلى المدينة.

وطفق الإسلام ينتشر في المدينة.

- **الشيطان يصرخ بعد بيعة العقبة:**

يقول ابن هشام: (فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الحباحب - والحباحب: المنازل - هل لكم في مذمَّم والصُّباة معه، قد اجتمعوا على حربكم. قال: فقال رسول الله ﷺ: هذا أزبّ العقبة، هذا ابن أزبب - قال ابن هشام: ويقال ابن أُزيب - أتسمع أي عدو الله، أما والله لأفرغنّ لك)[3].

(١) المرجع السابق ص١٩٢.
(٢) انظر: المرجع السابق ص١٩٣.
(٣) المرجع السابق ص١٩٢.

* **السر فى قبول أهل يثرب الإسلام أسرع من أهل مكة:**

هناك أسباب لإسراع أهل المدينة للدخول فى الإسلام، وقد ساق هذه الأسباب فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمود محمد زيادة – رحمه الله– فى كتابه «العرب وظهور الإسلام»، ولما كان كلامه وجيهاً أردت أن أنقل بعضه حرصاً على الأمانة وإن كنتُ سأختصره.

قال:

أولاً: أنه كان فى يثرب يهود، وهؤلاء كانوا يقولون ببعثة نبى قَرُب ظهوره فنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وثمود ونخرجكم من المدينة، فلما جاء حجاج الخزرج فى المرة الأولى بخبر النبى سارع الخزرجيون والأوسيون معاً إلى الدخول فى دينه حتى يسبقوا اليهود إليه.

ثانياً: مخالطة الأوس والخزرج لأهل الكتاب جعلتهم عارفين بتفاصيل دين كتابى يختلف اختلافاً كلياً عن عبادات الجاهلية وأصنامها، فعندما وصلتهم الدعوة الإسلامية وجدوا فيها تحقيقاً لنبوءة ذلك الدين الكتابى، كما وجدوا فيها أموراً كان الدين اليهودى خالياً منها.

ثالثاً: كثير من أهل المدينة كحسان بن ثابت كانوا يذهبون إلى مملكة الغساسنة بالشام، ومن هناك عرفوا تفاصيل دين كتابى آخر يعادى الوثنية والأصنام المركزة فى قريش، فكانوا على استعداد لقبول دين خال من مبهمات وتعقيدات المسيحية واليهودية، فلما وصل الإسلام وجدوا فيه الدين الذى يطلبونه.

رابعاً: الحروب الطاحنة بين الأوس والخزرج أضعفتهما، ولذلك كانت القلوب مستعدة لقبول عنصر جديد يصلح من شأنهما، ولقد كان الأوس قد نزلوا على حكم الضرورة وقبلوا أن يكون زعيمهم من الخزرج، وفعلاً أعدّ تاج من

الخرز لعبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول الخزرجي، وكاد يتم الأمر له لولا ما حدث من المبايعة للرسول ﷺ، والخضوع للنبي يقطع التنافس بين القبيلتين إلى الأبد، وهذا سر من أسرار قبول أهل يثرب الإسلام، وهذا سر كراهية عبد الله بن أبي للرسول ﷺ.

خامساً: القرابة التي كانت بين رسول الله،وبين بني النجار حملتهم على أن يؤمنوا به ويصدقوه، وهذا حمل بقية القبائل على الدخول في الإسلام خشية أن يستأثر بنو النجار بالشرف.

سادساً: شخصية مصعب بن عمير، والتي امتازت بالدعوة العميقة، وكان لها فعل السحر، فلعبت في إقناع النّاس دوراً مؤثراً.

سابعاً: اختلاف البيئة فبيئة، المدينة سهلة وبيئة مكة صخرية، فقبل أهل المدينة الإسلام بسهولة، وأَبَى أهل مكة)[1].

ثامناً: المدينة تقع على طريق التجارة التي تسلكها قريش، فكان المسلمون في موقع يهدد قريشاً في كل تجارتها، وأورثهم المسلمون الخوف في كل قافلة تجارية لهم، ظهر هذا في قول سعد بن معاذ حين ذهب لزيارة أمية بن خلف في مكة في السنة الثانية للهجرة وقبل غزوة بدر، «فطاف بالبيت وقابلهما أبو جهل فقال لأميَّة: من هذا الرجل؟ قال له: سعد بن معاذ. قال أبو جهل له: تطوف آمناً وقد آويتم الصُّباة – يعني: المسلمين – قال سعد: أمَّا والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه طريقك على المدينة»[2].

---

(١) العرب وظهور الإسلام ص١٧٧ – ١٧٩ باختصار.
(٢) دلائل النبوة.

معالم العظمة والخلود فى الهجرة إلى المدينة

فتحت بيعة العقبة الثانية أبواب الآمال للمسلمين، فوجدوا فى ديار يثرب ملاذاً آمناً يمنعهم من قريش وعنتها، ولا سيما أن قريشاً زادت من اضطهادها وإيذائها لهم، فأسرع المسلمون بالهجرة بعد أن أمرهم الرسول ﷺ بها قائلاً: (إن الله ﷻ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها)، فخرجوا سرّاً إلى المدينة وخلت بعض أحياء مكة من سكانها الذين هاجروا وتركوا ديارهم حرصاً على دينهم، فكان رضا الله هدفهم وهم المؤمنون بحق، ولم يهاجروا لمال ولا لغنى ولا لجاه، وتركوا منابتهم التى نبتوا فيها لأن مقصودهم هو الله.

أمّا أرض المهجر فأهلها لا يقلّون فى إيمانهم عن المهاجرين، فأسرعوا إلى إيواء إخوتهم فى الإسلام، وفتحوا لهم بيوتهم، وشاركوهم فى أموالهم، وهذا يدل على قوة إيمانهم، قال الله عن المهاجرين والأنصار: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (1).

لقد هاجر كثير من المسلمين، ووقفت قريش مبهوتة مذهولة لتلك الحركة السرية التى أدت إلى خلو بعض أحياء مكة من السكان، وبدأت الهجرة فى المحرم الموافق لإبريل سنة ٦٢٢ واستمرت نحو شهرين.

لماذا بقى الرسول ﷺ فى مكة بعد هجرة معظم المسلمين؟

والجواب عن ذلك من وجوه:

١- أنه لا يتحرك إلاّ بوحى، فانتظر حتى يأذن الله له بالهجرة.

٢- قد يكون بقاؤه فى مكة حتى يطمئن على خروج المسلمين من مكة.

٣- قد يكون بقاؤه فى مكة حتى تأتيه أخبار المهاجرين فى أرض المهجر بأنهم

---

(1) سورة الأنفال آية ٧٤.

استقروا وأصبحوا فى أمان دون أن تكون هناك معارضة أو ثورة ضد وجودهم من عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول وحاشيته، ففضل البقاء من أجل هذا.

تحيَّرتْ قريشٌ فى سبب بقاء النبى ﷺ فى مكة، ورأت ضياع جهودهم فى إيقاف المد الدينى للمسلمين، وخرج الأمر عن أيديهم فأعلنوا عن عقد اجتماع للتشاور فى أمر الرسول ﷺ، و «تآمروا فيما بينهم، فقالو: الآن فأجمعوا فى أمر محمد ﷺ فوالله لكأنه قد كرَّ عليكم بالرجال فأثبتوه أو اقتلوه أو أخرجوه فاجتمعوا له في دار الندوة ليقتلوه فلما دخلوا الدار اعترضهم الشيطان فى صورة رجل جميل – وفى رواية فى صورة شيخ نجدى – فى بَتٍّ له، والبتُّ الكساء، فقال: أَدْخُل؟ فقالوا: من أنت؟ قال: أنا رجل من أهل نجدٍ سمع بالذى اجتمعتم له فأراد أن يحضره معكم فعسى أن لا يعدمكم منه رأى ونُصح.

فقالوا: أجل فادخل.

فلما دخل قال بعضهم لبعض قد كان من الأمر ما قد علمتم فأجْمعوا فى هذا الرجل رأياً واحداً، وكان ممن اجتمع له فى دار الندوة: شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والنضر بن الحارث.

فقال قائل منهم: أرى أن تحبسوه وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير بن أبى سلمى والنابغة وغيرهما.

فقال النجدى: والله ما هذا لكم برأى، والله لئن فعلتم ليَخْرُجُ رَأْيُه وحديثُه حيث حبستموه إلى مَنْ وراءه من أصحابه، فأوشك أن ينتزعوه من أيديكم ثم يغلبوكم على ما فى أيديكم من أمركم.

فقال قائل منهم: بل نخرجه فننفيه من بلادنا، فإذا غُيِّب عنا وجهُهُ وحديثه فوالله ما نبالى أين وقع من البلاد، و لئن أجمعنا بعد ذلك أمرنا وأصلحنا ذات بيننا.

قال النجدى: لا والله ما هذا لكم برأى، أمَا رأيتم حلاوة منطقه وحسن حديثه

وغلبته على من يلقاه دون من خالفه، والله لكأنى به إن فعلتم ذلك قد دخل على قبيلة من قبائل العرب، فأصفقت معه على رأيه ثم سار بهم إليكم حتى يطأكم به، فلا والله ما هذا لكم برأى.

قال أبو جهل بن هشام: والله إن لى فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه.

قالوا: وما هو؟

قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة من قريش غلاماً نهداً نسيباً وسيطاً، ثم تعطوهم شفاراً صارمة، ثم يجتمعوا فيضربوه ضربة رجل واحد، فإذا قتلتموه تفرّق دمه فى القبائل، فلم تدر عبد مناف بعد ذلك ما تصنع، ولم يقووا على حرب قومهم.

قال النجدى: لله درُّ الفتى، هذا الرأى وإلاَّ فلا شىء.

فتفرقوا على ذلك، واجتمعوا له وأتى رسول الله ﷺ الخبر، وأُمر أن لا ينام على فراشه تلك الليلة فلم يبت رسول الله ﷺ حيث كان يبيت، وبيَّت عليًّاً فى مضجعه[1].

ولقد أنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[2].

بعد ما أخبر الله نبيَّه بما اعتزمته قريش توجَّه إلى أبى بكر وأخبره أن الله قد أذن له بالهجرة، فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه إليها، وخرج هو وأبو بكر من باب صغير خلف دار أبى بكر، وكان رسول الله ﷺ قد أمر ابن عمه عليَّ بن أبى طالب أن يبيت مكانه وأن يتشح ببرده الأخضر حتى الصباح، ثم يؤدى الودائع والأمانات التى كانت عند رسول الله ﷺ ويلحق به فى المدينة.

- **فشل مؤامرة قريش:**

ذهب فتيان قريش إلى بيت رسول الله ﷺ فى الليلة التى حددها زعماؤهم

---

(١) دلائل النبوة.

(٢) سورة الأنفال آية ٣٠.

لقتله، وباتوا يحرسونه حتى إذا خرج عليهم فى الصباح ضربوه ضربة رجل واحد فيضيع دمه فى القبائل، وإذا بالذى خرج عليهم علىٌّ بن أبى طالب لا رسول الله ﷺ، الذى كانوا يتربصون به، وعلمت قريش أن محمداً أفلت منهم، فطاشت عقولهم، وأرسلوا عيونهم فى كل مكان، ورصدوا لمن يأتى به أو يدلهم عليه مائة ناقة مكافأة على ذلك، وكان الرسول ﷺ حينما خرج من دار أبى بكر اتجه هو وصاحبه جنوباً نحو اليمن مخالفاً أى جهة إلى يثرب، وانتهى بهم المطاف إلى غار ثَوْر[1] . تروى السيدة عائشة هذا الموقف فتقول: «فبينا نحن يوما جلوس في بيتنا في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقَنّعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، أمَا والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمرٌ. قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أخرج مَنْ عِنْدَك. فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، بأبي أنت يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: فإني قد أذن لي في الخروج.

فقال أبو بكر: الصحابة – يريد المصاحبة– بأبي أنت وأمى[2] يا رسول الله؟ قال النبى: نعم. قال أبو بكر: فخذ منى يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين. قال رسول الله ﷺ: بالثمن. قالت عائشة: فجهزتهما أحث – أى أسرع– الجهاز، فصنعنا لهما سفرة في جراب[3]، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها[4]، فأوكت – أى: ربطت– به على فم الجراب، فبذلك كانت تسمى ذات النطاقين، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل، يقال له: ثور، فكمنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شاب لقن، ثقف، فيدلج

---

(١) ثَوْر: بفتح الثاء وسكون الواو.
(٢) كلمة يقولها العرب: ومعناها أفديك بأبى و أمى.
(٣) الجراب: إزار فيه تكة تلبسه النساء.
(٤) النطاق: كل ما يُشدُّ به الوسط.

مِنْ عندهما بسحر[١]، فيصبح في قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرا يكيدون به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فُهيرة مولى أبي بكر مِنْحَةً من غنم، فيريح عليهما حين تذهب ساعة من الليل، فيبيتان في رسل -وهو لبن - منحتهما ورضيفهما، حتى ينعق بها عامر بن فُهَيرة بغلس، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلا من بني الدِّيل، وهو من بني عبد بن عدي، هاديا خِرِّيتا[٢]، والخرِّيت الماهر بالهداية، قد غمَس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمَّناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ثلاث ليال، وانطلق فارتحلا، وانطلق عامر بن فهيرة، والدليل الدؤلي، فأخذ بهما يد بحر، وهو طريق الساحل)[٣]. والدليل هو عبد الله بن أُرَيْقط.

- **فداءٌ منقطع النظير:**

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة ذكرها: (والله لليلة من أبي بكر خير من عُمْر عُمَرَ. هل لك أن أحدِّثك بليلته ويومه ؟ قال: قلت: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: أما الليلة: فلما خرج رسول الله ﷺ هارباً من أهل مكة خرج ليلا، فتبعه أبو بكر، فجعل يمشي مرة أمامه، ومرة خلفه، ومرة عن يمينه، ومرة عن يساره، فقال له رسول الله ﷺ ما هذا يا أبا بكر؟ ما أعرف هذا من فعلك؟ قال: يا رسول الله أذكر الرصد -أى ما رصده العدو من أفراد - فأكون أمامك، وأذكر الطلب - أى الطالبين له- فأكون خلفك، ومرة عن يمينك، ومرة عن يسارك، لا آمن عليك، قال:

(١) لقِنٌ: سريع الفهم. ثقِفٌ: الفطن الذكى. يُدْلج: أى يسير بالليل و المراد به هنا آخر الليل.
(٢) خِرِّيتاً: بكسر الخاء و تشديد الراء و بالياء آخر الحروف: ومعناه: الماهر بالهداية.
(٣) رواه البخارى و البيهقى.

فمشى رسول الله ﷺ ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت رجلاه، فلما رأى أبو بكر أنها قد حفيت، حَمَلَهُ على كاهله، وجعل يشتد به حتى أتى به فَمَ الغار فأنزله، ثم قال: والذي بعثك بالحق لا تدخُلْه حتى أدخلَهُ قبلك، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك، فدخل فلم ير فيه شيئا، فحمله فأدخله. وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاعي، فخشي أبو بكر أن يخرج منهن شيء يؤذي رسول الله ﷺ، فألقمه قدمه فجعلن يضربنه ويلسعنه: الحيات والأفاعي، وجعلت دموعه تنحدر ورسول الله ﷺ يقول له: يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته وطمأنينته لأبي بكر، فهذه ليلته.

وأما يومه: فلما توفي رسول الله ﷺ ،وارتدت العرب، فقال بعضهم: نصلى ولا نزكى، وقال بعضهم: لا نصلى ولا نزكى، فأتيتُه ولا آلوه نصحاً. فقلت: يا خليفة رسول الله تألَّفِ النَّاس وارفق بهم.

فقال: جبار فى الجاهلية خوَّار فى الإسلام، فبماذا أتألفهم أبشعر مفتعل أو بشعر مفترى ؟ قُبض النبى ﷺ، وارتفع الوحى. فوالله لو منعونى عقالاً مما كانوا يعطون رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، قال: فقاتلنا معه، فكان والله رشيد الأمر، فهذا يومه)[1].

- **فداء ووفاء لأبى بكر وآله:**

عن أسماء بنت أبى بكر قالت: لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كلَّه، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها معه. قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إنـي لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه. قالت: قلت: كلا يا أبت ! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً. قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كُوَّة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم

(١) دلائل النبوة.

وضعت عليها ثوبا، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت، ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئا، ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك)[1].

- **أهل الكفر في كل عصر مُجرَّدون من مكارم الأخلاق:**

(عن أسماء بنت أبى بكر قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ، أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجتُ إليهم ؛ فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي ؟ قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشا خبيثا، فلطم خدي لطمة طرح منها قُرْطِي[2])[3].

- **الجني الذى تغنى بمقدم الرسول ﷺ**

قالت أسماء: ثم انصرفوا، فمكثنا ثلاث ليال، وما ندري أين وجه رسول الله ﷺ، حتى أقبل رجل من الجنِّ من أسفل مكة، يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب، وإن الناس ليتبعونه، يسمعون صوته وما يرونه، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول:

جَزى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِه	رفيقين حَلاَّ خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلا بالبر ثم تروَّحَا	فَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ
لِيَهْنِ بنو كعب مكان فتاتهم	ومقعدها للمؤمنين بمرصدِ

قالت أسماء: (فلما سمعنا قوله، عرفنا حيث وَجْه رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة، وكانوا أربعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق ﷺ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وعبد الله بن أريقط دليلهما)[4].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٢٥.
(٢) القُرْط: بضم القاف و سكون الراء. الحلَق. جمعه: أقراط.
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق.

لقد سبق أن تحدثنا عن إرسال قريش لُرسُلها يتعقّبون رسول الله ﷺ، وانتهى بهم المطاف إلى غار ثور، يروى البيهقى بسنده عن أبى مصعب المكى (قال: أدركت أنس بن مالك وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة، فسمعتهم يتحدثون أن النبي ﷺ ليلة الغار أمر الله ﷻ بشجرة فنبتت في وجه النبي ﷺ فسترته ، وأمر الله العنكبوت فنسجت في وجه النبي ﷺ فسترته، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار وأقبل فتيان قريش، من كل بطن رجل. بعصيِّهم وهراويهم وسيوفهم، حتى إذا كانوا من النبي ﷺ بقدر أربعين ذراعا فجعل رجل منهم لينظر في الغار فرأى حمامتين بفم الغار، فرجع إلى أصحابه فقالوا له ما لك لم تنظر في الغار؟ فقال: رأيت حمامتين بفم الغار، فعرفت أنه ليس فيه أحد، فسمع النبي ﷺ ما قال، فعرف أن الله قد درأ عنه بهما، فدعاهن النبى ﷺ فَسَمَت عليهن – أى بارك عليهن– وفرض جزاءهن، وانحدرن في الحرم)[1].

وعن هذا الموقف يحدِّث أنس عن أبى بكر قال: (كنتُ مع رسول الله ﷺ فى الغار فقلت: يا رسول الله: لو أن أحدهم ينظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، قال: فقال النبى ﷺ: يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟)[2].

و بعد أن سكن الطلب عنهما خرجا للانطلاق إلى يثرب، (فأجاز بهما – الدليل – أسفل مكة، ثم مضى بهما الساحل أسفل مِنْ عُسْفَان، ثم أجاز بهما حتى عارض الطريق بعد أن أجاز قُدَيْداً)[3].

- **سراقة بن مالك يتعقّب أثر رسول الله ﷺ:**

يروى البخارى بسنده عن سراقة بن مالك بن جُعْشُم (يقول: جاءنا رسل كفار

(١) دلائل النبوة.
(٢) المرجع السابق
(٣) المرجع السابق

قريش، يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر، دِيَةَ كلٍّ واحد منهما، لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس بني مُدْلج، أقبل رجل منهم، حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني قد رأيت آنفا أسْوِدَة بالساحل، أُرَاهَا محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثتُ في المجلس ساعةً، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة، فتحبسها عليَّ، وأخذت رمحي، فخرجتُ به من ظهر البيت، فحططتُ بزُجِّه الأرض، وخفضت عاليَهُ، حتى أتيتُ فرسي فركبتها، فرفعتها تُقرِّب بي، حتى دنوت منهم، فعثرتْ بي فرسي، فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها: أضرُّهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي، وعصيت الأزلام، تقرب حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة، إذا لأثر يديها عُثان -غبار- ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ. فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني، إلا أن قال: أخْفِ عنا. فسألته أن يكتب لي كتابَ أمنٍ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ.

قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول اله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين، كانوا تجاراً قافلين من الشأم، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابَ بياضٍ، وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا

يغدون كلَّ غداة إلى الحرة[١]، فينتظرونه حتى يردهم حرُّ الظهيرة، فانقلبوا يوما بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أوَوْا إلى بيوتهم، أوفى رجل من يهود على أُطُم[٢] من آطامها، لأمر ينظر إليه، فبصُرَ برسول الله ﷺ وأصحابه مُبيَّضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدُّكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحَرَّة، فعدل بهم ذات اليمين، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول. فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار – ممن لم ير رسول الله ﷺ – يُحَيِّي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلَّل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك)[٣].

- **بناء مسجد رسول الله بالمدينة:**

(فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوفٍ بضع عشْرَة ليلةً، وأسِّسَ المسجد الذي أسس على التقوى، وصلَّى فيه رسول الله ﷺ، ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس حتى بَرَكَتْ –ناقته– عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربدا للتمر–أي مخزناً للتمر–، لسُهَيْل وسَهْل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زُرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: هذا إن شاء الله المنزل. ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمِرْبَد ليتخذه مسجداً، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدا، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم

---

(١) الحرَّة: هى الحجارة السوداء والمدينة تقع بين حرَّتين: الشرقية و الغربية.
(٢) الأطُم: الحصن: جمعه: آطام.
(٣) صحيح البخارى.

اللَّبِنَ في بنيانه ويقول، وهو ينقل اللَّبِنَ:

هذا الحِمالُ لا حمالُ خيبر ∴ هـذا أبَـــرُّ ربَّـنا وأطهــر

ويقول:

اللهم إنَّ الأجرَ أجر الآخره ∴ فارحم الأنصار والمهاجره)[1].

- **نشأة الدولة الإسلامية:**

أصبحت المدينة مَشْرق شمسِ الإسلام، تبزغ منها شمسه على الكرة الأرضية، ويمارس المسلمون شعائرهم في جو من الحريـة، ومضـى زمـن الاضـطهاد القرشـي، وأصبح الأمر بأيديهم يتحركون في إطار القرآن وهدى رسولهم، وجمعهـم الرسـول ﷺ من قبائل متناحرة، وأحياء مختلفة متباينة، فطفق الرسول ﷺ يُكوِّن مجتمعـاً مترابطاً متآلفاً لا وجود فيه لعصبية، ولا لقبلية، هـذا المجتمـع حـل محـل الأوس والخزرج، وغيَّر الرسول ﷺ اسم يثرب إلى المدينة ثم طيبة، لتكون معقل الإسـلام، وهذا يؤذن بميلاد أمة جديدة تحمل مشعل الهداية والعرفان، كل فرد فيهـا معـول هدم للوثنية، وقد وضع الرسول ﷺ أسـس هـذه الأمـة التـي سيبني عليهـا صَـرْحُ الإسلام، وهذه الأسس هي:

أولاً: بناء المسجد، ولم يكن البناء للعبادة فقط بل هناك معنى أعمق مع العبـادة، لقد أراد الرسول ﷺ أن يبني بيتاً لله، ومع العبادة يكون هذا البيت صرحاً للمشاورات وبحث القضايا واجتمـاع المسـلمين فيـه، يلتقـون بالرسـول ﷺ وفيه يتحلَّقون حوله، وهو بمثابة مدرسة يتعلمون فيها دينهم وأخلاقهم، وفي ساحة هذا المسجد تلتقي العقول وتتآلف النفـوس وتتلاشـى العصـبية القبلية وينبعث من هذا المكان الأذان الذي يدوي في أرجاء المدينة يعلن عن مواقيت الصلاة، وتتجدد الدعوة مع كل أذان.

---

(١) المرجع السابق.

ثانياً: لقد ربط الرسول ﷺ بين المسلمين برباط الأخوة فآخى بين المهاجرين والأنصار، وآخى بين مهاجر ومهاجر وبين أنصارى وأنصارى، وكان هدف الرسول ﷺ من هذا أن يقرِّب بين المسلمين، وأراد أن يذيب الفوارق، فآخى بين عمه حمزة وبين زيد بن حارثة، وآخى بين سلمان وبين أبى الدرداء، وآخى بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف، وهذه الأخوة جعلت الأنصاريَّ يناصف أخاه المهاجرَ ماله وأهله.

(عن أنس ﷺ قال: قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة، فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلَّني على السوق، فربح شيئا من أقط وسمن، فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضَرٌ[1] من صفرة، فقال النبي ﷺ: مهيم يا عبد الرحمن. قال: يا رسول الله، تزوجت امرأة من الأنصار، قال: فما سقت فيها؟. فقال: وزنَ نواة من ذهب، فقال النبي ﷺ: أولِمْ ولو بشاة)[2]. وبهذا يكون الرسول ﷺ قد جعل المجتمع الإسلامى أسرة واحدة.

ثالثاً: المعاهدة بين المسلمين واليهود: كان اليهود يقطنون على أطراف المدينة أو يقيمون قريباً منها، ويختلطون بأهلها، فعقد الرسول ﷺ معاهدة بينه وبينهم وهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة وخيبر، وأراد الرسول ﷺ أن يأمن شرهم، وأن يتقى غدرهم، فيسود الاستقرار المدينة ويكون الدفاع عن المدينة مشاركة بين المسلمين واليهود، وأن تسير الأمور فى طريق التعاون الاقتصادى، ولم يحافظ اليهود على عهودهم فهم أهل غدر ولا عهد

(١) الوضَر: زيت من عطر.
(٢) صحيح البخارى.

لهم ولا أمان، وتاريخهم حجة دامغة على ذلك، فهم يشعلون الحروب فى العالم، ويسلبون الأموال، وينشرون الفساد.

رابعاً: لهذه الدولة الإسلامية نظام اقتصادى قائم على التكافل الاجتماعى، يرمى إلى تحقيق العدالة بين أفراد المجتمع الإسلامى، فللفقراء حقوق فى أموال الأغنياء، ويتمثل ذلك فى الزكاة وجعلها ركناً من أركان الإسلام، وأمرهم بالصدقة على الفقراء والمساكين والمحتاجين، وجعل الصدقة تقرباً إلى الله، وجعل تكفير اليمين إطعامَ المساكين، وفى الظهار إطعام المساكين، وجعل صدقة الفطر طعاماً للمساكين، وهكذا بدا التكافل الاجتماعى.

خامساً: بدَّل الرسول ﷺ حمية الجاهلية إلى حب يظهر أثره فى سلوك المسلمين، فحوَّل العصبية إلى قوة نافعة.

سادساً: أصاب الرسول ﷺ القلق فى اتجاهه فى صلاته إلى بيت المقدس، فأمره الله بالاتجاه إلى الكعبة، فجعلت كثيراً من القبائل تدخل فى الإسلام؛ لأنها كانت تستقبل الكعبة فى حجِّها.

وبهذا يكون الرسول ﷺ قد وضع نواة الدولة الإسلامية على أسس من الإيمان والإخاء والحب. ووضع دستوراً للإسلام متمثلاً فى القرآن والسُّنَّة.

معالم العظمة والخلود فى عالمية الإسلام

لقد بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وكل رسول أرسل إلى قومه خاصة، وقد يرسل الله رسولين فى زمن واحد كإبراهيم ولوط عليهما السلام، بيد أنهما فى مكانين مختلفين، والرسل أجمعون بعثهم الله بأصول خمسة:

١- الدعوة إلى التوحيد.

٢- إثبات رسالة الرسول المرسَل.

٣- الدعوة إلى عبادة الله.

٤- الدعوة إلى البعث وإثبات وقوعه.

٥- الدعوة إلى مكارم الأخلاق.

فهذه أصول خمسة تواترت عليها الرسالات، وفى الحديث «الأنبياء إخوة من علاَّت، وأمهاتُهم شتى ودينهم واحد»[1]، وكانت الرسالات قبل الإسلام توطئة ومقدمةً لرسالة الرسول محمدٍ ﷺ، وكانت كل رسالة مواكبة لعقول أهلها، وظلت سلسلة الهدايات تترى إلى أن جاءت الحلقة الأخيرة، والرسالة الخاتمة هى التى تواكب العقول البشرية إلى أن تقوم الساعة، فصارت عامة من جهتين:

١- أنها الخاتمة، والرسالة الخاتمة تكون مستوفية لمناهج الحياة كلها، فلا تفتقر بعد ذلك إلى رسالة أخرى ولا إلى نبى آخر.

٢- لم يبشِّر النبى محمد ﷺ برسول من بعده كما بشر به عيسى عليه السلام، وبشر به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، فرسالة الرسول ﷺ عامة، ورسالات الرسل كلهم خاصة.

- **الأدلة على عالمية الإسلام**

الإسلام دين عام لسائر البشر، وليس للعرب فقط، بل هو لجميع الأجناس البشرية:

والأدلة على ذلك:

أولاً: لقد ورد ذكر رسول الله ﷺ فى كتب الرسل السابقين، وبشَّر به موسى وعيسى بعد ذكره فى التوراة والإنجيل، «فعن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-، قلت: أخبرني عن صفة رسول

(١) حديث متفق عليه.

الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً)[1].

والكتب السماوية حافلة بالحديث عنه، ومن نزلت عليهم هذه الكتب يجب عليهم الإيمان به، فهو معلوم من وجهين:

١- قال تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2]،

٢- وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[3].

فالرسول محمد ﷺ تعرفه البشرية منذ آدم عليه السلام وقد عرف اليهود -قبل مجيئه- قدره عند الله، فسألوا الله به أن ينصرهم على أعدائهم، فلما جاء كفروا به، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ

---

(١) رواه البخاري.
(٢) سورة الأعراف آية ١٥٦، ١٥٧.
(٣) سورة آل عمران آية ٨١.

مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١).

فرسولٌ كهذا يكون قد انفرد عن إخوانه بأنه الخاتم وأن رسالته عامةٌ لسائر الخلق إنسهم وجنِّهم إلى أن تقوم الساعة.

ثانياً: لقد وردت النصوص القرآنية تشير إلى عموم رسالته، وهذه النصوص هي:

١- قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٢)، وفي هذه الآية أسلوب قصر بالنفي والاستثناء، والمعنى: «وما أرسلناك إلاّ إلى جميع الخلق من المكلفين»(٣).

٢- قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (٤).

٣- قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (٥)

٤- قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٦).

فهذه النصوص تدل على عالمية الإسلام، والتحدى قائم للبشرية كلِّها، إنسها وجنِّها، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٧)، فهذه أدلة على عالمية الإسلام.

---

(١) سورة البقرة آية ٨٩.
(٢) سورة سبأ آية ٢٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٥٠٥/٦ ط الشعب.
(٤) سورة الأعراف آية ١٥٨.
(٥) سورة الفرقان آية ١.
(٦) سورة الأنبياء آية ١٠٧.
(٧) سورة الإسراء آية ٨٨.

ثالثاً: ووردت نصوص من السُّنّة تشير إلى عالمية الإسلام:

أ- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ. وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي. وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُوراً وَمَسْجِداً فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ. وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ. وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»(١).

ب- عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ"(٢).

جـ- قال رسول الله ﷺ: «بُعثتُ إلى الأسود والأحمر»(٣).

وقال مجاهد في شرح هذا الحديث: يعني الجن والإنس. وقال غيره: يعني العرب والعجم(٤).

رابعاً: وردت نصوص القرآن تشير إلى أنَّ كل رسول بعث إلى قومه خاصة ومنها:

١- قال الله عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(٥)،

---

(١) حديث متفق عليه.

(٢) حديث متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٥٠٦/٦.

(٥) سورة هود آية ٢٥.

٢- قال الله تعالى عن صالح: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾[1].

٣- قال الله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾[2].

٤- قال الله تعالى عن لوط: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[3].

٥- قال الله تعالى عن هود: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾[4].

٦- قال الله تعالى عن شعيب: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾[5].

٧- قال الله تعالى عن الرسل الذين لم يذكر أسماءهم عقب الحديث عن نوح عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ، ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾[6].

٨- قال تعالى عن الذين أرسل إليهم موسى ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ. وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ. وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ. قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ. فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[7].

---

(١) سورة هود آية ٦١.
(٢) سورة الشعراء الآيتان ٦٩، ٧٠.
(٣) سورة الشعراء الآيتان ١٦٠، ١٦١.
(٤) سورة الأحقاف آية ٢١.
(٥) سورة هود آية ٨٤.
(٦) سورة يونس الآيتان ٧٣، ٧٤.
(٧) سورة الشعراء الآيات ١٠-١٦.

و قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [1].

٩- قال تعالى عن عيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ. وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [2].

فهذه النصوص وغيرها تدل على أن جميع الرسل رسالاتهم خاصة، لأقوامهم وليست عامةً لشعوب البسيطة، إلاَّ الرسول محمد ﷺ فرسالته عامة ودينه لشعوب الكرة الأرضية، ودينه هو دين الله ﷻ، من أجل ذلك كان ديناً عالمياً...

- **درء شبهة:**

وردت نصوص تشير إلى أن رسول الله أرسل إلى عشيرته وإلى مكة:

١- قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[3].

٢- قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[4].

الجواب عن ذلك.

أن الآيات هذه تحدثت عن بدء الدعوة وكيف؟ يبدأ وبمن يبدأ؟ فكان طبيعياً أن يبدأ بالأقارب لأنهم جناحه الذى بهم يطير، وهم حصنه، وبينه وبينهم آصرة الدم، فهم يصدِّقونه وإن شذَّ عنهم أبو لهب.

وينذر مكة فهى بلده، وتتسع دائرة الإنذار حولها حتى تعم العالم كله، فهى مركز دائرة الكرة الأرضية، وتبقى الآيات التى تدل على عالمية الإسلام دون أن تهُبَّ عليها عاصفة شك فى عالميته.

---

(١) سورة يونس آية ٨٤.

(٢) سورة آل عمران: الايتان ٤٨، ٤٩.

(٣) سورة الشعراء آية ٢١٤.

(٤) سورة الشورى آية ٧.

معالم العظمة والخلود فى الحرية الدينية فى الإسلام

الإسلام دين يحترم المشاعر الإنسانية، ويحافظ على الأحاسيس البشرية، ويحترم إرادة الإنسان، ويترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال والاعتقاد؛ لأنه يتحمَّل تبعة عمله وحساب نفسه، ولقد جعل الإسلام هذه الحرية الدينية أول حقوق الإنسان التى يثبت له بها وصف إنسان، فالذى يسلبه هذه الحرية إنما يسلبه إنسانيته ابتداءً، فالإسلام أرقى تصور للوجود والحياة، وهو أقوم منهج للإنسانية ينادى بمبادئه التى أرساها وأسسها وهى:

١- قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[١]

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية: (لا تُكْرهوا أحداً على الدخول فى دين الإسلام، فإنَّه بيِّن واضح جلى دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكْره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوَّر بصيرته دخل فيه على بيِّنة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنَّه لا يفيده الدخول فى الدين مكرهاً مقسوراً [٢])[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[٥].

٤- قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾[٦].

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦.

(٢) مقسورا: مجبراً مكرهاً.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٥٩/١.

(٤) سورة الكهف آية ٢٩.

(٥) سورة يونس آية ٩٩.

(٦) سورة الشعراء آية ٣، ٤.

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[1].

هذه هى مبادئ الإسلام فى الحرية الدينية، لا يُكْرَه أحدٌ على اعتناق الإسلام، والإنسان مردُّه إلى إرادته، فمن أراد الإيمان فليؤمن، ومن أراد الكفر فليكفر، ووصل الأمر إلى حدِّ العتاب اللطيف لرسول الله ﷺ حين حرص على إسلام النَّاس، وكاد يقتل نفسه من الحزن عليهم، فقال له: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ فالرسول ﷺ والمسلمون ممنوعون من إكراه النَّاس على الإسلام.

- **سمة الدعوة الإسلامية:**

دعوة الإسلام دعوة رقيقة تنطوى على إبراز الحجة، وتهدف إلى إقناع المخالفين لها بذوق حسن لطيف، وقد وضع الله للدعاة منهجاً وإطاراً لا يخرجون عنه ولا يتجاوزون حدوده، وهذا المنهج يتمثل فى هذه المبادئ:

١- قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2].

٢- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[3].

٣- قال تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[4].

---

(١) سورة الأنعام آية ١٠٧.

(٢) سورة النحل آية ١٢٥.

(٣) سورة فصلت الآيتان ٣٣، ٣٤.

(٤) سورة العنكبوت آية ٤٦.

٤- قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[١].

هذه هى المبادئ الإسلامية فى الدعوة إلى الله، فهى خالية من العنف والشدة، مقرونة باللين والرقة، معبوقة بأريج الإسلام، متميزة عن غيرها فى مجال الأديان، فالذى يخاصم أهل هذه العقيدة ينبرى له الدعاة فى أدب جم، خال من السب، فإن لم يقتنع فله دينه وللدعاة دينهم، والانصراف بسلام، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ. وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[٢].

- **دحض فرية انتشار الإسلام بالسيف**

مما سبق يتضح لكل ذي عقل أن الإسلام لا يتعامل بالسلاح ولا بالقوة ولا بالشدة، ولم يكن الرسول ﷺ محباً لسفك الدماء، ولم تكن له رغبة فى قتال، لأن هذا يتنافى مع المبادئ التى أمره الله بها، ويتنافى مع سلوكه الذى طبعه الله عليه وأمره به ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٤].

وهذا هو الأصل فى الإسلام، فإن اعتُدِىَ على المسلمين، وسفك المعتدى دماءهم، واستباح أرضهم، وهتك أعراضهم، وعبث باقتصادهم، كان الردُّ طبيعياً، وهو الحق فى سائر الأديان، ولم يأمر دين بالذلة والخنوع، من أجل هذا أمر الله بالقتال مقنَّناً وليس عشوائياً ولا تابعاً للأهواء، بل شرعه مضبوطاً بضوابط لا يخرج عنها وهى:

(١) سورة الأنعام آية ١٠٨.
(٢) سورة الكافرون.
(٣) سورة آل عمران آية ١٥٩.
(٤) سورة الأعراف آية ١٩٩.

١– أن يكون رداً على عدوان ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾(١). وهذه الآية هى أول ما نزل فى أمر الجهاد، وبعد أن أمر الله به نبه النبى إلى أن قتاله هذا دفاع عن النفس.

٢– أن يكون القتال عندما ينقض العدو العهد قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ. أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(٢).

٣– أن يكون القتال وأداً لخيانة يدبرها العدو، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾(٣).

٤– أن يكون القتال وأداً لفتنة ينسج خيوطها العدو، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(٤).

٥– وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(٥) وهذا الأمر حين انقلب جميع مشركى الجزيرة العربية على المسلمين.

أيها المفكرون على البسيطة:

هل بعد هذه الضوابط التى قعَّدها الإسلام ريب وشك فى أن الإسلام يستبيح الدماء؟ وهل الإسلام دين إرهاب؟!!

(١) سورة الحج آية ٣٩.
(٢) سورة التوبة آية ١٢، ١٣.
(٣) سورة الأنفال آية ٥٨.
(٤) سورة البقرة آية ١٩٣.
(٥) سورة التوبة آية ٣٦.

الجواب: إن القارئ أو السامع أو المفكر المنصف الذى ينظر بعين العدل بعيداً عن التعصب الأعمى يقول الحق.

فلقد شرع الله الجهاد والقتال مضبوطاً بضوابط لا يتجاوز حدودها مسلم، وليس هذا فحسب بل هناك تحذير من الاعتداء، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١).

وهناك نهى عن مجاوزة الحد عند الاعتداء، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ﴾ (٢).

فهذا أمر بالقتال مقرون بعدم الاعتداء وبعدم مجاوزة الحد عند رد الاعتداء، بل أمر بالصبر ففيه الخير. أفى هذا إرهاب أيها البشر؟ بل هناك أمر يسمو بالإسلام سمواً على سُمُوِّه وهو أنه إن استجار كافر بمسلم فيجب أن يجيره لأنه مظلوم، وهنا لم ينظر الإسلام إليه على أنه مخالف لدين الإسلام، بل من تعاليمه أن يجيره وأن يحميه حتى يُبْلِغَهُ مأمنه، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾(٣).

أنحن بهذا أمة إرهابية؟!!!

- **معنى آية وحديث وتحرير الخلاف حولهما:**

وردت آية سماها العلماء: «آية السيف» وهى قوله تعالى:

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤).

(١) سورة البقرة آية ١٩٠.
(٢) سورة النحل آية ١٢٦، ١٢٧.
(٣) سورة التوبة آية ٦.
(٤) سورة التوبة آية ٥.

كلما قرأت آية كالآيات التي فيها الحرية الدينية يقول العلماء هي منسوخة بآية السيف[1]، وكأن هناك كثيراً من الآيات معطلة والحق أنه لا إكراه في الدين وليست هذه الآية وأشباهها منسوخة.

ولقد ساق الفخر الرازى بعض التفسيرات فى معنى ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّين﴾ قال: (في تأويل الآية وجوه أحدها: وهو قول أبي مسلم والقفال وهو الأليق بأصول المعتزلة: معناه أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر، وإنما بناه على التمكن والاختيار، ثم احتج القفال على أن هذا هو المراد بأنه تعالى لما بين دلائل التوحيد بيانا شافياً قاطعاً للعذر، قال بعد ذلك: إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر في الإقامة على الكفر إلا أن يُقْسَر على الإيمان ويُجبر عليه، وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء، إذ في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ وقال في سورة أخرى ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ وقال في سورة الشعراء ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ ومما يؤكد هذا القول أنه تعالى قال بعد هذه الآية- ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّين. قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ يعني ظهرت الدلائل، ووضحت البينات، ولم يبق بعدها إلا طريق القسر والإلجاء والإكراه، وذلك غير جائز لأنه ينافي التكليف فهذا تقرير هذا التأويل.

القول الثاني في التأويل: هو أن الإكراه أن يقول المسلم للكافر: إن آمنتَ وإلا قتلتُك فقال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّين﴾.

والقول الثالث: لا تقولوا لمن دخل في الدين بعد الحرب: إنه دخل مكرهاً،

(١) سورة التوبة آية ٣٦.

لأنه إذا رضي بعد الحرب وصح إسلامه فليس بمكره، ومعناه لا تنسبوهم إلى الإكراه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾[1])[2].

- **حكم قتال المخالفين لدين الإسلام:**

المخالفون للإسلام نوعان:

الأول: من اعتدى على المسلمين فقتالهم فرض عين على كل مسلم، وكل من خان المسلمين، وكل من نكث عهده، وكل من أوقعهم فى الفتن وجب قتالهم، وكل من بشّر بدين فى أرض الإسلام، وجب قتاله، وكل مَنْ تعرَّض للرسول ﷺ بالإيذاء فهو مهدر الدم، لأن أسباب الجهاد وجبت، ولا ننظر إلى آيات الحرية الدينية ونترك الجهاد، فهذا يكون مخالفاً لتعاليم الإسلام، وفيه إثم، فمن أراد من المفكرين والكتاب أن يُخمد فى حس المسلمين روح الجهاد، ويعتمد على آيات الحرية الدينية فهو ماكر ومعول هدم للأمة سينتقم الله منه فى الدنيا والآخرة، وما أجمل ما قاله الرسول ﷺ فيما رواه أنس بن مالك: «ثَلاَثٌ مِنْ أَصْلِ الإِيمَانِ: الكَفُّ عمَّنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَلاَ تُكَفِّرْهُ بِذَنْبٍ وَلاَ تُخْرِجْهُ مِنَ الإِسْلاَمِ بِعَمَلٍ، وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي الله إِلَى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَّالَ لاَ يُبْطِلُه جَوْرُ جَائِرٍ وَلاَ عَدْلُ عَادِلٍ، وَالإِيمَانُ بِالأَقْدَارِ»[3].

النوع الثانى: نوع لا يقاتل المسلمين ولا يدخلون أرضهم ولا يؤذونهم ويعايشونهم فى سلام، وأمِنَ المسلميون غدرهم فهؤلاء يؤدون الجزية ويظلون على دينهم، قال تعالى: ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا

---

(١) سورة النساء آية ٩٤

(٢) مفاتيح الغيب جـ٣ ص٥٥٠. ط دار الغد العربى.

(٣) روا أبو داود.

حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1].

آراء العلماء فيمن تؤخذ منهم الجزية:

(١- ذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه: إلى أنه لا تؤخذ الجزية إلاَّ من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس لما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هَجَر.

٢- وقال أبو حنيفة – رحمه الله–: بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب.

٣- وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابيٍّ ومجوسيٍّ ووثنيٍّ وغير ذلك)[2].

هل بعد هذا يكون الإسلام دين إرهاب؟

لقد علَّم الرسول ﷺ الأمة أمراً نفسياً، وهو أن لا يتمنى أحد لقاء العدو، فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإذا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا»[3]، وحذرنا الإسلام من الاعتداء على الآخرين. وأمر أبو بكر قائدَ جيش كان قد وجَّهه إلى الشام فقال له: «وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبياً، ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجرا مثمراً، ولا نخلاً ولا تحرقها، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة ولا بقرة إلا لمأكلة، ولا تجبنن، ولا تغلل»[4].

هذا ما أمرنا به ديننا، وصرنا أمة ضعيفة، ومع هذا مزقنا الاستعمار

---

(١) سورة التوبة آية ٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٧٥/٤ بتصريف.

(٣) حديث متفق عليه.

(٤) موطأ الإمام مالك.

الأوربى، وقسّم بلاد الإسلام ومزقها، وقسم العالم الإسلامى ونهب ثرواته، واستعبد شعوبه، وعاد مرة أخرى بصورة شديدة بعد أن زرع إسرائيل فى قلب أمتنا، وعاثت فى الأرض فساداً، وامتلكت أحدث الأسلحة النووية لإذلال الشعوب العربية، وعاد الاستعمار الأمريكى إلى هذه الأمة، واحتل منابع بترولها، وضرب العراق وأفغانستان، فأمريكا تبيد شعب أفغانستان والعراق، وإسرائيل تمسح فلسطين، وتهلك شعبها، وتستبيح مقدّساتها، وتهدم البيوت، وتهلك أشجار الزيتون، وعلى مسمع من العالم كلّه.

وأبواق الإعلام فى أوربا وأمريكا يرددون كذبة أن الإسلام دين إرهاب، وأن المسلمين إرهابيون، ووصل الأمر بالتطاول على رسول الله ﷺ، فمن هو الإرهابى؟

معالم العظمة فى غزوات الرسول ﷺ

السرايا والغزوات

السرية: قطعة من الجيش ما بين خمسة أنفس إلى ثلاثمائة، أو هى من الخيل نحو أربعمائة والجمع سرايا(١).

والغزوة: من غزا العدوَّ غزواً، سار إلى قتاله فهو غازٍ، والغزوة المرَّة من الغزو(٢).

وهناك تعريف آخر، وهو أن السرية هى القطعة من الجيش والتى لم يخرج فيها الرسول ﷺ بل أرسل جنودها.

والغزوة: هى التى قادها الرسول ﷺ.

- **الهدف من السرايا والغزوات:**

هذه السرايا والغزوات كانت فى إطار مبادئ الإسلام، وهى إمَّا لرد عدوان

---

(١) المعجم الوجيز ص٣١٠.

(٢) المرجع السابق ص٤٥٠.

وإمَّا لنقض عدوه العهد، وإما لتعطيل حركة دعوته وصدّه عن تبليغها، وإما لردِّ حقٍّ مسلوب له كما في غزوة بدر.

وكان في إطار عدم الاعتداء على الآخرين، دون مسوغ لهذا الاعتداء.

السرايا التي بعثها الرسول ﷺ قبل غزوة بدر الكبرى

سرية حمزة إلى سيف البحر:

كانت أول سرية في شهر رمضان من السنة الأولى من الهجرة، وكانت بقيادة حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وأرسلها الرسول ﷺ لتعترض عيراً لقريش آتية من الشام بقيادة أبي جهل، وكان عدد السرية ثلاثين راكبا من المهاجرين، وليس فيهم من الأنصار أحد، وكان عدد قافلة قريش ثلاثمائة راكب من أهل مكة، بيد أنَّ مجديَّ بن عمرو الجهني حال بينهم وبين أفراد السرية، فلقد كان موادعاً للفريقين، فلم يقع بينهم قتال، وهذه السرعة تسمى «سرية حمزة إلى سيف البحر»[1].

سرية عبيدة بن الحارث:

لقد وردت روايتان، رواية بأن أول سرية هي سرية حمزة، وقيل: إنها سرية عبيدة بن الحارث، وسرية عبيدة بن الحارث كانت بقيادته، وكان في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين، ليس فيهم أحد من الأنصار، فسار بهم حتى بلغ ماءً بالحجاز بأسفل ثنيَّة المرة، فلقي جمعاً عظيماً من قريش، فلم يكن بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمي يومئذ بسهم، فكان أول سهم رمي به في الإسلام، ثم انصرف القوم عن القوم.

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٢٠ بتصريف.

وفر من صفوف المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهراني، وعتبة بن غزوان، وكانا مسلمين، ولكنهما خرجا ليتوصّلا بالكفار إلى المسلمين، وكان على القوم المشركين عكرمة ابن أبي جهل، وقيل: مكرز بن حفص[1].

سرية سعد بن أبي وقاص:

بعث الرسول ﷺ سعد بن أبى وقاص إلى الخرّار من أرض الحجاز فى ثمانية رهط من المهاجرين، ثم رجع ولم يلق حرباً[2].

سرية عبد الله بن جحش:

قال ابن إسحاق: وبعث رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش فى ثمانية من المهاجرين، وكتب له كتابا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدا، فلما سار عبدالله بن جحش يومين فتح الكتاب، فنظر فيه فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة، بين مكة والطائف، فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم، فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب، قال: سمعا وطاعة ؛ ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة، أرصد بها قريشا، حتى آتيه منهم بخبر ؛ وقد نهاني أن أستكره أحدا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع ؛ فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلف عنه منهم أحد، وسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمعدن، فوق الفرع، يقال له: بحران، أضل سعد ابن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بعيرا لهما، كانا يعتقبانه، فتخلفا عليه في طلبه. ومضى عبدالله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل

---

(١) سيرة ابن هشام ١٨/٣.

(٢) المرجع السابق ص٢٢.

بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً، وتجارة من تجارة قريش، فيهما عمرو بن الحضرمي.

فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبا منهم، فأشرف لهم عكّاشة بن محصن، وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا، وتشاور عبد الله وأصحابه، وكان ذلك في آخر يوم من رجب، فقال بعضهم لبعض: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعُنَّ منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلُنَّهُم في الشهر الحرام ؛ فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل مَنْ قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبدالله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأسروا عثمان بن عبدالله، والحكم بن كيسان ؛ وأفلت نوفلُ بن عبدالله فأعجزهم.

وأقبل عبدالله ابن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة. فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فوقّف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا ؛

وشنعت قريش بذلك فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

- **الهدف من بعث السرايا:**

١- إشعار قريش بقوة المسلمين فيخفف ذلك من عداوتها لهم وترفع يدها عن المسلمين الباقين فى مكة.

٢- السرايا تجربة وتمهيد لدخول المعارك مع قريش وغيرها.

٣- إرسال رسائل إلى القبائل العربية وإخبارها بالقوة الجديدة فى المدينة، فتعمل حسابها وتقيم المعاهدات معها.

٤- بثّ الرعب فى أفئدة اليهود المجاورين للمسلمين حتى يلتزموا بعهودهم، ومع هذا نقضوا عهودهم.

٥- رفع الروح المعنوية للمسلمين وتعويدهم الجرأة على أعدائهم فلا يهابونهم أبداً.

- **الغزوات التي سبقت بدراً الكبرى:**

غزوة «بواط»:

غزا رسول الله ﷺ يريد قريشاً بعيداً عن مكة، واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون، وخرج حتى بلغ بواط من ناحية رضوى ثم رجع إلى المدينة ولم يلق قتالاً، وهناك غزوات أخرى، وهى:

«غزوة العشيرة» و«غزوة ودان» و«غزوة سفوان» أو بدر الأولى.

معالم العظمة والخلود فى غزوة بدر الكبرى

سبب الغزوة:

لقد سبق أن بينا قبل ذلك أن الله وضع للمسلمين مبادئ وأطُراً للقتال لا يخرجون عنها ولا يتجاوزونها، ومن المسوِّغ لخروج الرسول ﷺ من هذه المبادئ ردُّ الحق للمسلمين، والذى سلبه المشركون فى مكة فلقد أجبروا المسلمين على ترك ديارهم وأموالهم وأولادهم، وألجأوهم إلى الهجرة إلى المدينة، وعن هذا الحق قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾[١].

فقريش سلبت حق المسلمين وهم فى قتال من جانبهم للمسلمين، كما أخبر بذلك الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ

(١) سورة البقرة آية ٢١٧.

اسْتَطَاعُواْ﴾ ، فخرج الرسول ﷺ للاستيلاء على عير لقريش كان على رأسها أبو سفيان بن حرب قادمة من الشام.

يروى ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس: (لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلا من الشام، ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله يُنْفِلُكُموها، فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسَّس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفا على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك[1].

- **أبو سفيان يستنفر قريشاً:-**

لما علم أبو سفيان بخروج الرسول ﷺ قرر أمرين:

الأول: استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يستنفر قريشاً، لتخليص عيرهم، ويخبرهم بأن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة.

الثاني: عرف أبو سفيان بخروج المسلمين، فضرب وجه عيره عن الطريق فساحل بها وترك بدراً بيسار وسلك طريقاً أخرى.

- **رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب قبل مجيء ضمضم:-**

في رواية لابن إسحاق بسنده عن عروة بن الزبير: رأت عاتكة بنت عبدالمطلب عمَّةُ رسول الله ﷺ، قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال، رؤيا أفزعتها، فبعث إلى أخيها العباس بن عبدالمطلب فقالت له: يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم عني ما

(١) سيرة ابن هشام ٣٠/٣.

أحدثك به ؛ فقال لها: وما رأيت ؟ قالت: رأيت راكبا أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آلَ غُدر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مَثَل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غُدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها. فأقبلت تهوي، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت -أي: تكسرت-، فما بقي بيت من بيوت مكة، ولا دار إلا دخلتها منها فلقة ؛ قال العباس: والله إن هذه لرؤيا، وأنت فاكتميها، ولا تذكريها لأحد)[1].

ودار حوار بين العباس وبين أصدقائه فعلم أبو جهل بالرؤيا، واستهزأ بها وفي اليوم الثالث من رؤيا عاتكة أتى ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره، قد جدع بعيره، وحوّل رحله، وشق قميصه، وهو يقول:

يا معشر قريش، اللطيمةَ اللطيمةَ - أى العير-، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوثَ الغوثَ [2].

- **نفرةُ قريش لقتال الرسول ﷺ والمسلمين:**

تجهز الناس سراعا، قائلين: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟ كلا والله ليعلَمَنَّ غير ذلك، فكانوا بين رجلين، إما خارج وإما باعث مكانه رجلا، وأوعبتْ قريش، فلم يتخلف من أشرافها أحد[3]، وكان عددهم تسعمائة وخمسين رجلاً، معهم سبعمائة بعير ومائة فرس.

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق ص٣١.
(٣) المرجع السابق.

- **الاستهزاء بالقاعدين عن الخروج:-**

خرجت قريش عن بكرة أبيها، ومَن عزم على القعود سخروا منه، فأمية ابن خلف كان أجمع القعود، وكان شيخا جليلا جسيما ثقيلا، فأتاه عقبة بن أبي معيط، وهو جالس في المسجد بين ظهراني قومه بمجمرة يحملها، فيها نار ومجمر، حتى وضعها بين يديه، ثم قال: يا أبا علي استجمر، فإنما أنت من النساء ؛ قال: قبحك الله وقبح ما جئت به، قال: ثم تجهز فخرج مع الناس[1]. رغم أنه عَلِم من سعد بن معاذ وكان صديقاً له أن الرسول ﷺ سيقتله.

فعن عبد الله بن مسعود عن سعد بن معاذ «أنه كان صديقا لأمية بن خلف، فكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمراً فنزل على أمية بمكة، فقال لأميَّة: انظر لي ساعة خلوة لعلِّي أن أطوف بالبيت، قال: فخرج به قريبا من نصف النهار، قال: فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصُّباة – المسلمين–، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما، فقال له سعد، ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة، فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيد أهل الوادي، فقال سعد: دعنا منك يا أمية، فوالله لقد سمعت الرسول ﷺ يقول: إنه قاتل، قال أمية: بمكة؟ قال سعد: لا أدري.

ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً، فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان، ألم تَرَي ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنه قاتلي، فقلت له: بمكة، قال لا أدري، فقال أمية: والله لا أخرج من مكة[2].

---

(١) المرجع السابق.
(٢) دلائل النبوة.

وهذا كان سبب تردد أمية في الخروج إلى بدر، فأجبره عقبة بن أبي معيط وأبو جهل بالاستهزاء به حتى خرج وشهد المعركة، وقُتل هو وابنه على يد بلال بن رباح.

- **خروج الرسول ﷺ لملاقاة العير:**

قال ابن إسحاق: وخرج رسول الله ﷺ في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه – قال ابن هشام: خرج يوم الاثنين لثمان ليال خلون من شهر رمضان واستعمل عمرو بن أم مكتوم، ويقال: اسمه عبد الله بن أم مكتوم، على الصلاة بالناس، ثم رد أبا لبابة من الروحاء، واستعمله على المدينة[1].

- **تواضع الرسول ﷺ :-**

قال ابن إسحاق: وكانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ سبعين بعيرا، فاعتقبوها، فكان رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيرا[2]،

فكان إذا كانت عقبة رسول الله ﷺ – أي: في المشي – يقولان له: اركب حتى نمشي، فيقول: إني لست بأغنى عن الأجر منكما، ولا أنتما بأقوى على المشي مني[3].

- **عدد المسلمين:**

في رواية لأبي أيوب الأنصاري: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: هل لكم أن نخرج فنلقى هذه العير لعلّ الله يُغنمنا؟ قلنا: نعم، فخرجنا فلما سرنا يوماً

(١) سيرة ابن هشام ٣/٣٢.
(٢) المرجع السابق.
(٣) دلائل النبوة.

أو يومين أمرنا رسول الله ﷺ أن نتعادَّ، ففعلنا فإذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فأخبرنا النبيَّ ﷺ بعدتنا فسُرَّ بذلك وحمد الله، وقال: عدة أصحاب طالوت[1].

ولقد سبق عدد الإبل فى رواية ابن إسحاق، أمَّا عدد الأفراس فعن ابن عباس «أن عليَّ بن أبى طالب ﷺ قال له: ما كان معنا إلاَّ فرسان: فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود، يعنى يوم بدر»[2].

- **طريق الرسول ﷺ إلى بدر:**

فصل الرسول ﷺ من المدينة من بيوت السُّقيا، وعدَّ المسلمين الذين خرجوا معه عند بئر أبى عنبة، ومَرَّ بتُرْبان، ومر بعرق الظبية، ونزل سَجْسج وهى بئر الرَّوحاء ثم ارتحل منها، حتى إذا كان بالمنصرف ترك طريق مكة بيسار وسلك ذات اليمين على النازية يريد بدراً، ثم انصب منه إلى الصفراء[3]، وسلك ذات اليمين على وادٍ يقال له: ذفران، فجزع[4] فيه ثم نزل، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار النَّاس.

- **الرسول ﷺ يحقق مبدأ الشورى:**

أصبح الأمر على خلاف ما أراده الرسول ﷺ والمسلمون، فلقد خرجوا من أجل العير والعير قد أفلتت من أيديهم، وسلك أبو سفيان طريقاً آخر غير الطريق الذى مكث فيه المسلمون للقائه، وخرجت قريش لقتالهم، وعرف أصحاب رسول الله ﷺ بالأمر، ورأى الرسول ﷺ مسئولية الموقف على وجوههم، فهم بعيدون عن المدينة، وعدتهم محدودة، وإبلهم قليلة، والأفراس معهم نادرة، ومما زاد حَيْرتهم

---

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.
(٣) سبل الهدى والرشاد فى سير خير العباد ٢٥/٤.
(٤) جزع فيه: قطعه عرضاً.

أنهم خرجوا للعير ولم يخرجوا للحرب والنفير. وقريش قد خرجت بقضّها وقضيضها، وإنْ هم فكروا فى الرجوع إلى المدينة فإن قريشاً ستتعقبهم وتدخل عليهم المدينة، فَفُرض عليهم القتال فرضاً، وهذا اختيار الله، وبالقدرة سيغيّر الحسابات عند الفريقين.

وصف الله هذا الموقف بقوله ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ. وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ. لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١).

لما أتت الأقدار بما لا يشتهيه المسلمون، ورأى الرسول وجوه المسلمين تتحدث بما فى نفوسهم.

(روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى أيوب قال: لما سرنا يوما أو يومين قال لنا رسول الله ﷺ: ما ترون في القوم، فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟ فقلنا لا والله مالنا طاقة بقتال العدو، ولكن أردنا العير. ثم قال ما ترون في قتال القوم، فقلنا مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾)(٢).

بعدها قال الرسول ﷺ: (أشيروا علىَّ أيها النَّاس).

- **رأى المهاجرين:**

قام أبو بكر الصديق: فقال وأحسن القول، وقام عمر بن الخطاب فقال وأحسن المقال، وقام المقداد بن عمرو فقال وأحسن وبالغ معبراً عن عظم الإيمان فى قلبه فقال:

---

(١) سورة الأنفال آية ٥ – ٨.

(٢) سبل الهدى و الرشاد ٢٧/٤.

« يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه.

فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له [1].

- **رأي الأنصار:**

«ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا علي أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ:

والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال: أجل ؛ قال:

لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعلَّ الله يريك منَّا ما تقرُّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشَّطه ذلك ؛ ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم.

ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران، فسلك على ثنايا يقال لها: الأصافر، ثم

(١) سيرة ابن هشام ٣٣/٣.

انصبَّ منها إلى بلد يقال له: الدُّبَّة، وترك الحنَّان بيمين وهو كثيب عظيم كالجبل العظيم ؛ ثم نزل قريبا من بدر[١].

- **<u>أبو سفيان يطلب من قريش الرجوع:-</u>**

رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، فأرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرا [٢]- وكان بدر موسماً من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثا، فننحر الجُزُر، ونَطْعَم الطعام، ونُسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا [٣].

- **<u>أصوات تنتقد أبا جهل وتخالفه وتأبى قتال المسلمين:</u>**

أَبَى الأخنس بن شريق، وكان حليفا لبني زهرة وهم بالجحفة قائلاً: يا بني زُهرة، قد نجّى الله لكم أموالكم، وخلّص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا لي جُبْنها وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة، لا ما يقول هذا - يعني أبا جهل- فرجعوا، فلم يشهد الأخنس وقومه بدراً.

ودار حوار بين طالب بن أبي طالب وبعض قريش حين قالوا لطالب: والله لقد عرفنا يا بني هاشم وإن خرجتم معنا أن هواكم لمع محمد، فرجع طالب إلى مكة مع من رجع[٤].

---

(١) المرجع السابق ص٣٤.

(٢) بدر: بئر سميت باسم من حفرها وهو رجل من جهينة وهو مكان بين مكة و المدينة وهو إلى المدينة أقرب.

(٣) سيرة ابن هشام ٣٥/٣.

(٤) المرجع السابق.

- **أمارات الموت والهزيمة لقريش في رؤيا جُهَيْم بن الصلت:**

لقد رأت عاتكة رؤيا وكانت صادقة، ورأى جهيم بن الصلت حين نزلت قريش الجحفة رأى رؤيا، قال: رأيت فيما يرى النائم، وإني لبين النائم واليقظان، إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف، ومعه بعير له ؛ ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وفلان وفلان، فعدد رجالا ممن قُتل يوم بدر من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب في لَبَّة بعيره، ثم أرسله في العسكر، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح من دمه.

فبلغت أبا جهل هذه الرؤيا، فسخر وقال: وهذا أيضا نبي آخر من بني المطلب، سيعلم غدا من المقتول إن نحن التقينا[١].

- **قريش تتخذ العُدْوَة القُصوَى موقعاً لها:**

مضت قريش في سيرها حتى نزلوا بالعدوة القصوى[٢] من الوادى خلف العقنقل.

- **الرسول القائد ينزل على رأى الحُباب بن المنذر**

نزل رسول الله ﷺ يبادر قريشاً إلى الماء حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر ونزل به، وتقدم إليه الحباب بن المنذر بن الجموح قائلاً: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأيُ والحرب والمكيدة؟

قال رسول الله ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) العدوة: هى جانب الوادى و للوادى عدوتان قصوى ودنيا ، فالقصوى هى التى نزلتها قريش و الدنيا وهى التى نزلها المسلمون.

فقال الحباب: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نُغَوِّر ما وراءه من القُلُب[1]، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون ؛

فأعلن الرسول احترامه لرأى الحباب وقال: لقد أشرت بالرأي.

فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغُوِّرَتْ، وبنى حوضاً على القَليب الذي نزل عليه، فمُلىء ماءً[2].

وهذا درس للقادة لاحترام آراء الرعية وسماع أقوالهم، والنزول على آرائهم الصائبة.

- **بناء العريش لرسول الله ﷺ**

قال ابن إسحاق: فحدثني عبدالله بن أبي بكر أنه حُدِّث: أن سعد بن معاذ قال: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشا تكون فيه، ونُعِدُّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير، ثم بُني لرسول الله ﷺ عريش، فكان فيه[3].

- **المسلمون يلتمسون خبر قريش:**

فى رواية لابن إسحاق: بعث رسول الله ﷺ: عليَّ بن أبى طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له،

---

(١) القُلُب: جمع قليب وهو البئر.

(٢) المرجع السابق ص٣٦.

(٣) المرجع السابق

فأصابوا راوية[1] لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج، وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد، فأتوا بهما فسألوهما، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما، فلما أذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه، ثم سلم، وقال: إذا صَدَقَاكُم ضربتموهما، وإذا كَذَبَاكُم تركتموهما، صَدَقَا والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش ؟

قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى - والكثيب: العقنقل - فقال لهما رسول الله ﷺ: كم القوم ؟

قالا: كثير ؛

قال: ما عدتهم ؟

قالا: لا ندري ؛

قال: كم ينحرون كل يوم ؟

قالا: يوما تسعا، ويوما عشرا ؛

فقال رسول الله ﷺ: القوم فيما بين التسعمائة والألف.

ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش ؟

قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد وغيرهم.

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس، فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها [2].

---

(١) الذين يأتون لهم بالماء.

(٢) المرجع السابق ص٣٤.

- **عمير بن وهب يلتمس خبر المسلمين، ويحذّر قومه من قتالهم:**

في رواية لابن إسحاق: لما نزلت قريش موقعها واطمأنوا بعثوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا: احزروا لنا – أي أحصوا– أصحاب محمد، قال: فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم،

فقال: ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد ؟

قال: فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئا، فرجع إليهم

فقال: ما وجدت شيئا، ولكن قد رأيت، يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح[1] يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقْتَلَ رجل منهم، حتى يَقْتُل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم[2].

- **تمرُّد داخلي في جيش قريش:**

لَمَّا سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟

قال: وما ذاك يا حكيم ؟

قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي ؛

قال: قد فعلت، أنت علي بذلك، إنما هو حليفي، فعلي عقله وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظلية –وهي أم أبي جهل–.

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل درعا له من جرابها،

---

(١) نواضح: جمع ناضح وهي الإبل التي تحمل الماء.

(٢) المرجع السابق ص٣٧.

فهو يهنئها. – قال ابن هشام: يهيئها –

فقلت له: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، للذي قال ؛

فقال: انتفخ والله سحره حين رأى محمدا وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه، فقد تخوفكم عليه.

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي، فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك، ومقتل أخيك.

فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرخ: واعَمْرَاه، واعمراه، فحميت الحرب، وحَقِب الناس، واستوسقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة.

فلما بلغ عتبةُ قولَ أبي جهل (انتفخ والله سحره) أنكره عليه[1]. ودخل كثير من قريش المعركة قهراً.

- **استعداد المسلمين للمعركة:**

أديرت المعركة بقدرة الله تعالى، ولا غرو فالمسلمون هم الذين يحملون دين الله، وهم الذين يطبقونه، وهم الذين يدافعون، فإن هُزموا كانوا أَكْلَةَ جزور كما قال بعض أعداء الله من المشركين، فالله ﷻ هو الذى حركهم وهو الذى ألهمهم فأديرت المعركة بقدرة الله وبوحيه إلى رسوله.

لقد أرسل الله السماء بالمطر على الوادى، فغيَّر الميدان لصالح المسلمين.

لقد بعث الله المطر فكان موقع المسلمين صالحاً لتقبُّل المطر، فلبَّد الأرض تحت أقدامهم، فلم يعقهم عن حركة السير، بينما كان وَبَالاً على أرض قريش، إذ كانت زلقاً فصعبت حركة السير على هذه الأرض.

---

(١) المرجع السابق.

ومن جهة أخرى أصبح بعض المسلمين في ليلة المعركة جُنُباً ونام المسلمون ليلة المعركة نوماً عميقاً، بينما أعداؤهم سهروا يشربون الخمور وتعزف عليهم القيان.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ (١).

ومن جهة أخرى أصبح المسلمون في موقعهم ظهورهم إلى الشمس والشمس في وجوه قريش، مما صعَّب القتال على المشركين.

- **الرسول ينظم الصفوف ويضرب المثل الأعلى في العدل:**

في رواية لابن إسحاق: إن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح يعدل به القوم، فمرَّ بسَوَّادِ بن غزية – قال ابن هشام: يقال: سوَّاد ؛ مثقلة – وهو مستنصِل من الصف، فطعن في بطنه بالقدح وقال: استو يا سوَّاد، فقال: يا رسول الله، أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل ؛

قال رسول الله ﷺ: فأقدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: استقد ؛ قال: فاعتنقه فقبل بطنه ؛ فقال: ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

- **دعاء الرسول ﷺ للمسلمين ودعاؤه على قريش:**

لقد دعا الرسول ﷺ للمسلمين حين خرج من المدينة وحصر عدد أصحابه فقال: « اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ حُفَاةٌ فاحْمِلْهُمْ، اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ عُرَاةٌ فَاكْسُهُمْ، اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ جِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُمْ، فَفَتَحَ الله لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ فَانْقَلَبُوا حِينَ انْقَلَبُوا وَمَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إلاَّ وَقَدْ رَجَعَ

---

(١) سورة الأنفال آية ١١.

بجَمَلٍ أوْ جَمَلَيْنِ، وَاكْتَسُوا وَشَبِعُوا»[١].

و دعا على المشركين حين رآهم «ينحطون من الكثيب قال: اللهم هذه قـريش قد أقبلت بخُيَلائها وفَخْرها تحادُّك وتكذِّب رسولك، اللهم فأَحِنْهم – أى أهلكهم – الغداة»[٢].

ودعا وألحَّ فى الدعاء يـوم بـدر، فعـن ابـن عبـاس – رضـى الله عنهمـا – أن الرسول ﷺ قال فى قُبَّته يوم بدر: «اللَّهُمَّ إنـي أنْشُـدُكَ عَهْـدَكَ وَوَعْـدَكَ، اللَّهُـمَّ إنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ اليَوْمِ، فأخذ أبو بكر رضي اللّه عنه بيده فقال: حَسْبُكَ يا رسول اللّه! فقد ألْحَحْتَ على ربِّك، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ »[٣].

- **بدء المعركة:**

بدأت المعركة فى اليوم السابع عشر من شهر رمضان مـن السـنة الثانيـة مـن الهجرة، وفى ميدان بدر وقف الحق والباطل وجهاً لوجـه، والتقـى الجمعـان فئـة قليلة سلاحها الإيمان بالله وفئة كثيرة العتاد تقاتل فى سبيل الشيطان وخطب رسول الله ﷺ فى النَّاس:

(فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمَّا بعد فإنى أحُثُّكم على مـا حـثكم الله ﷻ عليه، وأنهاكم عما نهاكم الله ﷻ عنه، فإن الله ﷻ عظيمٌ شأنُهُ يأمر بالحق ويحـب الصدق، ويعطى على الخير أهله على منازلهم عنده، به يُذكرون، وبـه يتفاضـلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق، لا يقبل الله فيه من أحد إلاَّ ما ابتُغى بـه وجهه، وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرِّج الله به الهمَّ، وينجِّـى بـه مـن الغـم،

(١) رواه أبو داود وأورده البيهقى فى دلائل النبوة.
(٢) دلائل النبوة.
(٣) رواه البخارى.

وتدركون به النجاة فى الآخرة، فيكم نبى الله يحذّركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطّلع الله ﷻ على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله ﷻ يقول: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، انظروا إلى الذى أمركم به من كتابه، وأراكم من آياته، وأعزكم بعد الذلة، فاستمسكوا به يرض به ربكم عنكم، وأبلوا ربكم فى هذه المواطن أمراً تستوجبوا الذى وعدكم به من رحمته ومغفرته، فإن وعد الله حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحيِّ القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا وعليه توكلنا، وإليه المصير، ويغفر الله لنا)[1].

يقول ابن إسحاق: وخرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلا شرسا سيئ الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربنَّ من حوضهم أو لأهدمنَّه أو لأموتنَّ دونه ؛ فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطَنَّ قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يبر يمينه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض[2].

ثم جرى الدم فى العروق وخرج وبدأت المبارزة.

- **دعاء عتبة إلى المبارزة:**

خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شَيْبَةَ بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، فدعا إلى المبارزة (فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة: وهم عوف ومُعَوِّذ ابنا الحارث وأمهما عفراء، ورجل آخر يقال: هو عبد الله بن رواحة ؛ فقالوا: - عتبة وابنه وأخوه- من أنتم ؟ فقالوا: رهط من الأنصار ؛ قالوا: ما لنا بكم من حاجة.
ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ؛ فقال رسول الله ﷺ: قم

---

(١) سبل الهدى و الرشاد ٣٤/٤.
(٢) سيرة ابن هشام ٣٧/٣، ٣٨.

يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا عليّ، فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم ؟ قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال عليّ: عليٌّ ؛ قالوا: نعم، أكفاء كرام.

فبارز عبيدةُ، وكان أسن القوم، عتبةَ بن ربيعة، وبارز حمزةُ شيبةَ بن ربيعة ؛ وبارز عليٌّ الوليدَ بن عتبة.

فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ؛ وأما عليّ فلم يمهل الوليد أن قتله؛ واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه- أى أصاب مقاتله- ؛ وكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذفقا عليه- أسرعا عليه فقتلاه- واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه[1].

- **نزول آية تصور هذه المبارزة:**

(عن عليٍ رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فى الذين تبارزوا يوم بدر: حمزة وعليّ وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، قال عليٌّ: أنا أول من يجثو للخصومة بين يدى الله عز وجل يوم القيامة، وروى البخارى عن عليٍ رضي الله عنه قال: فينا نزلت هذه الآية ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾)[2].

(قال أبو العالية: «ولما قتل هؤلاء ورجع هؤلاء قال أبو جهل وأصحابه: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، نادى منادى رسول الله ﷺ: الله مولانا ولا مولى لكم، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار» رواه ابن أبى حاتم)[3].

والتحم الفريقان، وقويت هِمَمُ المسلمين، وتحركت فى دمائهم روحٌ قويةٌ استمدوها من رسولهم الأعظم، وجعلت كل واحد يعدل عشرة رجال، قال الله تعالى:

---

(١) المرجع السابق ص٣٨.
(٢) سبل الهدى والرشاد ٣٦/٤.
(٣) المرجع السابق.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ (١).

بعد تحريض الرسول ﷺ للمسلمين احتدم القتال، وحمي الوطيس، وعلت صرخات الحرب، وطفقوا يهللون: أحَدٌ أحَدٌ، وقد كشفت أمامهم حجب الزمان والمكان، وأمدَّهم الله بالملائكة.

- **اشتراك الملائكة في الحرب:**

نزلت الملائكة ميدان بدر، قال الله ﷻ: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (٢).

فالآية تثبت أن الله أوحى إلى الملائكة بـأَنِّي مَعَكُمْ ، فالآية بيَّنت أن مهمة الملائكة تتمثل في أمرين:

الأول: تثبيت المسلمين المؤمنين، والله ﷻ من جانبه سيقذف في قلوب المشركين الرعب وهو شدة الخوف والاضطراب.

الثاني: أنهم أمِروا بضرب المشركين في هاماتهم، فهي فوق الأعناق، فَضَرْبُها قاتل، وأمروا بضرب الأصابع، فهي التي تحمل السيوف، و في هذا تعجيز لهم، والأمر بضرب الرءوس والبنان(٣) للملائكة؛ لأنهم المخاطبون عندما أوحى الله إليهم، وأخطأ من جعل أمْر الملائكة للتثبيت فقط، ولم تكن مهمتهم القتال؛ لأنه قد فصل اللحاق عن السباق، فالأمر الأول: ﴿فَثَبِّتُوا﴾ مرتبط بالأمر الثاني: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ . وهذا هو التفسير الصحيح، ومن جعل الأمر

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٥.

(٢) سورة الأنفال آية ١٢.

(٣) البنان: رءوس الأصابع وهو جمع واحدته بنانه.

الأول للملائكة، والأمر الثانى للمؤمنين، فقد فصل اللحاق عن السباق، ولم يكن هناك وحى للمؤمنين، بل الوحى بالأمرين للملائكة.

ومن أقام الأدلة المبنية على التَّكلُّف والمُخالفة للنصوص على أن الملائكة لم تقاتل فأدلته واهيةٌ بدليل النصوص التالية، وهى صريحة فى أمر الملائكة بالقتال، ومنها:

أولاً: قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (1).

فكانت هذه المقدمة للملائكة المقاتلين ثم تبعها مدد آخر. قال الله عنه ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ. بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(2).

فإذا لم تقاتل الملائكة فنزول هذا العدد عبث، والعبث على الله محال، ونزول الملائكة وتسميتها بالمدد يكون للقتال، لأن المدد لا يكون إلاَّ لقتال.

ثانياً: وردت نصوص تدل على قتال الملائكة ومباشرتهم للقتال مع تثبيت المؤمنين وهى:

١- عن ابن عباس قال: («بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ، وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِياً، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ

(١) سورة الأنفال آية ٩، ١٠.

(٢) سورة آل عمران آية ١٢٣ - ١٢٦.

أَنْفُهُ، وَشُقّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الأَنْصَارِيّ فَحَدّث بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: "صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ" فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ» رواه مسلم)(1).

٢- في رواية لابن إسحاق (عن ابن عباس عن رجل من بني غفار، قال: حضرت أنا وابن عم لي بدراً ونحن على شركنا فإنا لفي جبل ننتظر الوقعة على من تكون الدَّبْرَة (2) فننتهب فأقبلت سحابة، فلما دنت من الجبل سمعنا فيها حَمْحَمَةَ الخيل، وسمعنا فيها فارساً يقول: أقدم حيزوم ؛ فأما صاحبي فانكشف قناع قلبه، فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك، ثم انتعشت - يعني: تماسكت وأفقت - بعد ذلك)(3).

٣- في رواية لابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن بعض بني ساعدة (قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعد ما أصيب بصره يقول: لو كنتُ معكم ببدر الآن ومعي بصري لأخبرتكم بالشِّعْب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتماري)(4).

٤- في رواية عن عكرمة عن ابن عباس («أن النبي ﷺ قال يوم بدر: هذا جبريل آخذٌ رأس فرسه عليه أداة الحرب» رواه البخاري)(5).

٥- في رواية عن أبي أمامة بن سهل. قال: (قال لي أبي: يا بني لقد رأيتُنا يوم بدر وإن أحدنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه)(6).

---

(١) دلائل النبوة.

(٢) الدبرة: الهزيمة.

(٣) دلائل النبوة.

(٤) المرجع السابق.

(٥) دلائل النبوة.

(٦) المرجع السابق.

٦- فى رواية عن الربيع بن أنس (قال: كان النّاس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أُحرق به)[١].

٧- فى رواية عن مصعب بن عبد الله عن مولى لسهيل بن عمرو (قال: سمعتُ سهيل بن عمرو يقول: لقد رأيتُ يوم بدر رجالاً بيضاً على خيل بُلْق - أى: فيها سواد وبياض - بين السماء والأرض مُعَلَّمين يقتلون ويأسرون)[٢].

٨- وفى سبل الهدى والرشاد: روى الإمام أحمد وابن سعد وابن جرير عن ابن عباس عن علىٍّ - رضى الله عنهما -: (كان الذى أسر العباس أبو اليَسَر - بفتح الياء والسين - ، وكان رجلاً مجموعاً، وكان العباس رجلاً جسيماً فقال رسول الله ﷺ: يا أبا اليَسَر كيف أسرت العباس؟ قال: يا رسول الله لقد أعاننى عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده، هيئته كذا وكذا. فقال رسول الله ﷺ: لقد أعانك عليه ملك كريم).

٩- وروى ابن سعد وأبو الشيخ عن عطية بن قيس قال: (لما فرغ رسول الله ﷺ من قتال بدر جاء جبريل عليه السلام على فرس أنثى أحمر عليه درعه ومعه رمحه فقال: يا محمد إن الله بعثنى إليك وأمرنى ألاَّ أفارقك حتى ترضى، هل رضيت؟ قال: نعم رضيت، فانصرف).

ومن أراد المزيد من الأدلة فعليه بدلائل النبوة للبيهقى[٣].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) دلائل النبوة ٥١/٣ - ٥٨.

صور من البطولات في ميدان بدر

١- أول من لقي أبا جهل

في رواية لابن عباس: (قال معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني سلمة: سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحرجة -الشجر الملتف لا يوصل إليها - وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخْلَصُ إليه.

قال: فلما سمعتها جعلتُه من شأني، فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربتُه ضربة أطَنَّتْ - قطعت- قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يُضرب بها.

قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامَّة يومي، وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطَّيت بها عليها حتى طرحتها. قال ابن إسحاق: ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمان عثمان)[١].

ثم مر بأبي جهل وهو عقير، معوِّذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته، فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قتل، فمر عبدالله بن مسعود بأبي جهل، حين أمر رسول الله ﷺ أن يُلتمس في القتلى، وقد قال لهم رسول الله ﷺ انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته، فإني ازدحمت يوما أنا وهو على مأدبة لعبد الله بن جُدعان، ونحن غلامان، وكنت أشف منه-فُتُّه في السنِّ- بيسير، فدفعته فوقع على ركبتيه، فجحش -خدش- في إحداهما جحشاً لم يزل أثره به.

قال عبد الله بن مسعود: فوجدته بآخر رمق فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه، قال: وقد كان ضبث بي مرة بمكة فآذاني ولكزني، ثم قلت له: هل أخزاك

(١) سيرة ابن هشام ٤٢/٣.

الله يا عدو الله ؟ قال: وبماذا أخزاني؟ أعمد من رجل قتلتموه، أخبرني لمن الدائرة اليوم ؟ قال: قلت: لله ولرسوله.

قال ابن هشام: ضبث: قبض عليه ولزمه.

وقال ابن هشام: أعمد من رجل قتلتموه: أعار على رجل قتلتموه[1].

ولما وضع ابن مسعود رجله على عنقه قال له أبو جهل: لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رُوَيْعِيَ الغنم ؛ قال: ثم احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل ؛ قال: فقال رسول الله ﷺ: آللهِ الذي لا إله غيره – قال: وكانت يمين رسول الله ﷺ – قال: فقلت: نعم، والله الذي لا إله غيره، ثم ألقيتُ رأسه بين يدي رسول الله ﷺ فحمد الله[2].

٢- أبو عبيدة بن الجرّاح يقتل والده.

أخرج الطبراني والحاكم في المستدرك بلفظ: (جعل والد أبي عبيدة يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قَصَدَهُ أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3])[4].

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: حُدِّثت أن أبا قحافة سب النبي ﷺ ، فصكَّه أبو بكر صكَّةً فسقط، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: أفعلت يا أبا بكر؟ فقال:

---

(١) المرجع السابق

(٢) المرجع السابق

(٣) سورة المجادلة آية ٢٢.

(٤) أسباب النزول: لجلال الدين السيوطي ص١٩٣.

والله لو كان السيف مني قريبا لضربته، فنزلت: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[1] الآية.

ويحتمل أن يكون هذا من باب تكرار ما نزل.

٣- عمر بن الخطاب يقتل خاله:

ذكر ابن هشام (أن عمر بن الخطاب قال لسعيد بن العاص ومر به: إني أراك كأن في نفسك شيئاً، أراك تظن أني قتلت اباك، إني لو قتلته لم أعتذر اليك من قتله، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة، فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور بروْقه فحُدْتُ عنه، وقصد له ابن عمه عليٌّ فقتله)[2].

٤- معجزات في الميدان:

١- قال ابن إسحاق: وقاتل عُكَّاشة بن مُحصِنْ يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جِذْلاً[3] من حطب فقال: قاتِلْ بهذا يا عكاشة، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزَّه فعاد سيفا في يده طويل القامة شديد المتن أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى العون، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قُتل فى الردَّة وهو عنده قتله طليحة الأسدى.

قال ابن إسحاق: وعكاشة بن محصن الذي قال لرسول الله ﷺ حين قال رسول الله ﷺ: يدخل الجنة سبعون ألفا من أمتي على صورة القمر ليلة البدر، قال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم؛ قال: إنك منهم، أو اللهم اجعله منهم ؛ فقام رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم؛

(١) المرجع السابق

(٢) سيرة ابن هشام ٤٢/٣، ٤٣.

(٣) الجِذْل: أصلٌ من أصول الشجرة بعد ذهاب الفرع.

فقال: سبقك بها عكاشة وبردت الدعوة [1].

٢- روى البيهقى عن داود بن الحصين عن رجال من بنى عبد الأشهل عِدَّة. قالوا: انكسر سيفُ سلمة بن الحريش - بفتح الحاء وكسر الراء - يوم بدر، فبقى أعزلَ لا سلاح معه، فأعطاه رسول الله ﷺ قضيباً كان فى يده من عراجين نخل ابن طاب، فقال: اضربْ به فإذا هو سيفٌ جيِّدٌ فلم يزل عنده حتى قُتل يوم جسر أبى عبيدة.

٣- روى البيهقى عن ابن إسحاق قال: حدثنى خُبَيْب بن عبد الرحمن قال: ضُرب خبيب بن عَدِى يوم بدر، فمال شقُّه فتفل فيه رسول الله ﷺ ولأَمَهُ وردَّهُ فانطبق.

٤- روى البيهقى عن قتادة بن النعمان أنه أُصيبتْ عينه يوم بدر فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله ﷺ فقال: لا. فدعا به فغمز حدقته براحته، فكان لا يدرى أى عينيه أصيبت.

٥- روى البيهقى عن رفاعة بن رافع بن مالك قال: لما كان يوم بدر رُميتُ بسهم ففقئت عينى، فبصق فيها رسول الله ﷺ ودعا لى فما آذانى منها شىء.

٥- مواجهة بين حُرٍّ مسلم وسيِّد مشرك:

بلال بن رباح كان عبداً مملوكاً لأمية بن خلف، وأسلم ولم يرحم أمية العبد ولم يحترم إنسانيته، بل كان يخلع ثيابه عنه، ويلقيه على رمال مكة وقت الظهيرة، فكأن الرمال جمرٌ يشوى من وقف عليها، ويتمادى أمية فى وحشية فى تعذيب عبد مملوك لا يملك شيئاً إلاَّ أنه يقول: أحد أحد، والتقى العبد الذى صار حرًا فى ظل هذا الدين بسيِّده الذى أمعن فى تعذيبه إبَّان الرِّقِّ.

يقول عبد الرحمن بن عوف: كان أميَّة بن خلف لى صديقاً بمكة، وكان اسمى

---

(١) المرجع السابق ص٥٠.

عبد عمرو، فتسمّيتُ حين أسلمت عبد الرحمن، فكان يلقاني إذ نحن بمكة، فيقول: يا عبد عمرو أرغبْتَ عن اسم سماكه أبواك ؟ فأقول: نعم. فيقول: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعلْ بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أمّا أنت فلا تجيبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف، قال: فكان إذا دعاني: يا عبد عمرو لم أُجِبْه، قال: فقلت له: يا أبا عليّ، اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، قال: فقلت: نعم، قال: فكنت إذا مررت به، قال: يا عبد الإله فأجيبه، فأتحدث معه.

حتى إذا كان يوم بدر، مررتُ به وهو واقف مع ابنه عليٍّ بن أمية، آخذ بيده، ومعي أدراع قد استلبتُها فأنا أحملها، فلما رآني قال لي: يا عبد عمرو، فلم أُجِبْهُ، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، هل لك فِيَّ فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك، قال: قلت: نعم، ها الله ذا ! ، قال: فطرحتُ الأدراع من يدي، وأخذتُ بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيتُ كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟ قال: ثم خرجت أمشي بهما.

قال ابن هشام: يريد باللبن، أن من أسرني افتديتُ منه بإبل كثيرة اللبن.

وفي رواية لابن إسحاق: عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال لي أميَّةُ بن خلف، وأنا بينه وبين ابنه، آخذٌ بأيديهما: يا عبد الإله، من الرجل منكم المُعْلَم بريشة نعامة في صدره ؟ قال: قلت: ذاك حمزة بن عبدالمطلب ؛ قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

قال عبدالرحمن: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي – وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على ترك الإسلام، فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت، فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا أو تفارقَ دين محمد ، فيقول بلال: أحد أحد – قال: فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا.

قال عبد الرحمن بن عوف: قلت: أي بلال، أبأسيري؟ قال: لا نجوت إن نجا.

قال: قلت: أتسمع يا ابن السوداء، قال: لا نجوت إن نجا، قال: ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا.

قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المُسكة وأنا أذبُّ عنه، قال: فأخلف رجل السيف، فضرب رِجْلَ ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط، قال: فقلت: انج بنفسك، ولا نجاء بك فوالله ما أغني عنك شيئا، قال: فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما، قال: فكان عبدالرحمن يقول: يرحم الله بلالاً، ذهبت أدراعي وفجعني بأسيري[1].

٦- لما تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض، خرج رسول الله ﷺ إلى النَّاس فحرضهم فقال -كما رواه مسلم-: (لاَ يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ" فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ" قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ؟ قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: بَخٍ بَخٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ" قَالَ: لاَ. وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلاَّ رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ: "فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا" فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ. فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ. ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ. قَالَ فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ. ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ).

وذكر ابن جرير أن عميراً قاتل وهو يقول:

رَكْضاً إلى الله بِغَيْرِ زَادِ ... إلاَّ التُّقَى وَعَمَلَ المعَادِ
والصَّبرَ في الله على الجهادِ ... وكُلُّ زادٍ عُرضةُ النفادِ
غيرَ التُّقَى والبِرِّ والرَّشَادِ[2]

---

(١) المرجع السابق ص٤١.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٤٥/٤.

● **ماذا بعد المعركة:**

انجلت المعركة، ووضعت الحرب أوزارها، وفر كثير من المشركين، وتمخضت الهيجاء عن قتلى وأسرى:

● **قضية الأسرى:**

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (1).

قاتل المسلمون وأمعنوا فى قتل المشركين، ومنح المشركون أكتافهم للمسلمين، فقتلوهم وأسروا منهم فقتلوا منهم، نحواً من السبعين، وأسروا منهم نحو هذا العدد، وفى رواية أخرى للبيهقى أنه قُتل بضعة وأربعون رجلاً، وأُسر مثلُ ذلك العدد، ففى رواية عن ابن شهاب قال: (كان أول قتيل قُتل يوم بدر من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب. ورجل من الأنصار، فهزم يومئذٍ المشركون، وقتل منهم زيادة على سبعين، وأسر منهم مثل ذلك) وفى رواية عن ابن إسحاق قال: (واستشهد من المسلمين يوم بدر أحدَ عشر رجلاً، أربعة من قريش وسبعة من الأنصار، وقتل من المشركين بضعة وأربعون رجلاً، وقال فى موضع آخر من كتابه: ومع رسول الله ﷺ الأسارى من المشركين، وكانوا أربعة وأربعين أسيراً، والقتلى مثل ذلك)(2).

مشاورة الرسول أصحابه في الأسرى:

(لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: "ما تقولون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدِّمهم فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن

(1) سورة الأنفال آية ٦٧.

(2) الروايتان أخرجهما البيهقى فى دلائل النبوة.

رواحة: يا رسول الله أنت في واد كثير الحطب، فأضرم الوادي عليهم ناراً، ثم ألقهم فيه، قال: فقال العباس: قَطَعْتَ رحمك، قال فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، ثم قام فدخل،

فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر،

وقال ناس: يأخذ بقول عمر،

وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة،

ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: إن الله ليُلَيِّن قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة،

وإن مثلَك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام، قال ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام، قال ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام قال ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام قال ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أنتم عالة -أي: فقراء- فلا يَنْفَلِتَنَّ أحدٌ منهم إلا بفداء أو ضربة عنق، قال ابن مسعود: قلت: يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء، فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليَّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: إلا سهيل بن بيضاء، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾[1].

فالرسول ﷺ قَبِلَ الفداءَ لاحتياج المسلمين إليه لقوله لهم: «أنتم عالة». وهم أقرباء وذوو رحم، ولعلهم أن يُسْلِموا ويأتي من ظهورهم مَنْ يعبد الله ﷻ.

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٢/٤، ٣٣.

ويبدو من النصوص أن العتاب منصبٌ على اتخاذ الأسرى قبل الإثخان وفى الميدان لا ما بعد الأسر، فإن للأسير حرمته فى كلِّ الأديان وفى جميع الأعراف، وقبول الرسول ﷺ الفداء ليس فيه عتاب، بل العتاب على عدم قتل المشركين فى الميدان، وهذا رأى سعد بن معاذ ﷺ، ففى رواية ابن إسحاق ﷺ (فلما وضع القوم – يعنى المسلمين– أيديَهم يأسرون ورسول الله ﷺ في العريش وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله ﷺ متوشّحاً السيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ، يخافون عليه كَرَّة العدو، ورأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع النَّاس –من أسر المشركين– ، فقال له رسول الله ﷺ: والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ؛ قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحب إليَّ من استبقاء الرجال)[1].

فكانت الآية مؤيدة لرأى سعد بن معاذ، وليس فيها عتاب للرسول ﷺ.

- **المسلمون يوارون المشركين فى القليب[2]:**

لقد اكتملت الإنسانية فى سيد الخلق ﷺ، فكان من سنَّته إذا مر بجثة إنسان أن يأمر بدفنه، لا يَسْألُ عنه مؤمناً كان أو كافراً، فألقى أجساد المشركين فى القليب.

ابنٌ يتألم لسحب أبيه في القليب:

قال ابن إسحاق: (ولما أمر رسول الله ﷺ أن يُلْقَوْا في القليب، أُخِذَ عتبةُ ابن ربيعة فسُحب إلى القليب، فنظر رسول الله ﷺ في وجه أبي حذيفة بن عتبة، فإذا هو كئيب قد تغير لونه، فقال: يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيءٌ؟ فقال: لا، والله يا رسول الله ما شكَكْتُ في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيتُ ما

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٣٩.

(٢) البئر التى ليس فيها ماء.

أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيرا)[1].

الرسول ﷺ يخاطب أهل القليب.

(قام رسول الله ﷺ على شفا البئر وفي لفظ على شفير الرَّكِيِّ، وفي بعض الروايات عن أنس: أن ذلك كان ليلاً فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان ابن فلان، ويا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، وفي رواية: يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة: أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقًّا؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيِّكم، كذَّبتموني وصدَّقني النَّاس، وأخرجتموني وآواني النَّاس، وقاتلتموني ونصرني النَّاس، فجزاكم الله عني من عصابةٍ شرّاً، خوَّنتموني أميناً، وكذَّبتموني صادقاً، فقال عمر: يا رسول الله أتناديهم بعد ثلاث، كيف تكلِّم أجساداً لا أرواح فيها؟ وفي لفظ كيف يسمعون؟ أو أنَّى يُجيبون وقد جَيَّفُوا؟

فقال رسول الله ﷺ: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، إنهم الآن يسمعون ما أقول لهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علينا شيئاً)[2].

فأهل القليب صاروا إلى النار بعد إزهاق أرواحهم، فصاروا إلى حياة برزخية يشعرون فيها بالعذاب كما قال الله تعالى عن فرعون ومَلَئه ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[3].

فجرى لأهل القليب ما جرى لملأ فرعون، وجرى لأبي جهل فرعون هذه الأمة ما جرى لفرعون مصر، فألجموا جميعاً بلُجُم من نار.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٥٦/٤، ٥٧.

(٢) المرجع السابق ص٥٥.

(٣) سورة غافر آية ٤٦.

• **نعيم شهداء بدر:**

لا مراء في حياة الشهداء، فهم أحياءٌ ينعَّمون ويتلذذون برزق ربهم لهم قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وهم يردون سلام من سلَّم عليهم، وبعض من أكرمهم اللهُ يسمع ردَّ سلامهم، قال البيهقي: (أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال: سمعت هاشم بن محمَّدٍ العمرى من وَلَدِ عمر بن عليٍّ يقول: أخذني أبي بالمدينة إلى زيارة قبور الشهداء في يوم الجمعة بين طلوع الفجر والشمس، وكنت أمشي خلفه، فلما انتهى إلى المقابر رفع صوته وقال: السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، قال: فأجيب: وعليك السلام يا عبد الله، قال: فالتفت أبي إليَّ وقال: أنت المجيب يا بني؟ فقلتُ: لا، فأخذ بيدي وجعلني عن يمينه، ثم أعاد السلام عليهم، ثم جعل كلَّما سلَّم عليهم ردُّوا عليه حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فخر لله ساجداً وشكراً لله ﷻ)[2].

• **قبول الفداء من بعض الأسرى وعم الرسول وأبناء عمومته:**

في رواية لابن إسحاق أوردها البيهقي: (بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس بن عبد المطلب: يا رسول الله إني قد كنتُ مسلماً، فقال رسول الله ﷺ: أعلمُ بإسلامك، فإن يكن كما تقول فالله يجزيك بذلك، فأما ظاهراً منك فكان علينا فافد نفسك وابني أخيك: نوفل بن الحرث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن

---

(١) سورة آل عمران الآيات ١٦٩ – ١٧١.

(٢) دلائل النبوة

عمرو أخي بني الحارث بن فهر، قال العباس: ما أخال ذلك عندي يا رسول الله، قال: فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل وقلت لها: إن أُصِبْتُ في سفري هذا فهذا المال لبنيَّ: الفضل وعبد الله وقُثَم؟ فقال لرسول الله ﷺ: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله، إنَّ هذا شيء ما علمه أحد غيرى وغيرُ أم الفضل، فاحسُب لى يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معى، فقال رسول الله ﷺ: لا، ذاك شيء أعطاناه الله تعالى منك – يعني صار غنيمة –، ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ – يقول العباس– فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً، كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله ﷻ).

فالرسول ﷺ عامل عمَّه وأبناء عمومته كبقية الأسرى، وظهر من آثار النبوة إخبار الرسول ﷺ بأمر غيبى دار بين العباس وزوجه، ولم يتدخل عمه الحمزة في الأمر، ولم يطلب إطلاق أخيه ولا أبناء إخوته.

- **الرسول يأبى التمثيل بسهيل بن عمرو ويخبر بأمر غيبي:**

كان سهيل بن عمرو قد قام في قريش خطيباً عندما استنفرهم أبو سفيان للعير كما تقدَّم، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني أَنْزِعْ ثَنِيَّتَي سهيل بن عمرو يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فقال رسول الله ﷺ: لا أمثِّل به فيمثِّل الله بي وإن كنت نبيّاً، وإنه عسي أن يقوم مقاماً لا تَذُمُّه[1].

هذا كان في السنة الثانية من الهجرة، ولقد قام سهيل مقاماً وباشر صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، وهذا دليل من أدلة نبوته ﷺ.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٧٠/٤.

قتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط

لقد رحل الرسول ﷺ من بدر إلى المدينة ومعه الأسرى وفى مكان يسمى بالصفراء توفى عبيدة بن الحارث إثر إصابة فى المبارزة فى الميدان، وفى الأُثَيْل قُتِل النضر بن الحارث قتله عليٌّ بن أبى طالب صبراً(١)، وقالت قُتَيْلة بنته:

يا راكباً إنّ الأثيل مَظنّة ... من صُبْح خامسةٍ وأنت مُوَفَّقُ
أبْلغ بها مَيْتاً بأنْ تَحيَّةً ... ما إن تَزال بها الرَّكائبُ تَخفِقُ
منّي إليك وعَبْرَةً مَسْفُوحَةً ... جادت بواكفها وأخرى تَخْنُقُ
هل يَسْمَعنّي النَضْر إن ناديتُه ... أم كيف يَسْمع مَيِّتٌ لا يَنْطِق
أمحمدٌ يا خير ضِنْء كريمةٍ ... في قومها والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِق
ما كان ضَرَّك لو مَنَنْتَ وربما ... مَنَّ الفتى وهو المَغِيظُ المُحْنِق
أوْ كُنتَ قابلَ فديةٍ فلينفقنْ ... بأعزِّ ما يغلو به ما ينفقُ
فالنَّضر أقْرَبُ مَنْ وَصَلْتَ قَرَابَةً ... وأحقُّهم إن كان عِتْقٌ يُعْتَقُ
ظَلّت سُيوف بني أبيه تَنوشه ... للّه أرحام هُناك تشقّق
صَبْراً يُقَاد إلى المنيَّة مُتْعَباً ... رَسْفَ المُقَيد وهو عانٍ مُوثَق

عبرةً مسفوحةً: دَمْعَةً سائلةً. جادت بواكِفِها: بدمعها السائل.

ضِنْء كريمة: أى سلالةً كريمة.

تنوشه: تناولته سيوف الأقارب.

فلما بلغ رسول الله شِعْرُها بكى حتى اخضلّت لحيته، وقال: لو بلغنى شِعْرُها قبل أن أقتله ما قتلته(٢).

---

(١) حُبِس و قُيِّد: حتى مات.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٦٣/٤.

قتل عقبة بن أبى مُعَيْط وظهور أثر النبوة فى قتله:

لما بلغ رسول الله عِرْق الظُبْيَة أمر بقتل عقبة بن أبى مُعَيط: فقال: يا محمد مَنْ للصِّبية؟ قال له: النار. قال: أأُقْتَل من بين قريش صبراً؟ فقتله عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح الأنصارى فى قول ابن إسحاق، وقال ابن هشام: قتله علىٌّ بن أبى طالب، فالله أعلم، وصدق الله رسوله فى قوله لعُقْبة: إن وجدتك خارج مكة ضربتُ عُنُقَكَ صبراً[1].

ما زال للكفر عرق ينبض بالكُرْه للرسول ﷺ:

اتهم المستشرقون الإسلام بأنه دين يميل لسفك الدماء، والدليل على ذلك قتلُ النضر وعقبة، وكان أكرم للمسلمين أن يكتفوا بالفداء ويردوهما مع الأسرى، هذا هو اتجاه الاستشراق.

الرد على هذا الاتهام:

لقد أرسل الله رسوله محمداً بالهدى ودين الحق، فكان دينه ثورة على الوثنية وكسراً لقيود العبودية، واستمر الرسول ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعوهم فلم يقبلوا هدى الله، ولم يكتفوا بهذا الإعراض بل صبُّوا شتى ألوان العذاب على الرسول ﷺ والمسلمين، ثم انتقلوا إلى المدينة والثورة لا تزال على أشدِّها لإقرار أسمى المبادئ الإسلامية وأعظم السلوكيات الإنسانية، وكان النضر وعقبة من ألد أعداء الله، فقد منعا النَّاس من قبول دعوة الإسلام، أحدهما هو النضر كان يأتى بقصص الفرس والروم ويقصها على قريش، ويقول: إنى أحدثكم عن رستم، ومحمد يحدثكم عن عاد وثمود، فنازع الله، وأما عقبة بن معيط فتكرر إيذاؤه للرسول ﷺ، فمرة يجده ساجداً بين يدى الله ﷻ فيضع رجله على عنقه، ويظل يغمزها حتى كادت عينا رسول الله ﷺ تخرجان، ومرة يخنقه وهو يصلى ويأتى أبو بكر فيدفعه

(١) المرجع السابق ص٦٤.

ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم.

فحين يقعان فى الأسر يقتلان؛ لأنهما فعلا ما يُهدِر دَمَهما.

فيا معشر البشر: قولوا الحق فى هذا الدين، ولا تفتروا عليه كذباً.

- **فرح النجاشي ملك الحبشة بنصر المسلمين في بدر:**

(روى البيهقى عن عبد الرحمن بن يزيد عن جابر عن عبد الرحمن رجل من أهل صنعاء قال: أرسل النجاشي ذات يوم إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان ثياب جالس على التراب، قال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما أن رأى ما في وجوهنا قال إني أبشركم بما يسُرُّكم، إنه قد جاءني من نحو أرضكم عين لي، فأخبرني أن الله قد نصر نبيَّه ﷺ، وأَهْلَكَ عدوَّهُ وأسر فلان وفلان ، التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك كأني أنظر إليه كنت أرعى به لسيدي -رجل من بني ضمرة- إبله. فقال له جعفر: ما بالك جالس على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الاخلاق؟ قال إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى ﷺ إن حقاً على عباد الله أن يُحدثوا لله ﷻ تواضعاً عند ما يحدث لهم من نعمة فلما أحدث الله تعالى نصر نبيه ﷺ أحدثت له هذا التواضع)[١].

- **فجيعةُ قريش وخروجُ شقيٍّ منها لقتل الرسول ﷺ**

(روى ابن إسحاق عن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير، قال: ناحت قريش على قتلاها بمكة شهراً، وجزَّ النساء شعورهن، وكان يؤتى براحلة الرجل منهم أو بفرسه وتُوقَفُ بين أظهر النساء ويسْتُرْنها بالسُّتُور حولها وينُحْن حولها، ويخرجن إلى الأزقَّة[٢]، فالمصائب على قريش قد عمَّتْ، والرزايا طمَّتْ، والقلوب اكتوت، والنفوس ناحت، والعيون وَكَفَت[٣].

(١) سبل الهدى والرشاد ٦٨/٤.

(٢) المرجع السابق ص٦٦.

(٣) وكفت: سالت بالدمع.

ففكر صفوان بن أمية فى الانتقام، كما جرى هذا الفكر فى عقل كـل قرشـىٍّ، فأباح بالانتقام لشيطان من شياطين قريش هو عمير بن وهب، وكان ابنُ عمير أسيراً فى أسارى بدر، فالتقى صفوان وعمير فى المسجد فذكرا أصحاب القليب ومصابهم.
فقال صفوان: والله ما فى العيش بعدهم خير.
قال عمير: صدقت والله، أمَّا والله لولا دَيْنٌ علىَّ ليس له عندى قضاءٌ، وعيالٌ أخشـى عليهم الضيعةَ بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإنَّ لى قِبَلهم عِلَّةً: ابنى أسيرٌ فى أيديهم.
فاغْتَنَمها صفوانُ، وقال لِعُمَيْر: علىَّ دَيْنُـك، أنـا أقضـيه عنـك، وعيالـك مـع عيـالى أواسيهم ما بَقَوا لا يسعنى شىء ويعجز عنهم.
فقال له عمير: فاكتُمْ شأنى وشأنك.
قال: أفعلْ.
ثم أمر عمير بسيفه فشُحِذ له وسُمَّ - أى لوُث بالسم حتى يكون القتل به محققاً- ، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم في عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ راحلته على باب المسجد متوشحا السيف فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب،والله ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرَّش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر ثم دخل على رسول الله ﷺ فقال يا نبيَّ الله هذا عـدو الله عمـير بـن وهـب قـد جـاء متوشحا سيفه، قال فأدخله عليَّ، قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمَّالة سيفه في عنقه فلبَّبه بها وقال لمن كان معه من الانصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله وعمر آخذٌ بحمالة سيفه في عنقه قـال: أرسـله يـا عمـر. أُدْنُ يـا عمير، فدنا ثم قال: انعموا صباحاً، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة،

قال: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد، قال: فما جاء بك يا عمير؟ قال جئت لهذا الاسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: فما بال السيف في عنقك يا عمير؟ قال: قبَّحها الله من سيوف، وهل أغنت شيئا؟ قال: اصدقني، ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك، قال رسول الله ﷺ لعمير: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر في المسجد، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت لصفوان: لولا دَيْنٌ عليَّ وعيال عندي لخرجتُ حتى أقتل محمداً، فتحمَّل لك صفوان بن أمية بدَيْنِك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك،

فقال عمير: أشهد أنك لرسول الله، وقد كنا يا رسول الله نكذّب بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للاسلام وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: فقِّهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن، وأطلقوا أسيره ففعلوا [1].

ثم أذن له الرسول ﷺ بالرجوع إلى مكة يدعو النَّاس إلى عبادة الله، وأسلم على يديه خلق كثير.

- **جزاء من شهد بدراً:**

من شهدوا بدراً فازوا بالحُسْنَيَيْن: فمن استشهد فاز بالأجر والشهادة، فصار حيّاً يرزق إلى أن تقوم الساعة، ومن لم يستشهد رجع بالنصر والغنمية، وهناك جزاء بيَّنه النبى ﷺ عند الاستعداد لفتح مكة فى موقف مع الصحابى حاطب بن أبى بلتعة (لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة -زعم محمد بن جعفر أنها- من مزينة، وزعم غيره أنها سارة، مولاة

---

(١) سيرة ابن هشام ٧٠/٣، ٧١.

لبعض بني عبد المطلب، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً، فجعلته في رأسها، ثم فتلت عليه قرونها -أي ضفائر شعرها-، ثم خرجت به، وأتى رسولَ الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث عليَّ بن أبي طالب والزبير بن العوام -رضي الله عنهما-، فقال لهما: أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش، يحذرهم ما قد أجمعنا لهم في أمرهم فخرجا حتى أدركاها بالخليقة -خليقة بني أحمد - أو روضة خاخ- فاستنزلاها، فالتمساه في رحلها، فلم يجدا شيئاً، فقال لها علي بن أبي طالب: إني أحلف لك بالله ما كذب رسول الله ﷺ، ولتخرجنَّ لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك، فلما رأت الجد منه قالت: أعرض فأعرض فحلَّت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليه، فأتى به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ حاطباً،

فقال: يا حاطب ما حملك على هذا ؟

فقال: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيَّرتُ ولا بدَّلتُ، ولكني كنت امرأً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولدٌ وأهل، فصانعتهم عليهم. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق ؛ فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرتُ لكم.

فأنزل الله تعالى في حاطب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾[1] إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾)[2].

(١) سورة الممتحنة آية ١.

(٢) سيرة ابن هشام ٨٨/٤.

- **أسباب انتصار المسلمين في غزوة بدر:**

أولاً: طاعة الله، فإن من أطاع الله وطبق شرعه نصره الله ﷻ، فلقد بيَّن الله شرط النصر فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(1)، ونصْرُ الله نَصْرُ دينه بتطبيق شرعه وطاعته، عند ذلك يتفضَّل على المؤمنين الطائعين بالنصر والظفر، وهذا ما وقع في بدر، فقد أطاعته الفئة القليلة فكان معها، ولقد ذكَّر الله رسوله بذلك فقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً﴾(2)، فكل ما وقع وما يقع في ملك الله أراده الله، فالنصر بيده والهزيمة بيده، وقد تكون اختباراً وابتلاءً من الله للمؤمنين.

ثانياً: قوة الإيمان والروح: لا شك أن المؤمنين كانوا يتسلحون بسلاح لا يضارعه سلاح، ولذلك ألقوا بأنفسهم في أحضان العدو لأنهم مؤمنون واثقون بالله راجون منازل الشهداء، وهذا السلاح خاصٌّ بأمَّةِ الإسلام ليس للأمم الأخرى فيه نصيب، ولذلك فهم يُرْهِبُون عَدُوَّ الله وعدُّوهم.

ثالثاً: قيادة الرسول الحكيمة وعبقريته الحربية، فَقَبْل الانطلاق إلى ميدان المعركة، وبعد أن أفلتت العيرُ وفي هذا الوقت العصيب، ورغم أنه رسولٌ يُوحَى إليه استشار أصحابه، ونزل إلى رأى الحباب بن المنذر، وانتقل المسلمون إلى الموقع الذى رآه، وفي تنظيم أصحابه احترم حقوق الإنسان، فأقاد سوَّاد بن غزيه، وسمح له أن يطعنه في بطنه، أيُّ قائدٍ في عصر ومصر يفعل ذلك؟ فهذه القيادة والعبقرية والعدل من أسباب النصر.

---

(1) سورة محمد آية ٧.
(2) سورة الأنفال آية ١٧.

رابعاً: اختيار الموقع وإمداد الماء والراحة من أسباب النصر:

أ- حين اختار المسلمون الموقع كانت أشعة الشمس فى ظهورهم وفى وجوه أعدائهم فأضعف ذلك موقف المشركين.

ب- لقد نزل المسلمون إلى أقرب بئر للعدو، وغوَّروا ما وراءه نزولاً على رأى الحباب، فشرب المسلمون ولم يتمكن أعداؤهم من مدد الماء.

جـ- نزول المطر الذى لبَّد أرض المسلمين فتحركوا بحريَّة، أمَّا عدوهم فلم تثبت أقدامهم بل انزلقت، كما قال تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾

د- الراحة ليلة المعركة أعطت المسلمين نشاطاً فى المعركة، بخلاف قريش فسهروا وشربوا الخمر، فأصابهم الفتور عند اللقاء.

- نتائج غزوة بدر

لقد حطمت كبرياء قريش وفجعتها وكسرت شوكتها، وزعزعت بنيان الشرك، وقذفت الرعب فى قلوب المنافقين واليهود، وصاروا يتوارون خوفاً من فَضْح الله لهم، ورفعت معنويات المسلمين ووطدت هيبتهم، وتركت الجزيرة العربية تتحدث عن هذه الغزوة، ويعملون حساباً لهذه القوة الجديدة، والغنائم التى حازها المسلمون صارت قوة لهم ودرْءًا لفقرهم، ونزلت سورة الأنفال لتكون منهجاً للمسلمين إلى يوم القيامة، فصارت غزوة بدر درساً يبحث إلى يوم القيامة.

- ما بين بدر وأحد

ترك انتصار المسلمين فى غزوة بدر آثاراً فى نفوس المشركين واليهود والمنافقين فلقد رأوا انهيار قوة قريش، وسمعوا عن قتلاهم وهم الذين تعرفهم الجزيرة العربية، فهم أهل الحرم لهم مقام فى قلب كل عربى، فأثر ذلك فى القبائل الضاربة حول المدينة وفى القبائل البعيدة، مما حفَّزهم إلى النيل من المسلمين، ولقد وقعت بعض المحاولات منها:

يهود بني قينقاع وجلاؤهم عن المدينة

عرف اليهود قوة المسلمين، وشاهدوا سلطانهم يزداد يوماً بعد يوم، وأثر في عيونهم بزوغ نجمهم، فبدأ تذمرهم وصاروا يجادلون المسلمين جدالاً شديداً، وبدأ احتكاكهم حتى وصل إلى الاعتداء بالأيدى على الرغم من العهود التى بينهم وبين المسلمين، وازداد حقدهم وامتلأت قلوبهم غيظاً، ولم تمنعهم العهود من إيذاء المسلمين، وجمعهم الرسول ﷺ بسوقهم ثم قال لهم:

(يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم ؛ قالوا: يا محمد، إنك ترى أنا قومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس.

وروى ابن إسحاق بسنده: (عن سعيد بن جبير، أو عن عكرمة عن ابن عباس، قال: ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيهم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ. قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ فئة المسلمين ومشركى قريش ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ وإن بنى قينقاع هم أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ.

ولقد كان من أمرهم أن امرأة من العرب قدمتْ بجلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يُريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طَرَفِ ثَوْبِها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سَوْءَتُها، فضحكوا بها، فصاحتْ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديا، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، وحاصرهم الرسول ﷺ، والذى

حاصرهم بشير بن عبد المنذر، وكانت محاصرته إياهم خمس عشرة ليلة[1]، والذى تولى إجلاءهم عبادة بن الصامت.

وكعادة أهل الكفر يتشبث بعضهم ببعض، فتشبث بأمرهم عبد الله بن أُبَىٍّ بن سلول وقام دونهم، ولم يلتفت إليه رسول الله ﷺ وأجلاهم وخرجوا إلى أذرعات بالشام.

ولم يظلمهم الرسول ﷺ، بل هم الذين ظلموا أنفسهم بنقض عهودهم ووقاحتهم واعتدائهم، ولم يحسنوا جوارهم.

وقام الرسول بعدة غزوات: غزوة السَّويق، والكدر وذى أمر، وبحران وسرية القردة.

معالم العظمة والخلود فى غزوة أحد

- **سبب غزوة أحد:**

مُنيتْ قريشٌ بالهزيمة فى بدر، وسُحِب القتلى منهم إلى القليب، ورجعت فلولهم إلى مكة تجر أذيال الخزى والعار، واجتمعت النساء يندبن قتلاهم، واكتوت قريش بقتل عظمائها وأولادها، فلا يوجد بيت من بيوتها إلاَّ وقد قُتل منه أحد أو أُسر منه أسير.

- **شياطينهم يدعون للثأر من المسلمين:**

فى جو مكة الذى يخيم عليه الحزن، وآلام الجراح تبوح بالألم، ونيران الحزن تأكل أكبادهم، دفع هذا الجوُّ أشقياء مكة عبدَ الله بن أبى ربيعة وعكرمةَ ابن أبى جهل وصفوان بن أمية، ومعهم رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم، وإخوانهم يوم بدر، فذهبوا إلى أبى سفيان بن حرب ومن كان له فى تلك العير سهم، وبلغ ربح العير خمسين ألف دينار[2].

---

(١) سيرة ابن هشام ١٣٧/٣، ١٣٨.

(٢) القول المبين فى سيرة سيد المرسلين ص١٨٩.

فقالوا لأبى سفيان وقريش: إن محمداً وَتَرَكُم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، ففعلوا فأوقفوا العير على حرب الرسول ﷺ والمسلمين، وعن هذا الموقف يقول الله ﷻ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[1].

- **استعداد قريش لحرب الرسول ﷺ:**

خرج الشياطين يدعون القبائل لمشاركتهم فى قتال المسلمين، فخرج مسافع بن عبد مناف إلى بنى مالك بن كنانة يحرضهم على حرب الرسول ﷺ، وخرج أبو عزة الذى منَّ عليه الرسول لفقره، فقد كان بين الأسرى دعا بنى كنانة ودعاهم بشعره، ودعا جُبيرُ بن مُطْعم غلاماً له حبشياً يقال له: وَحْشِيٌّ يجيد القذف بالحربة قلما يخطئ بها، فقال له جبير: اخرج مع النَّاس، فإن أنت قتلت حمزةَ بنَ عبد المطلب بعمِّى طُعَيْمة بن عَدِىّ فأنت عتيق.

فخرجت قريش بحدها وجدها وحديدها وأحابيشها ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة، وخرج مع كل واحد زوجته حتى لا يفروا، وكان مع الجيش جيش من النساء يحفزن الرجال وينشدن الشعر بأصوات عالية، وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشى أو مرَّ بها قالت: ويْها أبا دسمة اشفِ واستشف.

- **منزل قريش:**

نزلت قريش بعينين بجبل ببطن السَّبْخةِ من قناة على شفير الوارى مقابل المدينة[2].

---

(١) سورة الأنفال آية ٣٦.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ١٤٨/٣.

● **رؤيا رسول الله ﷺ:**

(فلما سمع بهم رسول الله ﷺ، والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا، قال رسول الله ﷺ للمسلمين: إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلْماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، فأوَّلتها المدينة.

قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال: رأيت بقراً لي تذبح، قال: فأما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يُقتل)[1].

● **الرسول القائد يلمّح بخطته:**

جلس الرسول ﷺ وسط أصحابه يعرض خطته، ففى رواية لابن إسحاق قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: (فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرِّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها، وكان رأي عبد الله بن أبيّ بن سلول مع رأي رسول الله ﷺ يرى رأيه في ذلك، وألا يخرج إليهم، وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج، فقال رجال من المسلمين، ممن كان فاته بدر: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم وضعُفْنَا)[2].

● **عبد الله بن أبيّ يعلن رأيه صراحة:**

فقال عبد الله بن أبي: يا رسول الله، أقِمْ بالمدينة لا نخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منَّا، ولا دخلها علينا إلا أصَبْنَا منهم، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا)[3].

---

(١) المرجع السابق ص١٤٩.
(٢) المرجع السابق ص١٤٩.
(٣) المرجع السابق

وعبد الله بن أبى بن سلول قال هذه الحكمة رغم أنها وُلدت فى قلب يخفق بالنفاق.

- **كثير من المسلمين يلتمسون من رسول الله ﷺ القتال :**

كان رسول الله ﷺ يُحقِّق مبدأ الشورى مع المسلمين، ورغم أنه ساق للمسلمين رؤياه وتأويلها - ورؤياه وحى - ليعدلوا عن الخروج إلاّ أنه ذهب إلى رأى الأغلبية حتى لا يخرق مبدأ الشورى ويكون هذا المبدأ فى يد القواد ويوجِّهونه حسب أهوائهم فآثر الخروج وقتال قريش خارج المدينة.

- **ميقات المعركة والخروج لها :**

بعد بدر بعام خرجت قريش من مكة فى أول شوال من السنة الثالثة للهجرة، وبلغ جيشها ثلاثة آلاف مقاتل، وكان عدد المسلمين الذين التقوا بهم فى الميدان سبعمائة مقاتل، وكانت فى يوم ١٥ شوال.

- **إجرام المشركين :**

عندما خرج المشركون واتجهوا إلى المدينة حتى مروا بالأبواء، ومروا بقبر أعظم سيدة أنجبت أعظم رجل، مروا بقبر السيدة آمنة فسوَّلت لهم شياطينهم الهَمَّ بنبش قبرها لولا أن العقلاء منهم نهوهم عن هذا حتى لا ينبش المسلمون قبور موتاهم إذا سنحت لهم فرصة الانتقام.

ثم تابع جيش قريش مسيره حتى نزل ببعض سفوح جبل أحد على بعد خمسة أميال من المدينة انتظاراً للنزال.

- **خروج الرسول ﷺ:**

صلى رسول الله ﷺ الجمعة فى العاشر من شهر شوال وحثَّهم فى الخطبة على الثبات والصبر قائلاً لهم «لكم النصر ما صبرتم»، وأجاز رسول الله ﷺ فى الخروج مَنْ بلغ خمس عشرة سنة، فأجاز يومئذٍ سَمُرة بن جُندب الفزارى ورافع بن خديج، وكان قد ردَّهما، فقيل يا رسول الله إنَّ رافعاً رامٍ فأجازه، فلما أجاز رافعاً

قيل له: يا رسول الله إن سمرة يصرع رافعا، فأجازه. وردَّ رسول الله ﷺ: أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، والبراء بن عازب، وعمرو بن حزم، وأسيد بن ظهير، ثم أجازهم يوم الخندق، وهم أبناء خمس عشرة سنة[١].

ثم عقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس لأسيد بن حضير.

وسار الجيش وكان عدده ما يقرب من الألف حتى إذا كانوا بشوط - بستان بين جبل أُحُدٍ والمدينة - رجع عبد الله بن أبى بثلاثمائة من أصحابه، وبقى مع الرسول ﷺ سبعمائة رجل من المؤمنين المخلصين، فمضوا فى طريقهم حتى وصلوا إلى الشّعب من جبل أحد على مقربة من المشركين، ثم جعلوا ظهورهم للجبل ووجوههم للمدينة.

- **بدء القتال:**

لقد سبق أن بيَّنا أن عدد جيش المشركين بلغ ثلاثة آلاف مقاتل، وجيش المسلمين لا يزيد على سبعمائة مقاتل، وقد رتب الرسول ﷺ خمسين رجلاً من الرماة على شِعْب فى الجبل وراء جيش المسلمين وقال لهم: احموا لنا ظهورنا، فإننا نخاف أن يجيئونا من ورائنا، والزموا مكانكم ولا تبرحوه، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم، فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل، ثم التقى الجمعان.

وبدأ القتال أولاً بالمبارزة، فكان النصر فى جانب المسلمين، ثم حملت خيَّالة المشركين على المسلمين فى ثلاث مرات، وفى كل مرة ينضحهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون.

---

(١) سيرة ابن هشام ١٥٠/٣.

ثم حمي القتال وكان نساء قريش يمشين خلال الصفوف يضربن بالطبول والدفوف، وعلى رأسهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، وهن ينشدن:

وَيْها بني عبد الدار ... وَيْها حُمَاةَ الأدبارْ

ضربًا بكُلِّ بَتَّار

إن تُقبلوا نُعانِق ... ونفرش النَّمَارقْ

أو تُدبروا نُفارِق ... فِراق غير وامِقْ

فيشتد الحماس حين يسمع الرجال صوتَ النساء، ويتذكرون إخوانهم الذين قتلوا في يوم بدر، فتزداد حميَّتهُم وإقبالهم على القتال، وكان ﷺ كلما سمع نشيد النساء يقول: اللهم بك أجُول، وبك أصول، وفيك أقاتل، حسبي الله ونعم الوكيل، ولم يكن المسلمون بحاجة إلى من ينشد لهم الأشعار ليدفعهم إلى القتال، وإنما يدفعهم إيمانهم العميق فيقبلون على الموت في سبيل الله[1].

صور من البطولة

بلاء أبي دُجانة :

قال الزبير بن العوَّام: وجدتُ في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة، وقلت: أنا ابن صفية عمته، ومن قريش، وقد قمت إليه فسألته إياه قبله، فأعطاه إياه وتركني، والله لأنظرن ما يصنع ، فاتبعته، فأخرج عصابة له حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصب بها، فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ∴ ونحن بالسفح لدى النخيل

ألاَّ أقوم الدهر في الكَيُّول ∴ أضرب بسيف الله والرسول

---

(١) القول المبين في سيرة سيد المرسلين ص١٩٠، ١٩١.

قال ابن إسحاق: فجعل لا يَلْقي أحداً إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحا إلا ذفف عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما، فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة، فاتقاه بدرقته، فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة فقتله، ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها، قال الزبير: فقلت: الله ورسوله أعلم[1].

حمزة بن عبد المطلب وبلاؤه في الميدان:

قاتل حمزةُ عمُّ رسول الله ﷺ وأبلى بلاء حسناً فقتل أرْطأة بن عبد بن شرحبيل، وكان أحد النفر الذين يحملون اللواء، ثم مر به سباع بن عبد العُزَّى فقال له حمزة: هَلُمَّ إليَّ يابْن مقطِّعة البظور، فلما التقيا ضربه حمزة فقتله.

وصاح عثمان بن أبي طلحة يومئذ، وهو يحمل لواء المشركين:

إن على أهل اللواء حقا ∴ أن يخضبوا الصعدة أو تندقا

فقتله حمزة بن عبد المطلب.

ثم قُتِلَ حمزة، قتله وَحْشى مولى جبير بن مطعم.

وبعد أن أسلم حدَّث رسول الله بعد فتح مكة عن كيفية قتله لحمزة، ولما فرغ من حديثه قال له رسول الله ﷺ: غيِّب عني وجهك فلا أريَنَّك. قال ابن هشام: فبلغني أن وحشيا لم يزل يُحَدُّ في الخمر حتى خلع من الديوان، فكان عمر بن الخطاب يقول: قد علمت أن الله تعالى: لم يكن ليدع قاتل حمزة[2].

عاصم بن ثابت:

قاتل وأبلى بلاء حسناً فقتل مسافع بن طلحة وأخاه الجلاَّس بن طلحة، فيأتي أمَّه سلافةَ فيضع رأسه فى حجرها فتقول: يا بُنَى من أصابك؟ فيقول: سمعتُ رجلاً

(١) سيرة ابن هشام ١٥١/٣، ١٥٢.

(٢) المرجع السابق ص١٥٢، ١٥٣.

حين رماني وهو يقول: خذها وأنا ابن أبي الأقلح، فنذرتْ إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر، وكان عاصم قد عاهد الله أن لا يمس مشركاً أبداً ولا يمسُّه مشرك[1].

حنظلة غسيل الملائكة:

قاتل حنظلة بن أبي عامر، والتقى بأبي سفيان فلما استعلاه حنظلة وكاد أن يقتله رآه شداد بن الأسود قد علا أبا سفيان فضربه شدادٌ فقتله، وقال عنه رسول الله ﷺ: إن صاحبكم يعنى حنظلة لتغسِّله الملائكة، فسألوا أهله ما شأنه؟ فسئلت صاحبته – زوجته – عنه، فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة أو الهيعة – أى الدعوة للحرب –، فخرج مسرعاً ولم ينتظر حتى يغتسل[2].

عمُّ أنس بن مالك:

روى البخارى (عن أنس رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أُحُد، وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين. ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أُحُد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين، ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم)[3].

---

(١) المرجع السابق ص١٥٤.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق ص١٥٥، ١٥٦.

- **ميلاد نصر لم يعش:**

قاتل المسلمون وأعملوا سيوفهم فى أعدائهم، فأنزل الله نصره وصدقهم وعده، فزحزحوا المشركين عن أماكنهم وكشفوهم عن العسكر.

ومن العار لقريش أن لواءهم كان بيد عبد حبشى هو صُؤاب، وهو غلام لبنى أبى طلحة، وكان آخر من أخذه منهم فقاتل عبدهم حتى قطعت يداه، فأخذ اللواء بصدره وعنقه حتى قتل عليه، وعن وصفه يقول حسان بن ثابت:

فخرتم باللواء وشرُّ فَخرٍ ∴ لواءٌ حين رُدَّ إلى صؤابِ

جعلتم فخركم فيه بعبد ∴ وألأمُ مَنْ يطا عفَر التراب

وأخذت اللواء امرأة مشركة هى عَمْرة الحارثية وقال حسان فيها:

فلولا لواء الحارثية أصبحوا ∴ يباعون في الأسواق بيع الجلائب

وكانت الهزيمة لا شك فيها، وهربت النساء مذعورات كالجرذان التى تفر من السفينة عند احتراقها، وظهرت الغنائم، وخالف الرماة الذين يحمون ظهور المسلمين أوامر الرسول ﷺ، فلمعت الغنائم فى عيونهم، فتركوا أماكنهم وحراسة ظهر الجيش، وصاح فيهم رئيسهم عبد الله بن جبير بألا يتركوا أماكنهم حرصاً على أوامر الرسول ﷺ فلم يستمع إليه سوى نفر دون العشرة، وانتهز خالد بن الوليد الفرصة وكان على فرسان قريش فشد برجاله على مكان الرماة فقتل مَنْ ثبت منهم، وفاجأ المسلمين مِنْ ورائهم وهم مشغولون بدنياهم، فاستولى الرعب عليهم، وسادت الفوضى فى صفوفهم، حتى صار يضرب بعضهم بعضاً، وانعكس الوضع واختل الميزان، فبعد أن كان المسلمون يقاتلون صفًّا كأنهم بنيان مرصوص إذا بهم يقاتلون مبعثرين دون قائد يوجّههم، وشاع بين النّاس أن الرسول ﷺ قتل وفرح المشركون، وعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ ما زال حيّاً فالتف حوله جماعة يدافعون عنه وهو جريح، وصعد بقية المسلمين الجبل مهزومين بعد أن قُتل منهم سبعون شهيداً من خيرة الصحابة منهم حمزة بن عبد المطلب ﷺ والذى مثّلت به هند زوج أبى سفيان وأم

معاوية، فلقد بقرتْ بطنه ومضغت كبده بأسنانها ثم لفظتها، وقتل مصعب بن عمير.

- **جراح الرسول ﷺ ودفاع نسيبة بنت كعب عنه:**

خلص المشركون إلى رسول الله ﷺ، فضربوا الرسول ﷺ فأصيبت رباعيته – السن اليمنى السفلى من مقدمة أسنانه –، وشُجَّتْ وجنتُه حين دخلتْ حلقتا المِغْفَر فيها، وجرحت شفته السفلى، وجعل الدم يسيل منه.

و فى رواية لابن إسحاق عن أبى سعيد الخدرى ﷺ، أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله ﷺ يومئذ، فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وأن عبد الله بن شهاب الزهري شجه في جبهته، وأن ابن قمئة[1] جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون، وهم لا يعلمون ؛ فأخذ عليٌّ بن أبي طالب بيد رسول الله ﷺ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما، ومصَّ مالك بن سنان، أبو أبي سعيد الخدرى، الدم عن وجه رسول الله ﷺ، ثم ازدرده، فقال رسول الله ﷺ: " من مس دمي دمه لم تصبه النار ".

وروى ابن هشام: أن النبي ﷺ قال: من أحبَّ أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الارض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله[2].

- **العنصر النسائى فى هذه المعركة:**

فى هذا الموقف العصيب ظهر العنصر النسائى مُمَثَّلاً فى السيدة أم عُمَارةَ نسيبة بنت كعب، ذكر سعيد بن أبى زيد الأنصارى أن أم سعيد بنت سعد بن الربيع كانت تقول: دخلت عَلَيَّ أمُّ عمارة، فقلت لها: يا خالة، أخبريني خبرك، فقالت: خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء،

---

(١) ابن قمئة: أى ابن الصغيرة الذليلة.

(٢) سيرة ابن هشام ١٥٦/٣.

فانتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال، وأذُبُّ عنه بالسيف، وأرمي عن القوس، حتى خَلَصَت الجراحُ إليّ.

قالت: فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور، فقلت: من أصابَكِ بهذا؟ قالت: ابن قمئة، أقمأه الله! لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير، وأناسٌ ممن ثبت مع رسول الله ﷺ، فضربني هذه الضربة، ولكن عدو الله كان عليه درعان[1].

وأحاط أبو دجانة بالرسول ﷺ، وأخذ النبل فى ظهره وهو منحنٍ عليه، ودافع سعد بن أبى وقاص.

- **شجاعة من الرسول وبيان لأثر النبوة:**

قال ابن هشام: لما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبيٌّ بن خلف وهو يقول: أي محمد، لا نجوتُ إن نجوتَ، فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال رسول الله ﷺ: دعوه ؛ فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصِّمَّة[2]، يقول بعض القوم فيما ذُكر لي: فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة، تطايرنا بها تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض بها - قال ابن هشام: الشعراء ذباب له لدغ - ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ[3] منها عن فرسه مراراً.

قال ابن إسحاق: وكان أبيٌّ بن خلف يلقى رسول الله ﷺ بمكة، فيقول: يا محمد إن عندي العَوْذ، فرساً أعلفه كل يوم فَرَقاً - يعنى مكيالاً - من ذرة أقتلك

(١) المرجع السابق ص١٥٧.
(٢) الصِّمَّة: اسم من أسماء الأسد.
(٣) تدأدأ: تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج.

عليه؛ فيقول رسول الله ﷺ: بل أنا أقتلك إن شاء الله، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشا غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد! قالوا له: ذهب والله فؤادك! والله ما بك من بأس؛ قال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق عليَّ لقتلني. فمات عدو الله بسَرِف[1] وهم قافلون به إلى مكة، وصلى رسول الله ﷺ الظهر قاعداً بسبب الجراح[2].

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ، ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[3].

- **أبو سفيان يشمت بالمسلمين:**

يروى ابن هشام فيقول: ثم إن أبا سفيان بن حرب، حين أراد الانصراف، أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته فقال: أنعمت فعال، وإن الحرب سجال، يوم بيوم، أعلُ هُبَلُ، أي أظهر دينك؛

فقال رسول الله ﷺ: قم يا عمر فأجبه، فقل: الله أعلى وأجَلُّ، لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

---

(١) سرف: بفتح السين وكسر الراء: مكان على بُعد عشرة أميال من مكة.

(٢) سيرة ابن هشام ١٦٦/٣.

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٣، ١٥٤.

فلما أجاب عمر أبا سفيان، قال له أبو سفيان: هَلُمَّ إليَّ يا عمر ؛ فقال رسول الله ﷺ لعمر: ائته فانظر ما شأنه ؛ فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً ؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن؛ قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر ؛ لقول ابن قمئة لهم: إني قد قتلت محمدا [1].

- **الرسول يأمر علياً بالخروج في أثر قريش:**

بعث رسول الله ﷺ عليَّ بن أبى طالب، فقال: أخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنَّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثم لأناجزنَّهم، قال عليٌّ: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ؛ فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة[2].

- **دروس من غزوة أحد**

أولاً: وجوب طاعة الله ورسوله، فالرسول ﷺ كان اتجاهه فى عدم الخروج، بيد أن مبدأ الشورى الذى أرسى قواعده أنه ينزل على رأى الأغلبية رغم أنه رسول، فحتى لا يُخْرق هذا المبدأ خرج.

ثانياً: مخالفة وحى الله فيه تعب للأمة، فرؤيا الرسول ﷺ بأنه رأى بقراً ورأى ثلمة فى ذباب السيف، ورأى أنه أدخل يده فى درع حصينة فأوَّلها المدينة، كما مرَّ، ورؤياه وحى، فلم ينصاعوا له.

ثالثاً: هزيمة المسلمين كانت درساً قاسياً حتى لا يخالف المسلمون أمره، كما فعل الرماة.

رابعاً: أنها بلاء واختبار، وعلى ضوء هذا البلاء رفع الله الشهداء إلى أعلى الدرجات

---

(١) سيرة ابن هشام ١٧٠/٣.

(٢) المرجع السابق ص١٧٠، ١٧١.

وَرجع المسلمون بالأجر، قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

خامساً: ظهر المؤمن من المنافق، فحين رجع عبد الله بن أبيّ زعيم المنافقين بطابور المنافقين كان هذا درساً للمسلمين فى كل مناحى حياتهم.

- **لماذا لم تقاتل الملائكة في أحد:**

لقد قاتلت الملائكة فى بدر لأنهم لم يعصوا الله، بل ابْتُلى المؤمنون وأفْلَتت العير ووجدوا أنفسهم أمام قريش، وأمام معركة غير متكافئة فى العدد والعُدة، ومع هذا أعلنوا ملازمة الرسول ﷺ، ودخلوا المعركة فكانت المساعدة لهم فنزلت الملائكة.

أمَّا فى أحُد فقد أشار الرسول ﷺ على المسلمين بالبقاء فى المدينة، وقصَّ عليهم رؤياه، وبيَّن لهم أن الدرع التى رآها هى المدينة، ومع هذا خالفوا فلم تنزل الملائكة، روى البيهقى بسنده عن مجاهد قال: (لم تقاتل معهم الملائكة يومئذ، ولا قبله ولا بعده إلاَّ يوم بدر، فإنما أراد أنهم لم يُقاتلوا يوم أحد عن القوم حين عصوا الرسول، ولم يصبروا على ما أمرهم به).

- **هل نزلت الملائكة لحماية الرسول ﷺ ؟**

نعم نزلت الملائكة، وأحاطت به بعد أن جُرح، وهذه روايات مختلفة:

١- روى البخارى بسنده عن (سَعْد قال: رَأَيْتُ يَوْمَ أُحُدٍ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَنْ يَسَارِهِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بيضٌ، يُقَاتِلاَنِ عَنْ رسول الله ﷺ أَشَدَّ الْقِتَالِ،

(١) سورة آل عمران آية ١٤٠، ١٤٢.

مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ ذَلِكَ وَلاَ بَعْدُه).

٢- روى الإمام مسلم بسنده عَنْ سَعْدٍ قَالَ: (رَأَيْتُ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَنْ شِمَالِهِ يَوْمَ أُحُدٍ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابُ بَيَاضٍ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلاَ بَعْدُ، يَعْنِي جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ).

٣- روى البيهقى بسنده عن عمير بن إسحاق (قال: لما كان يوم أُحُد انكشفوا عن رسول الله ﷺ، وسعدٌ يرمى بين يديه، وفتىً ينبُلُ له كلما ذهبتْ نَبْلَةٌ أتاه بها، قال: ارمِ أبا إسحاق فلما فرغوا نظروا مَنْ الشابُّ فلم يَرَوْه ولم يُعرف).

- **حبُّ الرسول ﷺ لجبل أحد:**

روى البخارى بسنده عن أنس ﷺ: (أنَّ النَّبىَّ ﷺ قالَ: هَذَا جَبَلُ أُحُد يُحِبُّنا ونُحِبُّه). وروى أيضاً عن أنس (أنَّ رسول الله ﷺ طَلَعَ له أُحُد فقال: هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه).

معالم العظمة والخلود فى أحداث يوم الرجيع ورِعْل وذكوان وبئر معونة وغيرها

لقد تأثر المسلمون بسلوك رسولهم وبتعاليمه، فبذلوا أرواحهم فداء لهذا الدين وحبّاً لله ولرسوله، ونجد ذلك فيما يرويه الإمام البخارى بسنده عن أبى هريرة ﷺ قال: (بعث النبي ﷺ سرية عينا، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت، وهو جدّ عاصمٍ بن عمر بن الخطاب – لأمِّه –، فانطلقوا حتى إذا كان بين عُسْفَان ومكة، ذُكِرُوا لحيٍ من هذيل يقال لهم: بنو لُحْيَان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصوا آثارهم حتى أتَوْا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزوَّدوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصمٌ وأصحابه لجأوا إلى فَدْفَد – أرض واسعة لا شيء فيها –، وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق

إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلا، فقال عاصم: أما أنا فلا أنـزل في ذمـة كـافر، اللهم أخبرْ عنّا نبيك، فرموهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قِسِيِّهم فربطوهم بهـا، فقـال الرجـل الثالـث الـذي معهما: هذا أولُ الغدر، فأبى أن يصحبهم فجرَّروه وعالجوه على أن يصحبهم فلـم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيـد حتـى باعوهمـا بمكـة، فاشـترى خبيبـاً بنـو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيبٌ هو قتل الحارث يوم بـدر، فمكـث عنـدهم أسيرا، حتى إذا أجمعوا قتله استعار مُوسَىً – آلة حلاقة– من بعض بنات الحارث ليستحدَّ بها فأعارَتْه، قالت: فغفلتُ عن صبيٍّ لي، فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فَزِعْتُ فَزْعَةً عرف ذاك مني وفي يديه الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنتُ لأفعل ذلك إن شاء الله، وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قطُّ خيـراً مـن خبيب، لقد رأيته يأكل مـن قِطْـفِ عنـب ومـا بمكـة يومئـذ ثمـرة، وإنـه لموثـق في الحديد، وما كان إلا رزقاً رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعـوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أنَّ ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سنَّ الركعتين عند القتل هو، ثم قال: اللهم أحْصِهِم عدداً، ثم قال:

ولسـت أبـالي حـين أقتـل مسـلماً على أيِّ جنـبٍ كـان في الله مصـرعي

وذلـك في ذات الآلـه وإن يشـأ يبـارك علـى أوصـال شـلو ممـزَّع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريشٌ إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر)

أمَّا عاصم بن ثابت:

فقال عندما حاصروه هو ومرثد بن أبي مرثد، وخالد بـن البكير وعاصـم بـن ثابت قالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً أبداً وقال عاصم:

مـا علّـتي وأنـا جلـدٌ نابـل	والقـوسُ فيـه وتـرٌ عُنَابـل
تِـزِلُّ عـن صـفحتها المعابـل	المـوتُ حـقٌّ والحيـاة باطـل
وكـل مـا حَـمَّ الإلـه نـازل	بـالمرء والمـرءُ إليـه آئـلُ

إن لم أقاتلْكم هابل

ثم قاتل القوم حتى قُتِلَ وقُتِل صاحباه، فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخْذَ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد: لئن قدرتْ على رأس عاصم لتشربَنَّ في قُحفه الخمر، فمنعتْه الدَّبْر – أي الزنابير – فلما حالت بينه وبينهم الدَّبْر، قالوا: دعوه يُمْسي فتذهبْ عنه، فنأخذْه فبعث الله الوادي، فاحتمل عاصماً، فذهب به، وقد كان عاصم قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك، ولا يمسَّ مشركاً أبداً تنجساً ؛ فكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول حين بلغه أن الدبر منعته: " يحفظ الله العبد المؤمن "، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك، ولا يمسَّ مشركاً أبداً في حياته، فمنعه الله بعد وفاته، كما امتنع منه في حياته.

وأما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدي، وعبد الله بن طارق فلانوا ورقُّوا ورغبوا في الحياة، فأعطوا بأيديهم فأسروهم، ثم خرجوا إلى مكة، ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبدالله بن طارق يده من القِرَان، ثم أخذ سيفه، واستأخر عنه القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره، رحمه الله، بالظهران ؛ وأما خبيب بن عديٍّ وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة[1].

وهكذا يظهر أثرُ الرسول ﷺ ورسالته في هؤلاء، فصاروا بها أبطالاً يذكرهم التاريخ فلا يغيبون عن عالم البشر وإن توارت أجسادهم.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٢٤/٣، ٢٢٥.

إجلاء يهود بنى النضير

اليهود أهل غدر يجرى الغدر فى دمائهم، وتظهر الخيانة فى سلوكهم وظهر ذلك مع الرسول ﷺ، فلقد خرج إليهم يستعينهم فى دية رجلين من بنى عامر قتلهما عمرو بن أمية الضَّمرىّ، يقول ابن إسحاق:

فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى ديَّة ذينك القتيلين، قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببتَ مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد، فَمَنْ رَجُلٌ يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتُدِبَ لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلىٌّ رضوان الله عليهم.

فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبث النبىَّ أصحابُه قاموا فى طلبه فلقوا رجلاً من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخلاً المدينة فأقبل أصحابه حتى انتهوا إليه ﷺ، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، ثم سار بالناس حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال، ونزل تحريم الخمر فى تلك الفترة[1].

- **مرض النفاق ينبض:**

أرسل عبد الله بن أبىّ بن سلول ووديعة ومالك ورهط من أئمة النفاق أرسلوا إلى بنى النضير: أن اثبُتوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربَّصُوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا وقذف الله فى قلوبهم الرعب، فتحصَّنوا

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٤٠/٣.

فأمر رسول الله ﷺ بقطع نخيلهم وتحريقها، فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبُه على مَنْ صنعه، فما بال قطع النخل وحرقها؟

وهم لا يدركون أنهم هم الذين بدأوا به وشرعوا في قتل الرسول ﷺ، ولا يدركون أنه لا يفعل ذلك إلاّ بوحى من الذى خلقهم وعَلِم طبائعهم التى تعشق المال والدنيا، فأراد أن يحرق قلوبهم على أموالهم قبل إجلائهم، قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾(١).

فلما قطّع نخيلهم واشتد حصارهم سألوه أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملتْ الإبل من أموالهم إلاّ الأسلحة فأجابهم، فاحتملوا ما استقلت به الإبل، فخرج بعضهم إلى خيبر وبعضهم سار إلى الشام، وكان ممن خرج إلى خيبر سلاّم بن الحُقَيْق وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وحييُّ بن أخطب(٢)، ونزلت فيهم سورة الحشر، وكان ذلك فى شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى، من السنة الرابعة للهجرة.

معالم العظمة والخلود فى غزوة ذات الرّقاع

خرج رسول الله ﷺ يريد بنى مُحارب وبنى ثعلبة من غطفان جهة نجد، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى، وقيل عثمان بن عفّان، وذلك فى جمادى الأولى سنة أربع من الهجرة.

وسُمِّيت هذه الغزوة بذات الرقاع لأنهم رقَّعوا فيها راياتهم، وقيل: اسم شجرة فى هذا الموضع، يقال لها: ذات الرقاع.

يقول ابن إسحاق: فلقى الرسول ﷺ جمعاً عظيماً من غطفان فتقارب النّاس، بيد أنه لم يكن بينهم حرب وقد خاف النّاس بعضهم بعضاً حتى صلى رسول ﷺ

(١) سورة الحشر آية ٥.
(٢) المرجع السابق ص٢٤٠، ٢٤١.

بالناس صلاة الخوف ثم انصرف بالناس.

- **المعلم الأول من معالم العظمة والخلود:**

روى الإمام أحمد فى مسنده عن جابر بن عبد الله قالَ: (قاتل رسول الله ﷺ محارب خَصَفَة بنخل، فرأوا من المسلمين غِرَّةً فجاء رجل منهم يُقَال له: غَوْرث بن الحارث حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ قال الله ﷻ، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: من يمنعك مني؟، قال كن كخير آخذ، قال: أتشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: لا ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلَّى سبيله، قال: فذهب إلى أصحابه وقال: قد جئتكم من عند خير الناس).

وقول جابر: "قاتل رسول الله" معناه: أنه خرج لقتالهم، ولم يقع قتال، وإباء الرجل وعدم قبوله الإسلام حتى يكون إسلامه ليس تحت تهديد السلاح، وقابله الرسول ﷺ بالعفو، فحقن دمه ودخل هو وقومه الإسلام.

ما أعظم هذا؟

- **المعلم الثاني من معالم العظمة والخلود:**

أورد البيهقى رواية للبخارى عن جابر بن عبد الله قال: (خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ –وهى هذه الغزوة– فَأَبْطَأَ بِي جَمَلِي وأعيا – عجز عن السير–، فَأَتَى عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي: "يَا جَابِرُ" قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: "مَا شَأْنُكَ؟" قُلْتُ: أَبْطَأَ بِي جَمَلِي فَأَعْيَا وتخلَّفَ، فَحَجَنَهُ بِمِحْجَنِهِ[1]. ثُمَّ قَالَ: "ارْكَبْ" فَرَكِبْتُ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي أَكُفُّهُ على رَسُولِ اللَّهِ[2]. فَقَالَ "أَتَزَوَّجْتَ؟" قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: "بِكْراً أَمْ ثَيِّباً؟" فَقُلْتُ: بَلْ ثَيِّبٌ. قَالَ: "فَهَلاَ جَارِيَةً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ؟" قُلْتُ: إِنَّ لِي أَخَوَاتٍ،

(١) المحجن: عصا يلتقط بها الراكب ما سقط منه والمعنى: نخسه بالمحجن.

(٢) أراد أنه يمنعه حتى لا يسبق رسول الله ﷺ.

أَحْبَبْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ امْرَأَةً تَجْمَعُهُنَّ وَتَمْشُطُهُنَّ وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ. قَالَ: "أَمَا إِنَّكَ قَادِمٌ. فَإِذَا قَدِمْتَ فَالْكَيْسَ! الْكَيْسَ!". ثُمَّ قَالَ "أَتَبِيعُ جَمَلَكَ؟" قُلْتُ: نَعَمْ، فَاشْتَرَاهُ مِنِّي بِأُوقِيَةٍ، ثُمَّ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلِي وَقَدِمْتُ بِالْغَدَاةِ، فَجِئْتُ الْمَسْجِدِ فَوَجَدْتُهُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ. فَقَالَ "الآنَ. حِينَ قَدِمْتَ؟" قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ "فَدَعْ جَمَلَكَ وَادْخُلْ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ" قَالَ: فَدَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ فَأَمَرَ بِلالاً أَنْ يَزِنَ لِي أُوقِيَةً، فَوَزَنَ لِي بِلالٌ، فَأَرْجَحَ الْمِيزَانِ. قَالَ: فَانْطَلَقْتُ. فَلَمَّا وَلَّيْتُ قَالَ: "ادْعُ لِي جَابِراً" فَدُعِيتُ. فَقُلْتُ: الآنَ يَرُدُّ عَلَيَّ الْجَمَلَ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْهُ. فَقَالَ: "خُذْ جَمَلَكَ، وَلَكَ ثَمَنُهُ". ما أعظم هذا؟

غزوة بنى المصطلق

وتسمى غزوة المريسيع

هذه الغزوة كانت فى شعبان من السنة الخامسة للهجرة على التحقيق، وهو الصحيح بخلاف ما ذهب إليه ابن إسحاق بأنها كانت فى العام السادس، ولقد ذهب المحققون إلى أن سعد بن معاذ كان حياً فى هذه الغزوة، ومات بعد إصابته فى غزوة الخندق وبعد حكمه على بنى قريظة، وكانت غزوة الخندق فى شوال فى السنة الخامسة من الهجرة، فتكون غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة.

- **سبب هذه الغزوة:**

فى رواية لابن إسحاق: بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث، زوج رسول الله ﷺ؛ فلما سمع رسول الله ﷺ بهم خرج إليهم، حتى لقيهم على ماء لهم يقال له: المريسيع، من ناحية قديد إلى الساحل، فتزاحف الناس واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق، وقتل مَنْ قتل منهم، ونفّل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم[١].

(١) سيرة ابن هشام ٦/٤.

● **ميلاد فتنة ووأدها:**

بينما رسول الله ﷺ على ماء المريسيع، وكان النّاس يأخذون منه حاجتهم من الماء، وردت واردة الناس، وأتى أجير لعمر بن الخطاب من بني غفار، يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني، حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين ؛ ففضب عبدالله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم: زيد بن أرقم، غلام حدث، فقال: أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سَمِّنْ كلبَكَ يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُرْ به عباد بن بشر فليقتله ؛ فقال له رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ! لا ولكن أذّن بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

وقد مشى عبد الله بن أبيٍّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ، حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلَّغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلتُ ما قال، ولا تكلمتُ به(١).

وعاد رسول الله ﷺ بالناس، وسلك الحجاز حتى نزل عل ماء بالحجاز فويق النقيع؛ يقال له: بقْعَاء، فلما راح رسول الله ﷺ هبَّت على النَّاس ريح شديدة آذتهم وتخوفوها ؛ فقال رسول الله ﷺ: لا تخافوها، فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار، فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت، أحد بني قينقاع،

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٧.

وكان عظيما من عظماء يهود، وكهفا للمنافقين، مات في ذلك اليوم.

ونزلت سورة المنافقين فى ابن أبىَ ومن كان على مثله، فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم ثم قال: هذا الذى أوفى الله بأُذنه(١).

- **إيمان تذوب في حرارته آصرة الأبوة:**

روى ابن إسحاق: أن عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبَيٍّ فيما بَلَغَكَ عنه، فإن كنت لا بد فاعلا فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله فأقتل رجلا مؤمنا بكافر، فأدخل النار ؛

فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا(٢).

- **جويرية بنت الحارث بنت سيد قومها:**

وردت روايتان فى زواج السيدة جويرية برسول الله ﷺ نأخذ منهما هذه الرواية:

قال ابن هشام: لما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق ومعه جويرية بنت الحارث، وكان بذات الجيش، دفع جويرية إلى رجل من الأنصار وديعةً، وأمره بالاحتفاظ بها، وقدم رسول الله ﷺ المدينة ؛ فأقبل أبوها الحارث بن أبي ضرار بفداء ابنته ؛ فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التي جاء بها للفداء، فرغب في بعيرين منها، فغيَّبهما في شعب من شعاب العقيق، ثم أتى إلى النبي ﷺ وقال: يا محمد، أصبتم ابنتي، وهذا فداؤها، فقال رسول الله ﷺ: فأين البعيران اللذان

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق ص٨.

غيبتهما بالعقيق، في شعب كذا وكذا؟ فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك محمد رسول الله، فوالله ما اطلع على ذلك إلا الله، فأسلم الحارث، وأسلم معه ابنان له، وناس من قومه، وأرسل إلى البعيرين، فجاء بهما، فدفع الإبل إلى النبي ﷺ، ودُفعت إليه ابنته جويرية، فأسلمت وحسن إسلامها؛ فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها، فزوجه إياها، وأصدقها أربعمائة درهم[1]. وكان اسم جويرية «بَرَّة» والذى سماها بهذا الاسم هو سيد الخلق ﷺ.

- **السيدة جويرية تبوح برؤياها:**

روى البيهقى فى دلائل النبوة عن حزام بن هشام عن أبيه قال: قالت جويرية بنت الحارث: رأيت قبل قدوم النبى ﷺ بثلاث ليال كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع فى حجرى، فكرهتُ أن أُخبِر بها أحداً من النَّاس حتى قدم رسول الله ﷺ، فلما سُبينا رجوتُ الرؤيا، قالت: فأعتقنى رسول الله وتزوَّجنى والله ما كلمته فى قومى حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم – أى أعتق كل مسلم من كان تحته من قوم السيدة جويرية –، وما شعرت إلا بجارية من بنات عمِّى تُخبرنى الخبر فحمدت الله ﷻ).

حديث الإفك

فى هذه الغزوة وبعد عودة الغزاة إلى المدينة افترى أئمةُ النفاق كذباً على الصدِّيقة بنت الصديق زوج النبى ﷺ تهمةً لا وجود لها، بل اختلقوها من عند أنفسهم المريضة، وهى تهمة الزنا مع رجل شريف هو صفوان بن المعطِّل، ونترك السيدة عائشة تقص ما وقع فتقول: (كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيَّتُهنَّ خرج سهمها خرج بها معه ؛ فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع

(١) سيرة ابن هشام ٤/٩.

بين نسائه كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهن معه، فخرج بي رسول الله ﷺ. قالت: وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العُلَق لم يهجهن اللحم فيثقلن، وكنت إذا رحل لي بعيري جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحلون لي ويحملونني، فيأخذون بأسفل الهودج، فيرفعونه، فيضعونه على ظهر البعير، فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير، فينطلقون به.

قالت: فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، وجه قافلا، حتى إذا كان قريبا من المدينة نزل منزلا، فبات به بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عِقْد[1] لي، فيه جزع ظفار، فلما فرغت انسلَّ من عنقي ولا أدري، فلما رجعتُ إلى الرحل ذهبتُ ألتمسه في عنقي، فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه، فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم خلافي، الذين كان يرحلون لي البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج، وهم يظنون أني فيه، كما كنت أصنع فاحتملوه، فشدوه على البعير، ولم يَشُكُّوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير، فانطلقوا به ؛ فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس.

قالت: فتلففت بجلبابي، ثم اضطجعتُ في مكاني، وعرفت أن لو قد افتُقِدتُ لرُجع إليَّ. قالت: فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطَّل السُّلمي، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يَبِتْ مع الناس، فرأى سوادي، فأقبل حتى وقف عليَّ، وقد كان يراني قبل أن يُضرب علينا الحجاب، فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ! وأنا متلفِّفة في ثيابي؛ قال: ما خلَّفك يرحمك الله؟ قالت: فما كلَّمته، ثم قرَّب البعير، فقال: اركبي، واستأخر عني.

قالت: فركبتُ، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعا، يطلب الناس، فوالله ما

(١) العقد: بكسر العين وسكون القاف خيط ينظم فيه الخرز أو حبات اللؤلؤ أو الذهب.

أدركنا الناس، وما افتُقِدْتُ حتى أصبحتُ، ونزل الناس، فلما اطمأنُّوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا، فارتجع العسكر، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة[1]، ولا يبلغني من ذلك شيء، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ، وإلى أبوي لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً، إلا أني قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكيت رحمني، ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل علي وعندي أمي تُمَرِّضُني قال: كيف تِيكم، لا يزيد على ذلك، حتى وجدت في نفسي، فقلت: يا رسول الله، حين رأيتُ ما رأيتُ من جفائه لي: لو أذنتَ لي، فانتقلتُ إلى أمِّي، فمَرَّضَتْني ؟ قال: لا عليك.

قالت: فانتقلت إلى أمي، ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نَقَهْتُ من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة، وكنا قوماً عرباً، لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنُف – أي الحمامات– التي تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها، إنما كنا نذهب في فسح المدينة، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن.

فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مِسطح بنت أبي رهم بن المطلب ابن عبد مناف، وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب، خالة أبي بكر الصديق ﷺ.

قالت: فوالله إنها لتمشي معي إذ عثرت في مِرْطِها[2] ؛ فقالت: تعس مسطح – ابن خالة أبى بكر–؛ قالت: قلتُ: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً ؛ قالت: أوَ مَا بلغك الخبرُ يا بنت أبي بكر ؟ قالت: قلتُ: وما الخبر ؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك، قالت: قلت: أوقد كان هذا ؟ قالت: نعم والله لقد كان.

(١) أى مرضتُ مرضاً شديداً.

(٢) كساء من خزّ أو صوف أو كتان.

قالت: فوالله ما قدرتُ على أن أقضي حاجتي، ورجعت ؛ فوالله ما زلت أبكي حتى ظننتُ أن البكاء سيصدع كبدي ؛ قالت: وقلت لأمي: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئا؟! قالت: أي بُنَيَّة، خفضي عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء، عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثَّرن وكثَّر الناس عليها.

قالت: وقد قام رسول الله ﷺ في الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي.

قالت: وكان كُبرْ ذلك عند عبدالله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش)[1].

- **مناقشة خبر الإفك**

السيدة الطاهرة العفيفة الصدِّيقة بنت الصِّدِّيق بريئة مما اتهمه بها المنافقون، ويبدو أن هذه السيدة ابْتُليتْ بهذه القذارة والتى ينبش عنها السفلة فى كل عصر حتى فى عصرنا هذا كما وقع من سافل مأجور هو سلمان رشدى وغيره وبعض المستشرقين الذين يريدون النيل من رسول الله فى أسرته، وبعض المستشرقين استبعد ذلك من أم المؤمنين، ونحن بدورنا نسوق الأدلة النقلية والعقلية على براءتها، وهى:

أولاً، الأدلة النقلية.

١- القرآن الكريم: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى

(١) سيرة ابن هشام ٤/١٠، ١١.

كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ. لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[1].

ودلائل البراءة للسيدة عائشة من هذه الآيات ما يلى:

أ- أن الذى يعلم السر وأخفى هو الذى برّأ ساحتها وأبرز عفتها.

ب- أن الله سمَّى تُهْمتَهم بالإفك، وهو أشد الكذب.

جـ- أن الله قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ فدليل البراءة صُدِّر بأداة التوكيد «إنَّ»، وكلمة «جاءوا» توحى بأنهم جاءوا به من عند أنفسهم، وليس لهذا الحادث وجود فى الواقع، وكلمة إفك هى الكذب، وقال عنهم: «عصبة» تحقيراً لهم.

د- لقد طمأن اللهُ رسولَه وأسرتَه وبيتَ أبى بكر بأن هذا الاتهام خير وليس شرّاً؛ لأن الله رفعهم درجات، وهَوَى بالكاذبين أسفل الدركات.

هـ- لقد علَّم الله المؤمنين، بأداة التحضيض «لولا» ومعناها: هلاَّ إذا سمعتم هذا الكذب قِسْتُموه على أنفسكم وقلتم: هذا كذب بيِّن واضح.

ثانياً، الدليل من السُّنَّة،

لقد قال الرسول ﷺ قولاً فى السيدة عائشة وصفوان، وهو دليل على براءتهما وعفتهما؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، فقوله وحى من عند الله، روى ابن إسحاق (ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي)[2]، ولقد ساق الرسول ﷺ دليلاً عقلياً مع قوله بأن الرجل ليس له اختلاط بأهل بيته، وليس له حديث مع أهل بيته حتى يكون هناك لقاء سرى،

(١) سورة النور آية ١١، ١٢.

(٢) سيرة ابن هشام ١١/٤.

فانتفت العلاقة بين أم المؤمنين عائشة وبين صفوان، وانتفى الزنا.

شهادة الصحابة على عفّة السيدة عائشة:

روى ابن إسحاق: (فدعا عليٌّ بن أبي طالب -رضوان الله عليه- وأسامةَ ابن زيد، فاستشارهما ؛ فأما أسامة فأثنى عليٌّ خيرا؛ ثم قال: يا رسول الله، أهلك ولا نعلم منهم إلا خيرا، وهذا الكذب والباطل ؛

وأما عليٌّ فإنه قال: يا رسول الله، إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسَلْ الجارية، فإنها ستصدقك.

فدعا رسول الله ﷺ بُريرة ليسألها ؛ قالت: فقام إليها عليّ بن أبي طالب، فضربها ضربا شديداً، ويقول: اصدقي رسول الله ﷺ ؛ قالت: فتقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً، إلا أني كنت أعجن عجيني، فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتي الشاة فتأكله[1].

واستشار عمرَ بن الخطاب فقال له: يا رسول الله، من زوَّجها لك؟

قال: ربي.

قال عمر: أفتظن أن الله دلّس عليك فيها؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

وأما عثمان بن عفّان فقد قال: يا رسول الله إن الله لم يرض لك الدنس في حذائك، فأرْسَلَ لك جبريل فأمرك بخلعه، لا يرضى لك الدنس في فراشك، فهؤلاء كلهم شهدوا للسيدة عائشة بالعفة، ولا يفهم من قول الإمام عليٍّ أنه يقدح في طهارتها أو الشكِّ فيها، إنما أراد أن يُذْهِبَ القلق الذى حلَّ برسول الله ﷺ، فرأى أنه إذا فارقها زال قلقه إلى أن تتحقق براءتُها، والنساءُ كثير يتزوج من يشاء[2].

---

(١) سيرة ابن هشام ١١/٤.

(٢) العرب وظهور الإسلام ص٢٨٠، بتصريف.

ثالثاً، الأدلة العقلية على براءة أم المؤمنين:

١- لقد وردت رواية لابن الأثير نقلها د/ محمود محمد زيادة في كتابه «العرب وظهور الإسلام» يقول فيها: (إن صفوان بن المعطل كان حصوراً لا يأتى النساء).

٢- لو فرضنا السوء فى أم المؤمنين، فهل كانت تضمن ألا يفطن أحد إلى تخلفها فيعود إليها من قريب فينكشف السرُّ وتُعلن الفضيحة، إنها أبعد عن الرذيلة.

٣- إن السيدة عائشة مؤمنة بأن زوجها رسولٌ يُوحَى إليه، فإن أقدمت على سبيل الفرض على الرذيلة يخبره الحق تعالى: بذلك من أجل هذا لم تقدم.

٤- لقد دخلت السيدة عائشة المدينة وهى فى هودجها، وصفوان يقود البعير، وكان ذلك فى وضح النهار فلو وقع بينهما شىء ما دخلا فى وضح النهار.

٥- يقول المستشرق موير: «إن سيرة عائشة قبل الحادث وبعده توجب علينا أن نعتقد براءتها من التهمة»[1].

وبهذا تثبت براءة أم المؤمنين من التهمة وأنها العفيفة بنت الصديق.

ولها الله يدافع عنها فيما يقوله الحاقدون على سيد البشر والنيل منه، فإن هذا السلاح وسلاح الضعفاء وهو خسيس دنىء استخدمه المنافقون للنيل من رسول الإسلام.

معالم العظمة فى غزوة الخندق «الأحزاب»

هذه الغزوة كانت فى شوَّال سنة خمس من الهجرة.

● **اليهود أساس البلاء:**

لقد ضُرب اليهود فى بنى قينقاع وبنى النضير بسبب إفسادهم ونقضهم العهود وغدرهم، وأدرك اليهود أنهم ليس لهم مستقبل فى وجود رسول الله ﷺ لأنه يكفُّ أذاهم عن العرب، ويقطع أيديهم عندما تعبث بالأذى، ضاقت نفوس

---

(١) العرب وظهور الإسلام ص٢٨٦

اليهود، وكرهوا أن يعيشوا فى ظل نبىٍّ مرسل يعرفون نعته فى كتبهم كما يعرفون أبناءهم، فأرادوا أن يتخلصوا منه وأن يستأصلوا شأفة المسلمين، فخرج نفر منهم: سَلاَّم بن أبى الحقيق النَّضْرى، وحُيَىٌّ بن أخْطَب النضرى، وكنانة بن أبى الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلى، وأبو عمار الوائلى فى نفر منهم وهم الذين جمعوا الأحزاب، خرجوا حتى قدموا مكة فَدَعوا قريشاً إلى حرب الرسول ﷺ، وقالوا لهم: إنا سنكون معكم حتى نستأصله.

- **سؤال قريش لهذه الشرذمة:**

قالت لهم قريش: «يا معشر يهود إنكم أهلُ الكتاب الأوَّل والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق، فلقد شهدوا فى حق الله شهادة زور وبهتان بأن عبادة الأصنام أهدى من عبادة الرحمن، فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً. أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا. أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا. أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[1].

فلما شهدت هذه الشرذمة من اليهود هذه الشهادة وقعت من عبدة الأصنام والأوثان موقع الرضا والسرور، فنشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا لذلك واتعدوا له، ثم انتقلت هذه الشرذمة إلى غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأنَّ قريشاً قد تابعوهم على ذلك.

وخرجت قريش بقيادة أبى سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن، وخرج بنو مرة بقيادة الحارث بن عوف، ولقد قال لهم الحارث: يا قوم

(١) سورة النساء آية ٥١- ٥٤.

أطيعونى ودعوا قتال هذا الرجل وخلوا بينه وبين عدوه من العرب فغلب عليهم الشيطان، وخرج عشرة آلاف مقاتل يريدون رسول الله ﷺ والمسلمين.

● **حفر الخندق بإشارة سلمان الفارسي:**

حين خرجت قريش وحلفاؤها أتى ركب خُزَاعة إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، «فندب الناسَ وأخبرهم خبر عدوهم، وشاورهم فى أمرهم - كعادته فى كل أمر يتعلق بعامة المسلمين - أيبرز من المدينة أم يكون فيها ويحاربهم عليها وفى طرقها؟ فأشار سلمان رضي الله عنه بالخندق، وقال: يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقْنا علينا، فأعجبهم ذلك وأحبوا الثبات فى المدينة، وأمرهم رسول الله ﷺ بالجِدِّ ووعدهم النصر إذا هم صبروا واتَّقَوا، وأمرهم بالطاعة، ولم تكن العرب تُخَنْدق عليها)[1].

● **بدء الحفر:**

(وركب رسول الله ﷺ فرساً ومعه عدة من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، فارتاد موضعاً ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سَلْعاً الجبل خلف ظهره، ويخندق من المذاد إلى ذباب راتج، فعمل ﷺ يومئذٍ فى الخندق وندب النَّاس وخبرهم بدنو عدوهم وعسكرهم إلى سَفْح سَلْع - اسم جبل -، وجعل المسلمون يعملون مستعجلين، يبادرون قدوم العدو عليهم، واستعاروا من بنى قريظة آلة كثيرة من مساحى وكرازين ومكاتل للحفر، ووكَّل رسول الله ﷺ بكل جانب من الخندق قوماً يحفرونه، فكان المهاجرون يحفرون من ناحية راتج إلى ذباب، وكان الأنصار يحفرون، من ذباب إلى جبل أبى عبيدة.

وروى الطبرانى بسند لا بأس به عن عمر بن عوف المُزَنىِّ أن رسول الله ﷺ خط الخندق من أَجَمِ الشيخين طرف بنى حارثة حتى بلغ المذاد، فقطع لكل عشرة

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣٦٤/٤.

أربعين ذراعاً[١].

● **الرسول ﷺ ينكر ذاته:**

كعادته ﷺ فى كل المواطن لا يتميز عن سائر المسلمين، بل شارك فى الحفر وحمل التراب على ظهره، فخالف قُوَّاد الدنيا.

«قال أنس بن مالك: وحفر رسول الله ﷺ وحمل التراب على ظهره حتى إن الغُبار على ظهره وعُكَنه»[٢].

و قالت أم سلمة رضى الله عنها: ما نسيتُ يوم الخندق وهو يعاطيهم اللَّبِنَ – الطوب الطينى – وقد اغبرَّ شَعْرُه – تعنى النبى ﷺ. رواه أحمد وأبو يعلى.

وروى محمد بن عمر عن البراء ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ يحمل التراب على ظهره حتى حال التراب بيني وبينه وإنى لأنظر إلى بياض بطنه.

وكان مَنْ فرغ من المسلمين من حصَّتِه عاد إلى غيره فأعانه.

و لم يتأخر عن العمل فى الخندق أحدٌ من المسلمين، وكان أبو بكر وعمر — رضى الله عنهما — ينقلان التراب فى ثيابهما إذ لم يجدا مكاتل من العجلة، وكانا لا يفترقان فى عمل ولا مسير ولا منزل)[٣].

و قال محمد بن عمر: (وكان رسول الله ﷺ من شدة اجتهاده فى العمل يضرب مرَّةً بالمِعْول ومرة يغرف بالمسحاة التراب، ومرة يحمل التراب فى المكتل، وبلغ منه التعب يوماً مبلغاً فجلس ثم اتكأ على حجر على شقِّه الأيسر فنام، فقام أبو بكر وعمر — رضى الله عنهما — على رأسه يُنَحِّيان الناسَ عنه أن يمروا به فينبِّهوه، ثم استيقظ ووثب فقال: أفلا أفزعتمونى وأخذ الكِرْزَنَ يضرب به ويقول:

---

(١) المرجع السابق ص٣٦٥.
(٢) عُكَنْ: جمع: عُكْنة: ما انطوى وتثنَّى من لحم البطن.
(٣) المرجع السابق ص٣٦٥.

اللـــهم إنّ العـــيش عـــيش الآخـــرة فــــاغفر للأنصــــار والمهــــاجره

اللــــهم الْعَـــنْ عَضَـــلاً والقــــارَهْ فهــــم كلّفـــونى أنقُـــلْ الحجــــارهْ

وعَمِل المسلمون فى الخندق حتى أحكموه.

قال محمد بن عمر وابن سعد: فى ستة أيام»[1].

و لقد كان المسلمون يرتجزون، ورسول الله ﷺ يشاركهم بعض الرَّجَز.

روى البخارى بسنده عن البراء قال: (لَمَّا كَانَ يَوْمُ الأحْزَابِ، وَخَنْدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الْخَنْدَقِ، حَتَّى وَارَى عَنِّي الْغُبَارُ جِلْدَةَ بَطْنِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الشِّعْرِ، فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَاتِ ابْنِ رَوَاحَةَ، وَهُوَ يَنْقُلُ مِنَ التُّرَابِ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلا تَصَــــدَّقْنَا وَلا صَــــلَّيْنَا

فَــــأَنْزِلَنْ سَــــكِينَةً عَلَيْنَــــا وَثَبِّــت الأَقْــدَامَ إِنْ لاقَيْنَــا

إِنَّ الأُلَــى قَــدْ بَغَــوْا عَلَيْنَــا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَــــةً أَبَيْنَــــا

قَالَ: ثُمَّ يَمُدُّ صَوْتَهُ بِآخِرِهَا: أبينا. أبينا).

آثار النبوة

أولاً، الصخرة،

فى روايتين عن محمد بن عمر وابن إسحاق (أن المسلمين عرض لهم فى بعض الخندق صخرة – وفى لفظ كُدْية عظيمة شديدةٌ بيضاء مُدَوَّرة لا تأخذ فيها المعاول، فكسرتْ حديدهم وشقّتْ عليهم، وفى حديث عمرو بن: أنها عرضت لسلمان، وذكر محمد بن عمر أنها تعرضت لعمر بن الخطاب، فشكَوْا ذلك لرسول الله ﷺ وهو فى قُبَّة تركية، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر من الجوع، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به، ثم

(١) المرجع السابق ص٣٦٧.

نضح من ذلك الماء عليها، فيقول من حضرها: والذى بعثه بالحق إنها عادت كالكثيب المهيل ما تردُّ فأساً ولا مسحاةً، فأخذ المعول من سلمان وقال: «بسم الله»، وضرب ضربة فكسر ثُلثها، وبَرقَتْ برقة فخرج نور من قبل اليمن فأضاء ما بين لابَتَى[1] المدينة حتى كأن مصباحاً فى جوف ليل مظلم، فكبَّر رسول الله ﷺ وقال: أعطيت مفاتيح اليمن، إنى لأُبصر أبواب صنعاء من مكانى الساعة كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر وبرق منها برقة فخرج نور من قبل الروم فأضاء ما بين لابتى المدينة، فكبَّر رسول الله ﷺ وقال: أعطيتُ مفاتيح الشام، والله إنى لأبصر قصورها الحمر من مكانى الساعة، ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر وبرق برقةً من جهة فارس أضاءت ما بين لابتى المدينة، فكبَّر رسول الله ﷺ وقال: أعطيتُ مفاتيح فارس، والله إنى لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب من مكانى هذا وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها فأبشروا بالنصر)[2].

ثانياً: إطعام جيش المسلمين الذين يحفرون الخندق:

روى البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنهما — قال: (لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بالنبى ﷺ خَمَصاً – جوعاً– فَانْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي، فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم خَمَصاً شَدِيداً، فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَاباً فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ –بالبيت لم تسرح– فَذَبَحْتُهَا وَطَحَنَتْ الشعير، فَفَرَغَتْ إِلَى فَرَاغِي. فَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا[3] ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: لاَ تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وَطَحَنَّا صَاعاً مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا. فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٍ مَعَكَ.

---

(١) اللابة: هى الحرة وهى الحجارة السوداء والمدينة تقع بين حرتين الشرقية والغربية.
(٢) سبل الهدى والرشاد ٣٦٧/٤، ٣٦٨.
(٣) البُرْمة: القِدْر من الحجارة.

فَصَاحَ النبى ﷺ فَقَالَ: "يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ إِنَّ جَابِراً قَدْ صَنَعَ لَكُمْ سُوْراً. فَحَيَّ هَلاً بِكُمْ" فَقَالَ رَسولُ اللّهِ ﷺ: "لاَ تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلاَ تَخْبِزُنَّ عَجِينَتَكُمْ، حَتَّى أَجِيءَ" فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ، حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي. فَقَالَتْ: بِكَ وبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ، فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِيناً فَبَصَقَ فِيه وَبَارَكَ، ثُمّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وبَارَكَ، ثُمّ قَالَ: "ادْعِي خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعَي، وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلاَ تُنْزِلُوهَا" وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِاللّهِ لقد أَكَلُوا حَتّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطّ كَمَا هِيَ، وَإِنّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ).

ثالثاً: إبراؤه ساق عليّ بن الحكم

روى الطبراني وأبو القاسم البغوى عن معاوية بن الحكم ﷺ (قال: لما أجرى أخى عليُّ بن الحكم فرسه، فدَقَّ جدار الخندق ساقه، فأتينا به إلى رسول الله ﷺ على فرسه، فقال: بسم الله، ومسح ساقه فما نزل عنها حتى برأ)[1].

- **بعض المنافقين يتخلفون عن مساعدة المسلمين:**

كعادة هذا الفريق يَخْذُل أُمَّتَه فى أوقات المحن ويفرح فى مصائبها، روى ابن إسحاق (أنه أبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يورُّون بالضعيف من العمل، ويتسلّلون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد له منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق بحاجته فيأذن له، فإذ قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتسابا له.

فأنزل الله تعالى: فى أولئك المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن

(١) سبل الهدى والرشاد ٣٧٠/٤.

شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

وأنزل الله سبحانه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2][3].

- **الاستعداد للقاء العدو:**

لما فرغ رسول الله ﷺ من عمل الخندق، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم فيما قال ابن هشام، ونزل أمام سَلْع فجعله خلف ظهره والخندق أمامه، وكان عسكره فيما هنالك وضربت له قُبَّةٌ من أدمٍ كانت عند المسجد الأعلى الذى بأصل الجبل – جبل الأحزاب –، وكان المسلمون فيما قالوا: ثلاثة آلاف، ووهم من قال: إنهم كانوا سبعمائة، وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة[4].

وأقبلت قريش ومشركو الجزيرة العربية وحلفاؤها، ونزلوا فى مواطن متعددة ليحكموا خنق المدينة، «فنزلت قريش بمجتمع الأسيال من رومة فى أحابيشها ومن ضوى إليها من بنى كنانة وأهل تهامة.

وأقبلت غطفان ومن تبعهم من آل نجد حتى نزلوا بِذَنَبِ نَقَمَى إلى جانب أحد، فسَرَّحَتْ قريشٌ ركابها فى عضاةِ وادى العقيق، ولم تجد لخيلها هناك شيئاً إلاَّ ما حملت من علفها من الذُّرة.

وسرَّحتْ غطفان إبلها إلى الغابة فى أَثْلها وطرفائها، وكان النَّاس قد حصدوا

---

(١) سورة النور آية ٦٢.
(٢) سورة النور آية ٦٣، ٦٤.
(٣) المرجع السابق ص٣٧١.
(٤) المرجع السابق ص٣٧١.

زرعهم قبل ذلك بشهر وأدخلوا حصادهم وأتبانهم، وكادت خيل غطفان تهلك)[١].

ولما تمركز المشركون واختاروا مواقعهم بعناية حول المدينـة، خـرج عـدو الله حُيَيٌّ بن أخطب اليهودى النضرى حتى أتى كعب بن أسد القُرَظِيّ صاحب عقد بنـي قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاهده على ذلك.

(فلما سمع كعبٌ بحُيَيٍّ أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه حُيَيٌّ: ويحك يا كعب ! افتح لـي ؛ قـال: ويحـك يـا حيـي، إنـك امـرؤ مشئوم، وإني قد عاهدت محمدا، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا ؛ قال: ويحك افتح لي أكلمك ؛ قال: ما أنـا بفاعـل ؛ قـال: والله إن أغلقـت دوني إلا عن جشيشتك[٢] أن آكل معك منها ؛ فـأحفظ الرجـل، ففـتح لـه ؛ فقـال: ويحك يـا كعـب ؛ جئتـك بعـز الـدهر وببحـر طـام، جئتـك بقـريش علـى قادتهـا وسادتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ؛ وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نَقَمَى إلى جانب أحد، قـد عاهـدوني علـى أن لا يبرحـوا حتـى نستأصل محمدا ومن معه!

قال له كعب: جئتني والله بِذُلّ الدهر، وبجهام[٣] قد أُهْرِق ماؤه، فهو يَرْعُد ويَبْرق ليس فيه شيء، ويحك يا حيي ! فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً، فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب، حتى سمح له، على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفـان، ولم يصـيبوا محمـداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعبٌ عهده، وبرئ ممـا كـان بينـه وبين رسول الله ﷺ.

ووعظهم عمرو بن سُعْدى، وخوَّفهم سوء فعالهم وذكَّرهم ميثاق رسول الله ﷺ

(١) المرجع السابق ص٣٧٢.
(٢) طعام: مُكَوَّن من حَبٍّ مجروش يُلقى عليه لحم ويُطبخ.
(٣) الجهام: السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه

وعَهْدَه، وقال لهم: إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوّه فأبَوْا.

و خرج من بنى قريظة إلى رسول الله ﷺ بنو سَعْنَة أسَد وأسِيد وثعلبة، فكانوا معه)[1].

ونقض بنو قريظة العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، فكان حُيَيٌّ مشئوماً وأتاهم بذُلّ الدهر وأغرقهم فى البحر الطامى، وساق جهاماً كعارض قوم عاد.

وعرف الرسول ﷺ غدرهم حين بعث رسول الله ﷺ «سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وهما سيِّدا قومهما، ومعهما عبد الله بن رواحة وخوَّات بن جُبَير – زاد محمد بن عمر: وأُسَيْدَ بن حُضَير – فقال: انطلقوا حتى تنظروا أحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالْحَنُوا إلىَّ لحناً أعرفه ولا تَفُتُّوا فى أعضاد النَّاس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم قد نقضوا العهد، فناشدوهم الله والعهد الذى كان بينهم أن يرجعوا إلى ما كانوا عليه قبل ذلك قبل أن يلتحم الأمر، ولا يُطيعوا حُيىَّ بن أخطب، فقال كعب: لا نرده أبداً، قد قطعتُه كما قطعت هذا القبال – قبال نعله – وقال: مَن رسول الله؟ لا عهد بيننا وبينه، فشاتمهم السعدان ابن معاذ وابن عبادة، وقال أسيد بن حضير لكعب: أتسبُّ سيِّدك يا عدوَّ الله ما أنت له بكفء يا ابن اليهودية، ولتولِّيَنَّ قريش إن شاء الله منهزمين وتتركك فى عقر دارك، فنسير إليك فننزلك من جحرك هذا على حُكْمنا، ورجعوا إلى رسول الله ﷺ، فقال سعد بن عبادة: عَضَل والقَارة، يعنى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع وسكت الباقون)[2].

(١) المرجع السابق ص٣٧٣.

(٢) المرجع السابق ص٣٧٤ بتصريف.

- **آثار النبوة عند اشتداد هذا الأمر وعندما عمّ الكرب:**

عندما علم الرسول ﷺ بغدر بنى قريظة واشتد الأمر وتضاعف الكرب قال لهم: (أبشروا يا معشر المسلمين بنصر الله تعالى: وعونه، إنى لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وآخذ المفتاح – أى مفتاح الكعبة – وليهلكنَّ كسرى وقيصر، ولتنْفقنَّ أموالهم فى سبيل الله)[1]، فأخبر: ما سيقع للمسلمين مستقبلاً.

- **المسلمون يحرسون المدينة ويراقبون الخندق:**

روى محمد بن عمر عن عائشة (قالت: كان رسول الله ﷺ يختلف إلى ثلمة الخندق يحرسها حتى إذا آذاه البرد جاءنى فأدفأته فى حضنى، فإذا دفئ خرج إلى تلك الثلمة، ويقول: ما أخشى أن يؤتى النّاس إلاّ منها، فبينما رسول الله ﷺ فى حضنى قد دفئَ وهو يقول: ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثُّلْمة الليلة فسمع صوت السلاح فقال رسول الله ﷺ: من هذا؟ فقال سعدُ بن أبى وقّاص: سعدٌ يا رسول الله، فقال: عليك هذه الثُّلمة فاحرسها، قالت: فنام رسول الله ﷺ حتى سمعتُ غطيطه.

قال ابن سعد: وكان عبّاد بن بشر والزبير بن العوام على حرس رسول الله ﷺ.

وروى محمد بن عمر عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: كنت مع رسول الله ﷺ فى الخندق، وكنّا فى قُرٍّ شديد – أى: برد –، فإنى لأنظر إليه ليلة قام فصلى ما شاء الله أن يصلى فى قبته، ثم خرج فنظر ساعة فأسمعه يقول: هذه خيل المشركين تُطيف بالخندق، ثم نادى عباد بن بشر، فقال عباد: لبيك. قال: أمعك أحد؟ قال: نعم. أنا فى نفر من أصحابى حول قُبّتك. قال: انطلق فى أصحابك. فأطفْ بالخندق، فهذه خيل المشركين تُطيف بكم، يطمعون أن يصيبوا منكم غِرَّةً، اللهم فادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم واغلبهم فلا يغلبهم أحد غيرك، فخرج عباد فى أصحابه فإذا

---

(١) المرجع السابق.

هو أبو سفيان بن حرب فى خيل المشركين يطوفون بمضيق من الخندق، وقد نذر بهم المسلمون فرموهم بالحجارة والنَّبْل حتى أذلقهم المسلمون بالرمى)[1].

● المنافقون يهربون من المسئولية:

لقد ظهر أثر النفاق فى سلوك المنافقين (فقال مُعَتِّب بن قشير: كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر وأنَّ أموالهما تُنفق فى سبيل الله وأحدنا اليوم لا يأمنُ على نفسه أن يذهب إلى الغائط ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾[2]، وقال رجال مِمَّنْ معه: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾[3]، واجتمعت جماعة من بنى حارثة، فبعثوا أوس بن قَيْظىٍّ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: إن بيوتنا عورة، وليس دار من دور الأنصار مثل دورنا. ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا، فأذنْ لنا فلنرجع إلى دورنا، فنمنع ذرارينا ونساءنا، فأذن لهم رسول الله ﷺ وفرحوا وتهيأوا للانصراف.

بيد أن سعد بن معاذ بلغه ذلك فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله لا تأذن لهم، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدَّةٌ قط إلاَّ صنعوا هكذا، ثم أقبل عليهم فقال: يا بنى حارثة هذا لنا منكم أبداً ما أصابنا وإياكم شدة إلاَّ صنعتم هكذا، فردهم رسول الله ﷺ)[4].

● بنو قريظة يهمون بالإغارة على المدينة:

همَّتْ بنو قريظة بالإغارة على المدينة ليلاً، فبلغ ذلك المسلمين وعمَّ الخطبُ واشتد البلاءُ، ثم كفَّهم الله تعالى: عن ذلك لمَّا بلغهم أن رسول الله ﷺ أرسل سلمةَ بن

(١) سبل الهدى والرشاد ٣٧٥/٤.
(٢) سورة الأحزاب آية ١٢.
(٣) سورة الأحزاب آية ١٣.
(٤) المرجع السابق بتصريف.

أسلم في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة يحرسون المدينة ويظهرون التكبير[1].

- **شجاعة لصفية عمة رسول الله ﷺ:**

خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق وكان قد جعل نساءه وعمته صفيَّة في أُطُم يقال له: فارع، وجعل معهم حسان بن ثابت وشغل بحراسة الخندق، فأقبل عشرة من يهود، فجعلوا ينقمعون ويرمون الحصن، ودنا أحدهم من باب الحصن ورسول الله ﷺ في نحر العدو، ولا يستطيع المسلمون أن يأتوهم، تقول صفيَّة: فأتانا آتٍ من اليهود فقلت لحسان: يا حسَّان قم إليه فاقتله، فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، ولو كان ذلك فيَّ لخرجتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قالت صفية: فلما قال ذلك ولم أر عنده شيئاً احتجزتُ ثم أخذت سيفاً فربطته على ذراعي ثم تقدَّمتُ إليه حتى قتلتُه – وفي لفظ آخر من الحديث – فأخذت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود ضربة شدخت فيها رأسه، فلما فرغت منه رجعت الى الحصن فقلت: يا حسَّان انزل فاستلبه – تعني: خُذْ سَلَبَه من سلاح وغيره– فإنَّه لم يمنعني من سلبه إلا انه رجل.

قال لها حسان: ما لي بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب. تقول: صفية: فقلت له: خذ الرأس وارمِ به على اليهود.

قال لها حسان: ما ذاك فيَّ، فأخذتْ هي الرأس فرمت به على اليهود، فقالوا: قد علمنا أن محمداً لم يترك له خلوفاً ليس معهم أحد.

فأَخْبر رسولُ الله ﷺ بذلك فضرب لصفية بسهم كما يضرب للرجال[2].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق ص٣٧٢

● **الرسول ﷺ يريد أن يحدث تفرقة في جبهة الشرك:**

في رواية لابن إسحاق: بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن بن حذيفة وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان، «فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح، إلا المراوضة في ذلك، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه ؛ فقالا له: يا رسول الله، أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئا أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به، أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما ؛ فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرىً -ضيافة- أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ؛ قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتابة»[1].

● **مناوشات بين المسلمين والمشركين:**

اخترقت خيل المشركين عن طريق مكان ضيِّق من الخندق، فضرب المشركون الخيل فاقتحمت منه فجالت في السبخة بين الخندق وسَلْع، (وخرج عليُّ بن أبي طالب عليه السلام في نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تعنق – أي تسرع – نحوهم، وكان عمرو بن عبد وَدٍّ قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد، فلما كان يوم الخندق خرج

(١) سيرة ابن هشام ٢٦٢/٣.

معلّماً ليُرى مكانُه، فلما وقف هو وخيله قال: مَنْ يبارز؟ فبرز له عليٌّ بن أبي طالب، فقال له: يا عمرو إنك كنتَ عاهدت الله ألا يدعوك رَجُل من قريش إلى إحدى خلّتين إلاّ أخذتها منه، قال له: أجل، قال له عليٌّ: فإني أدعوك إلى الله ورسوله وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى النزال ؛ فقال له: لِمَ يابن أخي ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك، قال له عليٌّ: لكني والله أحب أن أقتلك ؛

فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره، وضرب وجهه، ثم أقبل على عليٍّ، فتنازلا وتجاولا، فقتله عليٌّ ﷺ. وخرجت خيلهم منهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة[١].

و ورد أنه لما نادى عمرو بن عبد وَدٍّ: من يبارز؟ وبالغ في الاستخفاف بالمسلمين قائلاً: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قُتِل منكم دخلها؟ أفلا تُبرزون إليَّ رجلاً؟ فقام عليٌّ فقال: أنا يا رسول الله، فقال الرسول له: اجلس، لكن عَمْراً تمادى في غيِّه، وأخذ يصيح وينشد قائلاً:

وَلَقَدْ بُحِحْتُ مِنَ النِّدا ... ءِ لِجَمْعِهِم هَلْ مِنْ مُبَارِزِ

وَوَقَفْتُ إذْ جَبُنَ المشجّـ ... ـعُ موقِفَ القِرْنِ المُنَاجِزْ

إنَّ الشَّجَاعَةَ فِي الفَتَى ... والجُودَ مِنْ خَيْرِ الغرائِزْ

فقام عليٌّ فقال: يا رسول الله أنا لها.

فقال: إنه عمرو.

قال: وإن كان عَمْراً، فأذن له رسول الله ﷺ فمشى إليه حتى أتاه وهو يقول:

لا تَعْجَلَنْ فَقَدْ أتَاكَ ... مُجِيبُ صَوْتِكَ غَيْرَ عَاجِزْ

فِي نِيَّةٍ وَبَصِيرَةٍ ... وَالصِّدْقُ يُنْجِي كُلَّ فَائِزْ

إنِّي لأرْجُو أنْ أقِيمَ ... عَلَيْكَ نَائِحَةَ الجَنَائِزْ

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٦٣/٣.

مِـــنْ ضَــرْبَةٍ نَجْـــلاءَ يَبْقَـــى ذِكْرُهَـــا عِنْـــدَ الهِزَاهِـــزِ[1]

واندفع عليٌّ فضربه على عاتقه فسقط يتخبَّط فى دمه، وسمع الرسول ﷺ تكبير عليٍّ، فعرف أنه قتله، ولما أقبل عليٌّ عَلَى الرسول وصحبه قال له عمر بن الخطاب: هلاَّ استلبته درعه فإنَّه ليس للعرب درع خير منها.

فقال: استحييت أن أسلبه درعه وسوءتُه مكشوفة.

وفى هذا الموقف يقول عليٌّ بن أبى طالب:

عَبَدَ الحِجَـارَةَ مِـنْ سَـفَاهَةِ رَأْيِـهِ وَعَبَـدْتُ رَبَّ مُحَمَّـدٍ بِصَـوَابِ

فَصَـدَرْتُ حِـينَ تَرَكْتُـهُ مُتَجنـدلاً كَالجِـذْعِ بَـيْنَ دَكَـادِكٍ وَرَوَابِـي

وَعَفَفْـتُ عَـنْ أثْوَابِـهِ وَلَـوَ انَّنِـي كُنْـتُ المُجَنْـدَلَ بَزَّنِـي أثْـوَابِي

لا تَحْسَـبَنَّ اللهَ خَـاذِلَ دِينِـهِ وَنَبِيِّـهِ يَـا مَعْشَـرَ الأحْـزَابِ[2]

و بعد قتل عمرو فرَّ عكرمة بن أبى جهل وضرارُ بن الخطاب وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ونوفل بن معاوية الذين دخلوا معه، فرُّوا هاربين يجرون أذيال الخزى.

- **فرجٌ بعد ضيق ويُسرٌ بعد عُسر:**

اشتد البلاء على المسلمين، وضاقت عليهم الدنيا بما رحبت، ولقد وصف الله حالهم هذا بقوله: ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا، وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾[3].

ظلت هذه الحالة النفسية ملازمةً للمسلمين حتى فرّق الله الأحزاب وفى أثناء

(١) القول المبين فى سيرة سيد المرسلين ص٢١٠.
(٢) سيرة ابن هشام ٣/٢٦٣.
(٣) سورة الأحزاب آية ١٠ - ١٢.

هذه الروح اليائسة التى تتحرك فى صدور المسلمين.

أتى نُعَيم بن مسعود بن عامر بن أشجع إلى رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء، فوجده يصلى فلما رآه جلس ثم قال له: ما جاء بك يا نُعَيْم؟

فقال يا رسول الله: إنى قد أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، وأخبره «أنَّ قريشاً تحزَّبوا عليه، وأنهم بعثوا إلى قريظة يائسين أنه قد طال ثواءُنا - أى مقامنا حول يثرب -، وأجدب ما حولنا، وقد جئنا لنقاتل محمداً وأصحابه فنستريح منه، فأرسلتْ إليهم قريظة: نِعْمَ ما رأيتم، فإذا شئتم فابعثوا بالرهن ثم لا يحبسكم إلاَّ أنفسُكُم، فقال رسول الله لنعيم: فإنهم قد أرسلوا إلىَّ يدعوننى إلى الصلح وأردُّ بنى النضير إلى ديارهم وأموالهم.

فقال نعيم: يا رسول الله فمرنى بما شئتَ، والله لا تأمرنى بأمر إلاَّ مضيتُ له، قال: وقومى لا يعلمون بإسلامى ولا غيرهم، فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذِّل عنا النَّاس ما استطعت فإن الحرب خدعة، فقال: أفعل، ولكن يا رسول الله إنى أقول فأذن لى فأقول: قال له: «قل ما بدالك فأنت فى حِلّ» قال نعيم: فذهبتُ حتى جئت بنى قريظة، فلما رأونى رحَّبوا بى وأكرمونى وعرضوا علىَّ الطعام والشراب، فقلت: إنى لم آتِ لطعام وشراب، وإنما جئتكم نَصِباً بأمركم/ وتَخوُّفاً عليكم لأشير عليكم برأى وقد عرفتم وُدِّى إياكم وخاصَّة ما بينى وبينكم، فقالوا: قد عرفنا ولستَ عندنا بمتَّهم، وأنت عندنا على ما نحب من الصدق والبرِّ، قال: فاكتموا عنِّى قالوا: نفعل.

قال: إنَّ أمر هذا الرجل بلاء - يعنى رسول الله -، صنع ما رأيتم ببنى قينقاع وبنى النضير، وأجلاهم عن بلادهم بعد قبض الأموال، وإنَّ ابن أبى الحقيق قد سار فينا فاجتمعنا معه لننصركم، وأرى الأمر قد تطاول كما ترون، وإنكم والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة، أمَّا قريش وغطفان فإنهم قوم جاءوا سيَّارةً حتى نزلوا حيث رأيتم، فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإن كانت الحرب

فأصابهم ما يكرهون انشمروا إلى بلادهم وأنتم لا تقدرون على ذلك، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وقد كَبُر عليهم جانب محمد أجلبوا عليه بالأمس إلى الليل فقتل رأسهم عمرو بن عبد ودٍ وهربوا منه مجروحين لا غنى بهم عنكم لما يعرفون عندكم، فلا تقاتلوا مع قريش ولا غطفان حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم تستوثقون به منهم ألاّ يبرحوا حتى يناجزوا محمداً، قالوا: أشرتَ علينا بالرأى والنُّصح، ودعوا له وشكروه، وقالوا: نحن فاعلون، قال: ولكن اكتموا علىَّ. قالوا: نفعل.

ثم أتى نُعيم أبا سفيان بن حرب فى رجال من قريش، فقال: يا أبا سفيان جئتك بنصيحة فاكتم علىَّ، قال: أجل. قال: تَعلم أنَّ بنى قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد فأرادوا إصلاحه ومراجعته، أرسلوا إليه وأنا عندهم: إنا سنأخذ من قريش وغطفان من أشرافهم سبعين رجلاً، نسلمهم إليك تضرب أعناقهم وتَرُدُّ جناحنا الذى كسرتَ إلى ديارهم - يعنون بنى النضير -، ونكون معك على قريش حتى نردَّهم عنك، فإن بعثوا إليكم يسألونكم رهناً فلا تدفعوا إليهم شيئاً، واحذروهم على أشرافكم، ولكن اكتموا عنى ولا تذكروا من هذا حرفاً. قالوا: لا نذكره.

ثم أتى إلى غطفان فقال: يا معشر غطفان قد عرفتم أنى رجل منكم فاكتموا علىَّ واعلموا أن بنى قريظة بعثوا إلى محمد... (و قال لهم مثل ما قال لأبى سفيان)، فاحذروا أن تدفعوا إليهم أحداً من رجالكم، فصدقوه)[1]

ولم ييأس نُعَيْم بل ظل يتقن خدعته ليفرق الأحزاب، وله فى ذلك أجر وهو جند من جنود الله الذين أرسلهم، بَيْدَ أن جنود الله فى تلك الغزوة لم تُر بل هو جند مرئى.

(ولما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢٨٣/٤ - ٢٨٥.

بن أبى جهل ونفراً من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخفُّ والحافر – أى الإبل والخيل –، فأعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم، وإنا لسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن ضرَبَتْكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تُشَمِّروا إلى بلادكم وتتركونا والرجلُ فى بلادنا فلا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالتْ بنو قريظة قالت قريش وغطفان: إن الذى ذكر نعيمٌ لحقٌ فأرسلوا إلى بنى قريظة: إنا والله ما ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا.

فقالت بنو قريظة لما سمعوا ذلك: إن الذى ذكر لكم نعيم لحقٌ، ما يريد القومُ إلاَّ أن يقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلُّوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم، وتكرَّرتْ رسلُ قريش وغطفان إلى بنى قريظة وهم يردون عليهم بما تقدم، فيئس هؤلاء من هؤلاء، فاختلف أمرهم وخذَّل الله تعالى بينهم على يد نعيم بن مسعود ﷺ [1].

- **إرسال الله الريحَ والجنودَ على المشركين وهزيمتهم:**

كان حفر الخندق وتحمُّلُ المشقة فى ترسيمه وإعداده لمواجهة الأحزاب حتى لا يصلوا إلى داخل المدينة والعبث بأهلها، كان هذا اختباراً فى عقيدتهم وصقلاً لهم، فإنَّهم سيواجهون حروباً كثيرة، فالله أراد لهم هذا الاختبار، وكان حصار الأحزاب لهم بلاء كذلك، قال تعالى: ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣٨٤/٤ – ٣٨٦.

وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا﴾

ومن رحمة الله بهم أن البلاء لم تطُلْ أيامُهُ فحين تحقق الهدف من الامتحان والاختبار أدركتهم رحمة الله، فكانت نعمة منه، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

ففي رواية لابن إسحاق: (وبعث الله عليهم الريح في ليال باردة شاتية، فجعلت تَكْفَأُ قدورَهم، وتطرح أبنتيهم، وروى ابن سعد عن سعيد بن جبير قال: لما كان يوم الخندق أتى جبريل ومعه الريح فقال رسول الله ﷺ حين رأى جبريل: ألا أبشروا ثلاثاً، فأرسل الله تعالى: عليهم الريح فهتكت القِبابَ وكَفَأَت القدورَ، ودفنت الرجال، وقطعت الأوتاد، فانطلقوا لا يلوى أحد على أحد، وروى الإمام أحمد والشيخان والنَّسائيُّ عنه أن رسول الله ﷺ قال: نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُور[1]. وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: بعث الله تعالى: عليهم الريح والرعب كلما بَنَوْا بناءً قطع اللهُ أطنابه [2]، وكلما ربطوا دابَّةً قطع الله رباطها وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، حتى لقد ذكر لنا أن سيِّد كل حيٍ يقول: يا بني فلانٍ هَلُمَّ إليَّ حتى إذا اجتمعوا عنده قال: النجاءَ النجاءَ أُتيتمُ، لِمَا بعثُ اللهُ تعالى عليهم من الرعب.

قال أبو الخطَّاب بن دحية: هذه الملائكة بعثها الله تعالى: ، فنفثت في رُوعهم الرعبَ والفشل، وفي قلوب المؤمنين القوةَ والأمل، وقيل: إنما بعث الله الملائكة تزجر خيلَ العدوِّ وإبلَهم، فقطعوا مدة ثلاثة أيام في يوم واحد فارين منهزمين)[3].

(١) الصبا: ريح تهب من المشرق. والدَّبور: ريح تهب من الغرب.

(٢) أطناب: جمع: طُنُبُ: بضم الطاء وسكون النون وضمها: حبل يُشدُّ به الخباء والسرادق.

(٣) سبل الهدى والرشاد ٣٨٦/٤، ٣٨٧.

● **الرسول ﷺ يبعث حذيفة في قلب العدوّ ليأتيه بأخبارهم**

بعد أن أرسل الله الريح والجنود على الأحـزاب، ودبَّ الرعـب فـي قلـوبـهم، وصاح كلّ سيِّد فى قومه: النجاءَ النجاءَ، وشعروا بأن المسلمين يهاجمونهم، إذا بهم يفرّون بجلودهم، وأثناء تفرقهم ورحيلهم أرسل الرسول إليهم حذيفـة بـن اليمـان وسط الأعاصير التى تزمجر والبرد الذى يُمرضُ ويقتل.

روى الإمام مسلم بسنده (عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ. فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ. فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟" فَسَكَتْنَا. فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: "أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّـهُ مَعِـي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟" فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. ثُمَّ قَالَ: "أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَـرِ الْقَـوْمِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟" فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: "قُمْ يَـا حُذَيْفَـةُ! فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ" فَلَمْ أَجِدْ بُدّاً، إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ)[1].

وفى رواية: (فقلت: يا رسول الله مُرْنـي بمـا شـئت، فقـال رسـول الله ﷺ: اذهب حتى تدخل بين ظهرى القوم فأتِ قريشا فقل: يا معشر قـريش: إنمـا يريـد النَّاس إذا كان غدا أن يقولوا: أيـن قـريش؟ أيـن قـادة النَّـاس؟ أيـن رؤوس النـاس؟ فيقدِّموكم فتصلوا القتال فيكون القتل فيكم. ثم ائت كنانة فقل: يا معشر بنى كنانة: إنما يريد الناس إذا كان غداً أن يقولوا: أين بنى كنانة أين رماة الحـدَق؟ فيقـدموكم فَتَصْلَوا القتالَ، فيكون القتل فيكم، ثم ائت قيساً فقل: يـا معشـر قـيس إنمـا يريـد الناس إذا كان غدا أن يقولوا: أين قيس؟ أين أحلاس الخيل؟ أين الفرسان؟ فيقدموكم فَتَصْلَوا القتال فيكون القتل فيكم.

---

(١) رواه البيهقى.

ثم قال لي: ولا تحدث في سلاحك شيئا

فقال حذيفة: فخرجتُ حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نارٍ لهم تُوقد، وإذا رجل أدْهَم ضخم، يقول بيده على النار ويمسح خاصرته وحوله عُصْبَةٌ، قد تفرَّق عنه الأحزاب وهو يقول: الرَّحيلَ الرحيلَ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهماً من كنانتى أبيض الريش، فوضعته فى كبد القوس لأرميه فى ضوء النار، فذكرتُ قول رسول الله ﷺ: لا تُحدِثَنَّ فى القوم شيئاً حتى تأتينى،فأمسكتُ ورددتُ سهمى، فلما جلست فيهم أحسَّ أبو سفيان أن قد دخل فيهم غيرهم فقال: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه – وفى لفظ: فلينظر مَنْ جليسه – فضربت يدى على يد الذى عن يمينى فأخذتُ بيده فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبى سفيان، ثم ضربت بيدى على يد الذى عن شمالى فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص، فعلتُ ذلك خشية أن يُفْطن بى فبدرتُهم بالمسألة، ثم تلبثتُ فيهم هنيهة، وأتيتُ بنى كنانة وقيساً وقلتُ ما أمرنى به رسول الله ﷺ، ثم دخلتُ العسكر فإذا أدنى النَّاس منى بَنو عامر ونادى عامرٌ بن علقمة: يا بنى عامر إن الريح قاتلتى وأنا على ظهرٍ، وأخذتْهم ريح شديدة وصاح بأصحابه، فلما رأى ذلك أصحابه جعلوا يقولون: يا بنى عامر الرحيل، لا مقام لكم، وإذا الريح فى عسكر المشركين ما تجاوز عسكرهم شبراً فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفُرُشِهم والريح تضرب بها، حتى رأيت أبا سفيان وثب على جمل له معقول، فجعل يستحثه ولا يستطيع أن يقوم حتى حُلَّ بعدُ، ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فلما انتصف بى الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بعشرين فارساً أو نحو ذلك مُعْتَمِّين قالوا: وفى لفظ فارسين[1] ، فقالا: أخبر صاحبك أن الله تعالى: كفاه القوم بالجنود

---

(١) الفرسان: الملائكة، والفارسان: جبريل وميكائيل، ويحتمل أنه قابل العشرين من الملائكة أولاً وبعدهم رأى الفارسين.

والريح، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل فى شملةٍ يصلِّى، فوالله ما عدا أن رجعتُ راجعنى القرُّ – البرد – وجعلتُ أُقَرْقِفُ – أرتعش – فأومأ – أشار – إلىَّ رسول الله بيده وهو يصلى، فدنوتُ منه فسَدَل علىَّ من فضل شملته، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلَّى، فأخبرته خبر القوم وأنى تركتُهم يرحلون فلم أزل نائماً حتى جاء الصبح فلما أنْ أصبحتُ قال رسول الله ﷺ: قم يا نومان[1]. وكانت مدة إقامة المشركين حول الخندق خمسة عشر يوماً، وقيل: بضع عشرة ليلة، وقيل: أربعاً وعشرين ليلة، وقيل: عشرين يوماً.

- **أثر من آثار النبوة:**

لقد فرَّقت الأعاصير أعداء الله، واقتلعت خيامهم، وكفأتْ قدورهم، وضربتهم بالحجارة، وتسلل البرد إلى عظامهم، فسُلِبَتْ قدرتهم، وقلَّتْ حركتهم، فصاح الأحزاب جميعاً: الرحيل الرحيل، وبعد انبلاج الصبح الذى طال ليلة على المسلمين، ولكنه كان أشد طولاً على المشركين، بيد أنه لم يكن له صبح عليهم، بل فروا إلى مواطنهم فى شبه الجزيرة، وكأنَّ أحداث الخندق وحصار الأحزاب سينغصان على المسلمين حياتهم حينما يجولان بالخواطر، وربما يجول بخواطرهم أن الأحزاب ربما يفكرون فى هذه الفكرة مرة أخرى، فقطع رسول الله ﷺ تلك الأفكار بالإخبار بأثر من آثار النبوة، وهو أن قريشاً لن تغزُوهم أبداً بل المسلمون هم الذين سيغزونهم ويفتحون مكة، فلقد روى أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى دلائل النبوة بسندهما عن قتادة – رحمه الله: (أن رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب قال: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، وقال ابن إسحاق: فلم تَعُد قريش بعد ذلك، وكان رسول الله ﷺ يغزوهم بعد ذلك حتى فتح مكة[2]. وانتهت غزوة الخندق أو الأحزاب بمعالم الخلود فيها.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣٨٨/٤، ٣٨٩.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٣٨٩/٤.

غزوة بنى قريظة

زالت الغيوم عن جو المدينة، وتبدَّدت السحب السوداء، ورحل الأحزاب، وطفق المسلمون يستريحون من الشدائد التى تعاقبت عليهم، وشرعوا يلتقطون أنفاسهم، وإذا بجبريل عليه السلام يأتى رسول الله ﷺ يخبره بأن الملائكة لم تضع السلاح، وعليه أن يواصل هو والمسلمون المسير إلى بنى قريظة الذين نقضوا العهد، واعتدوا على جزء من المدينة، فهم والأحزاب سواء.

روى البيهقى فى دلائل النبوة بسنده (عن عائشة زوج النبى ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان عندها، فسلَّم علينا رجل ونحن فى البيت، فقام رسول الله ﷺ فَزِعاً، فقمتُ فى أثره فإذا بدحيةَ الكلبى فقال: هذا جبريل يأمرنى أن أذهب إلى بنى قريظة، فقال: قد وضعتم السلاح لكنَّا لم نضَعْ، طلبْنا المشركين حتى بلغنا حمراء الأسد وذلك حين رجع رسول الله ﷺ من الخندق، فقام النبى فزعاً، فقال لأصحابه عزمت – أوْجَبْتُ – عليكم ألاَّ تُصلُّوا صلاة العصر حتى تأتوا بنى قريظة فَغَربت الشمس قبل أن يأتوهم، فقالت طائفة من المسلمين: إن النبى ﷺ لم يُرِدْ أن تَدَعوا – أى تتركوا – الصلاة فَصَلُّوا، وقالت طائفة: والله إنا لفى عزيمة النبى ﷺ، وما علينا من إثم، فصلَّتْ طائفة إيماناً واحتساباً، وتركتْ طائفة إيماناً واحتساباً، ولم يعب النبى ﷺ واحداً من الفريقين.

وخرج النبى ﷺ فمرَّ بمجالس بينه وبين بنى قريظة فقال: هل مرَّ بكم من أحدٍ؟ قالوا: مرَّ علينا دحيةُ الكلبى على بغلة شهباءَ تحته قطيفةُ ديباج، فقال النبى ﷺ: ليس ذلك بدحية ولكنَّه جبريل عليه السلام أُرْسِلَ إلى بنى قريظة ليزلزلهم ويقذفَ فى قلوبهم الرعب، فحاصرهم النبىُّ ﷺ).

- **إساءة بنى قريظة وسبُّ النبى ﷺ:**

لقد اعتاد هؤلاء السفهاء سبَّ رسول الله ﷺ، فلقد سبُّوه حينما ذهب السعدان ابن معاذ وابن عُبادة لتذكيرهم العهد الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ، وحثهم على

ترك مساندة الأحزاب، فسبوا الرسول ﷺ، ورد عليهم سعد بن معاذ ووعدهم بالانتقام منهم بعد رحيل الأحزاب، وقبل أن يصل الرسول إليهم لقتالهم كان قد سبقه عليٌّ بن أبى طالب.

يروى البيهقى فى دلائل النبوة: (فلما رأى علي بن أبي طالب رسول الله ﷺ مقبلاً تلقَّاه وقال: ارجع يا رسول الله فإن الله كافيك اليهودَ، وكان عليٌّ قد سمع منهم قولاً سيئاً لرسول الله ﷺ وأزواجه –رضي الله عنهن– فكَرِهَ أن يسمع ذلك رسولُ الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : لِمَ تأمُرُني بالرجوع؟ فكتمه ما سمع منهم، فقال: أظنك سمعت فيَّ منهم أذىً، فامض فإنَّ أعداء الله لو رأوني لم يقولوا شيئا مما سمعت).

● **ما أشبه الليلة بالبارحة وسبُّ الأمس سبُّ اليوم:**

فى أواخر عام ألفين وخمسة وأوائل ألفين وستة، وفى دولة من دول أوربا هى الدنمارك، فى هذا البلد صَدَرت صحيفةٌ رَسَمَ أحد مُحرِّريها صوراً كثيرةً تهزأ بمُعَلِّم الإنسانية ورسول الإسلام، أثارت حفيظة المسلمين، وهبُّوا لمقاطعة بضائع هذا البلد التى غمرت الأسواق الإسلامية، وكانت الأسواق الخليجية أشدَّ غمرة من غيرها، واشتعلت المظاهرات والاحتجاجات فى شوارع الأمة الإسلامية، والذين لا يعنيهم دينهم يحاولون تهدئة النَّاس بأساليب النفاق، ولم يحرك ملوك الأمة الإسلامية ساكناً، وأثناء اشتعال نيران الغضب نشرت الدول الأوربية نفس الصور دون مراعاة لشعور أمة تغلى دماؤها من الغضب غليان القِدر على النار، ومَنْ سَبَر غَوْر هذه الأحداث أدرك أن وراءها اليهود، فهم المحرِّكون للسياسة الأمريكية والأوربية، والمسيطرون على الاقتصاد العالمى. اعترف بذلك أصحاب العقول أم تغابوا، وما قالته بنو قريظة لعلىٍّ بن أبى طالب فعلته الدول الأوربية التى يحركها اللوبى اليهودى، فليست الإساءة إلى النبى ﷺ حديثةً بل هى قديمة تتجدد على ألسنة كلِّ جيل،

وظهرتْ جليةً في عصرنا هذا للتقدم العلمي والتكنولوجي، واختراق الفضائيات كل منزل على الكرة الأرضية، فهذه الإساءة بنت اليهود.

- **الرسول ﷺ يحاصر بني قريظة:**

روى البيهقي في دلائل النبوة أنَّه (لما نزل رسول الله ﷺ بحصنهم وكانوا في أعلاه، نادى بأعلى صوته نفراً من أشرافها حتى أسمعهم فقال: أجيبوا يا معشر يهود يا إخوة القردة قد نزل بكم خزي الله، فحاصرهم رسول الله ﷺ بكتائب المسلمين بضع عشرة ليلة، وردَّ الله حُيَي بن أخطب حتى دخل حصن بني قريظة، وقذف الله ﷻ في قلوبهم الرعب واشتد عليهم الحصار فصرخوا بأبي لبابة بن عبد المنذر –وكانوا حلفاء الانصار– فقال أبو لبابة: لا آتيهم حتى يأذن لي رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: قد أذنت لك).

- **أبو لبابة تنزلق قدمه بإشارته لبني قريظة بالقتل:**

(فأتاهم أبو لبابة – بعد إذن الرسول ﷺ – فقام بنو قريظة إليه فبكوا وقالوا: يا أبا لبابة ماذا ترى؟ وماذا تأمرنا؟ فإنه لا طاقة لنا بالقتال، فأشار أبو لبابة بيده الى حلقه، وأمَرَّ عليه أصابعه، يريهم إنما يراد بكم القتل، فلما انصرف أبو لبابة سُقط في يده، ورأى أنه قد أصابته فتنة عظيمة، فقال: والله لا أنظر في وجه رسول الله ﷺ حتى أُحْدِثَ لله ﷻ توبة نصوحاً يعلمها الله ﷻ من نفسي، فرجع إلى المدينة فربط يديه الى جذع من جذوع المسجد، فزعموا أنه ارتبط قريباً من عشرين ليلة، فقال رسول الله ﷺ كما ذُكِر حين رَاثَ[1] عليه أبو لبابة: أما فرغ أبو لبابة من حلفائه؟ قالوا : يا رسول الله قد والله انصرف من عند الحصن، وما ندرى أين سلك، فقال رسول الله ﷺ : وقد حدث لأبى لبابة أمْرٌ ما كان عليه، فأقبل رجل من عند المسجد فقال: يا رسول الله قد رأيتُ أبا لبابة ارتبط بحبل إلى جذع من

---

(١) راث عليه أبو لبابة : غاب عليه.

جذوع المسجد فقال رسول الله ﷺ : لقد أصابته بعدى فتنة، ولو جاءنى لاستغفرت له فإذْ فَعَلَ هذا فلن أُحَرِّكَه من مكانه حتى يقضى الله فيه ما يشاء)[1].

وفى رواية لابن إسحاق: (أن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السَّحَر، وهو في بيت أم سلمة، فقالت أم سلمة : فسمعت رسول الله ﷺ من السَّحَر وهو يضحك. قالت: فقلت: مم تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنَّك؛ قال: تِيب على أبي لبابة؛ قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى، إن شئت. قال: فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يُضرب عليهنّ الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك، قالت: فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال : لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده ؛ فلما مر عليه رسول الله ﷺ خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه)[2].

- **حكم سعد بن معاذ في بني قريظة :**

روى البيهقى بسنده عن موسى بن عقبة قال: (و قال رسول الله ﷺ حين سألوه – أى بنو قريظة – أنْ يُحَكِّم فيهم رجلاً فقال لهم: اختاروا مَنْ شئتم من أصحابى، فاختاروا سعد بن معاذ، فرضى بذلك رسول الله ﷺ، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأمر رسول الله ﷺ بسلاحهم فجعل فى قبته، وأمر بهم فكُتِّفُوا وأوثقوا وجعلوا فى دار أسامة، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأقبل على حمارٍ أعرابى يزعمون أن وطأة بَرْذَعته من ليف، واتبعه رجل من عبد الأشهل، فجعل يمشى معه ويعظم حق بنى قريظة ويذكر حلفهم والذى أبلوه يوم بعاث، ويقول: اختاروك على مَنْ سواك من قومك رجاء رحمتك وعطفك وتحنُّنك عليهم، فاستبقهم فإنهم لك جمال وعدد.

---

(١) دلائل النبوة.

(٢) سيرة ابن هشام ٢٦٨/٣.

فأكثر ذلك الرجل ولا يُرْجع إليه سعد شيئاً حتى دنوا، فقال الرجل: ألا ترجعُ إليَّ فيما أُكلِّمك فيه فقال سعد: قد آن لى أن لا تأخذنى فى الله لومةُ لائم ففارقه الرجل فأتى قومه، فقالوا: والله ما وراءك فأخبرهم أنه مُسْتَبقيهم وأخبره بالذى كلَّمه به والذى رجع سعدٌ إليه، فحكم فيهم أن تُقْتَلَ مُقاتِلتُهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم وتُقَسَّمُ أموالهم.

فذكروا أن رسول الله ﷺ قال لسعد: لقد حكمتَ فيهم بحكم الله ﷻ. فقتل رسول الله ﷺ مُقاتِلَتَهم، وكانوا زعموا ستمائة مقاتل قُتلوا، وزعموا أنَّ دماءهم بلغت أحجار الزيت التى كانت بالسوق، وسبى نساءهم وذراريهم وقَسَمَ أموالهم بين من حضر من المسلمين)(١).

أمَّا حُيىُّ بن أخطب عدوُّ الله الذى جمع مشركى الجزيرة العربية لاستئصال شأفة المسلمين، ووسوس إلى بنى قريظة بنقض عهدهم مع رسول الله ﷺ ، فلقد أُتِى به «مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أمَا والله ما لمتُ نفسى فى عداوتك، ولكنَّه مَنْ يَخذُل اللهَ يُخْذَل، ثم أقبل على النَّاس فقال: أيها النَّاس إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتَبَها الله على بنى إسرائيل، ثم جلس فضُربتْ عُنُقه.

وعن السيدة عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت : لم يُقْتَلْ من نسائهم إلاَّ امرأة واحدة قالت: والله إنها لعندى تتحدث معى وتضحك، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها فى السوق إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة؟ قالت: أنا والله، قالت: قلتُ لها: ويلك مالكِ؟ قالت: أُقْتَل. قلت: ولِمَ؟ قالت: لحدث أحدثته. فانْطُلِق بها فَضُرِبَتْ عُنُقها. فكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجباً منها طيبَ نفسِها وكثرة ضحكها وقد عَرَفَتْ أنها تُقْتَل.

---

(١) دلائل النبوة.

قال ابن هشام: وهى التى طَرَحَتْ الرَّحا على خلاَّد بن سويد فقتلتْه)[1].

وهكذا انتهت أحداث بنى قريظة.

- **موت سعد بن معاذ:**

روى البيهقى فى الدلائل بسنده عن السيدة عائشة (أنها كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز حصون المدينة، وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن، قالت عائشة: وذلك قبل أن يُضْرب علينا الحجاب، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه حين خرجوا إلى الخندق رفعوا الذرارى والنساء فى الحصون مخافةَ العَدُوِّ عليهم. قالت عائشة : فمر سعد وعليه درع له مقلَّصةٌ – قصيرة– قد خرجت منها ذراعه كلها وفي يده حربته تَوَقَّد.

فقالت له أمُّ سعد: ألْحِقْ يا بُني فقد والله أخَّرت. فقالت عائشة: يا أم سعد والله لوددت أن درع سعدٍ كانت أسبغَ مما هي . فخافت عليه حيث أصاب السهم منه)

وفي رواية لابن إسحاق ساقها البيهقي: (قال ابن إسحاق: فرماه فيما حدثني عاصم بن عمر حبَّانُ بن قيس بن العَرِقَة بسهم فقطع من سعدٍ الأكْحَل[2]، فلما أصابه قال: خذها مني وأنا ابن العَرَقة، وكان أحد بني عامر بن لؤى، فقال سعد: عَرَّق الله وجهك في النار، وقال سعد: اللهم إن كنت أبقيتَ من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قومٌ أحبُّ إليَّ أن أجاهد من قوم آذوْا رسولَك وكذَّبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ولا تمتني حتى تُقِرَّ عيني من بني قريظة)، فلما انقضى أمر بنى قريظة انفجر جرح سعد فمات منه شهيداً كما تمنى، ومات سعد بن معاذ.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٧٠/٣.

(٢) الأكحل: وريد وسط الذراع.

وأورد السهيلى فى الروض الأنف[1] أحاديث موت سعد بن معاذ، (وفى بعض ألفاظه: أن جبريل عليه السلام نزل حين مات سعد مُعْتَجِراً - مُعْتَماً- بعمامة من إستبرق، فقال: يا محمد مَنْ هذا الميِّت الذي فُتِحَتْ له أبواب السماء واهتز له العرش ؟ وفي حديث آخر : قال عليه السلام : لقد نزل لموت سعد بن معاذ سبعون ألف مَلَكٍ ما وطئوا الأرض قبلها، ويذكر أن قبره وجد منه رائحة المسك، وقال عليه السلام: لو نجا أحد من ضغطة القبر لنجا منها سعد. وفي كتاب الدلائل أن النبي ﷺ جلس على قبر سعد حين وُضع فيه فقال : سبحان الله لهذا العبد الصالح ضُمَّ في قبره ضمَّةً ثمَّ فُرِجَ عنه، وأما ضغطة القبر التي ذكر في الحديث فقد روي عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : يا رسول الله ، ما انتفعت بشيء منذ سمعتُك تذكر ضغطة القبر وضمَّته، وصوت منكر ونكير، فقال : يا عائشة إن ضغطة القبر على المؤمن أو قال: ضمة القبر على المؤمن كضمَّة الأمِّ الشفيقة يديها على رأس ابنها يشكو إليها الصداع وصوت منكر ونكير كالكحل في العين، ولكن يا عائشة ويل للشاكِّين في الله، أولئك الذين يضغطون في قبورهم ضغط البيض على الصخر).

يقول السهيلى[2]: (وقد تكلم الناس في معناه - أى اهتزاز العرش- وظنوا أنه مشكل، وقال بعضهم: الاهتزاز ها هنا بمعنى الاستبشار بقدوم روحه، وقال بعضهم : يريد حملة العرش ومن عنده من الملائكة استبعاداً منهم لأن يهتز العرش على الحقيقة، ولا بُعد فيه لأنه مخلوق وتجوز عليه الحركة والهزة ولا يُعْدَل عن ظاهر اللفظ).

(١) الروض الأُنُف، على هامش سيرة ابن هشام ٢٣٥/٣.
(٢) المرجع السابق ص٢٨٥.

معالم العظمة والخلود فى عمرة الحُدَيبيَّة[1]
والأحداث المترتبة عليها

لقد أجبرت قريشٌ الرسول والمسلمين على الهجرة بعد إصرارها على طردهم من مكة بعد إحكام القبضة عليهم، وخنقهم بأساليب القهر والظلم، حتى صارت مكة جحيماً لا يُطيقه المسلمون، فخرجوا مُجْبَرين مهاجرين إلى المدينة المنورة، وصاروا مجبرين على مواجهة قريش، فنالوا من قريش فى كل المواطن، ونالت منهم فى أُحد، ومع هذا كان المسلمون تَهْوى أفئدتهم إلى مكة، وتهوى قلوبهم إلى البيت العتيق، فكانوا يتحرَّقون شوقاً لزيارة البيت، وظهر ذلك فى قول بلال بن رباح:

ألا ليتَ شعري هَلْ أبيتَنَّ ليلةً ... بفج وحولي أذخر وجليلُ
وهَل أرِدَنْ يوماً مياه مَجَنةٍ ... وهل يبدونَ لي شامةٌ وطفيلُ[2]

والفج: موضع خارج مكة، وشامة وطفيل: جبلان فى مكة.

وكان رسول الله ﷺ يشعر بذلك من كلام أصحابه، ورأى رسول الله ﷺ أنه يعتمر هو والمسلمون، ويدخلون مكة محلقين رءوسهم ومقصرين، ففرح المسلمون فرحاً شديداً، وفى شهر ذى القعدة فى أواخر سنة ست من الهجرة خرج الرسول ﷺ معتمراً ومعه أصحابه، ولحق بهم بعض العرب فصارت عدتهم ألفاً وأربعمائة (خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظما له)[3].

وقد اختلف العلماء فى عدد من خرج مع سيد البشر ﷺ فقال بعضهم: كان

---

(١) الحُدَيبية: بتخفيف الياء الثانية وفتحها، ويجوز تشديدها، وهى شجرة كبيرة مقوسة بالقرب من مكة.
(٢) البيتان ذكرهما د/ الطيب النجار فى كتابه "القول المبين" ص٢٤٢.
(٣) سيرة ابن هشام ٢٤/٤.

النَّاس سبعمائة، ولا تعارض مع من قال: ألفاً وأربعمائة، فقد خرجوا من المدينة سبع مائة وانضم إليهم عند السير كثير من العرب، فصاروا ألفاً وأربعمائة.

(وخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بعُسْفَان لقيه بشر بن سفيان الكعبي، - قال ابن هشام: ويقال بِسْر - فقال: يا رسول الله، هذه قريش، قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل[1]، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طَوَى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدَّموها إلى كُراع الغَميم.

قال: فقال رسول الله ﷺ: يا ويح قريش ! لقد أكلتْهم الحربُ، ماذا عليهم لو خَلُّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة)[2].

● **الرسول يسلك طريقاً غير طريق قريش:**

ولما كان الرسول ﷺ قد خرج لأداء العمرة وهو لا يريد حرباً، وكعرب الجزيرة يقصدون البيت الحرام، فله الحق أن يدخل مكة كبقية العرب، ولكن قريشاً خرجتْ بجيش لتمنعه من الدخول، وعلم الرسول ﷺ بخروجهم فقال: (من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ قال ابن اسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رجلا من أسلم قال: أنا يا رسول الله فسلك بهم طريقاً وعراً أجرل بين شعاب. فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين فأفضوا الى أرض سهلة عند منقطع الوادي قال رسول الله ﷺ: قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه. فقالوا ذلك،

(١) العُوذُ: الإبل التى وضعتْ أولادها. والمطافيل: أولاد الإبل معها.
(٢) المرجع السابق ص ٢٥.

فقال: والله إنها للحِطَّة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها – وظل رسول الله يسير – حتىإذا سلك فى ثنية المُرار بركت ناقته فقال النَّاس: خَلأَتْ[1] الناقة.

- **سبب بُروك ناقة رسول الله ﷺ:**

بيَّن الرسول ﷺ سبب بروك ناقته فقال لهم: ما خلأتْ وما هو لها بخلق، ولكن حَبَسها حابسُ الفيل – أى الذى أبرك فيلَ أبرهة حينما توجه لهدم الكعبة – ثم قال: لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلاَّ أعطيتهم إياها. وقال ذلك حتى لا يدخل فى حرب مع قريش فى أرض الحرم.

- **أثر من آثار النبوة:**

ثم قال رسول الله ﷺ للناس: انزلوا، قيل له: يا رسول الله، ما بالوادى ماء ننزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به فى قليب من تلك القُلُب فغرزه فى جوفه، فجاش بالرواء حتى ضرب النَّاس عنه بعطن[2] وشربوا[3].

- **سُفراء بين رسول الله ﷺ وقريش حتى تلتقي وجهتا النظر:**

استقر رسول الله ﷺ فى موقعه هذا، فأتاه «بديل بن ورقاء الخُزاعى» فى رجال من خزاعة، فكلموه وسألوه: ما الذى جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً هذا البيت، فعادوا إلى قريش فأخبروهم بما قاله الرسول ﷺ، فاتهموهم وقالوا: وإن جاء ولا يريد قتالاً. فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تتحدثُ بذلك عنا العرب.

ثم بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ «مِكْرز بن حفص الأخيف أخا بنى عامر» بن لؤي، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: هذا رجل غادر؛ فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه، قال له رسول الله ﷺ نحواً مما قال لبديل وأصحابه؛ فرجع إلى

(١) خلأتْ الناقة: حزنت وغضبت.
(٢) العطن: مبارك الإبل.
(٣) انظر: سيرة ابن هشام ٤/٢٥.

قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ، ثم بعثوا إليه الحُلَيْس بن علقمة، وكان يومئذ سيِّدُ الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه، فلما رآى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك. قال: فقالوا له: اجلس، فإنما أنت أعرابي من الأحابيش لا علم لك.

فغضب الحليس عند ذلك، وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظِّماً له ؟ والذي نفس الحليس بيده، لتُخَلُّنَّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: مَهْ، كُفَّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي ، فقال: يا معشر قريش، إني قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد، وقد سمعت بالذي نابكم –أصابكم–، فجمعت من أطاعني من قومي، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي ، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ، فجلس بين يديه، ثم قال: يا محمد أجَمَعتَ أوشابَ النَّاس – أخلاط النَّاس–، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضَّها بهم، إنها قريش قد خرجت معها العوذُ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوةً أبداً، وايمُ الله، لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً، وأبو بكر الصديق خَلْفَ رسول الله ﷺ قاعد ؛ (فرد عليه بكلمة تليق بكلامه)، ثم قال: أنحن نتكشف عنه؟ وكان المغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ، يقرع يد عروة إذا امتدت لتلمس لحية رسول الله ﷺ.

فكلَّم الرسول ﷺ عروة بنحو ما كلَّم به بديل بن ورقاء ومكرز والحليس، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً.

فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءَه[1]، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، فرجع إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إني قد جئتُ كِسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت مَلِكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فرَوا رأيكم.

وفى رواية لابن إسحاق أيضاً: أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي، فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على بعير له يقال له الثعلب، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله،فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله، حتى أتى رسول الله ﷺ.

- **قريش ترسل جنوداً للاعتداء على المسلمين في موقعهم:**

فى رواية لابن إسحاق بسنده عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلا منهم أو خمسين، أمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً، فأُخِذُوا أخْذاً فأتى بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم وخلّى سبيلهم، وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل، يقول الله تعالى عن هذا الموقف: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[2].

ثم بعث رسول الله ﷺ عثمان بن عفان إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظما لحرمته.

فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به.

(١) الوضوء: بفتح الواو: ماء الوضوء.
(٢) سورة الفتح آية ٢٤.

- **وفاء عثمان لرسول الله ﷺ:**

فقال القوم لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ: إن شئتَ أن تطوف بالبيت فطف، فقال عثمان: ما كنتُ لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

- **بَيْعَةُ الرضوان:**

لقد رفض عثمان بن عفان أن يطوف بالبيت حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسولَ الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه أن عثمان قد قُتل: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا رسول الله ﷺ إلى البيعة، وكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة.

بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وقيل: إنه بايعهم على عدم الفرار، ولم يتخلف أحد من المسلمين عن البيعة إلاَّ الجدُّ بن قيس أخو بني سلمة، وأول من بايع بيعة الرضوان أبو سنان الأسَدِي، وبايع رسول الله ﷺ لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

- **عقد الصلح بين الرسول وقريش:**

بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا قال: قد أراد القوم الصُّلْحَ حين بعثوا هذا الرجل، فلما انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام وتراجعا، والْتَأَمَ الأمر.

- **احتجاج بعض المسلمين على ظلم قريش لهم:**

عندما التأم الأمر وبقى تدوين الاتفاق والصلح، وشعر المسلمون بالظلم، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟

قال أبو بكر: بلى

قال عمر: أولسنا بالمسلمين؟

قال: بلى

قال: أوليسوا بالمشركين؟

قال: بلى

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال أبو بكر: يا عمر الزم غَرْزَه[1] فإني أشهد أنه رسول الله

قال عمر: وانا اشهد أنه رسول الله

ثم أتى عمر رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ألستَ برسول الله؟

قال: بلى

قال: أولسنا مسلمين؟

قال: بلى

قال: أوليسوا بالمشركين ؟

قال: بلى

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره، ولن يضيعني.

وكان عمر رضي الله عنه يقول: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق، مِنَ الذي صنعتُ يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمته يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً.

- **مبادئ صلح الحديبية :**

أولاً: أن ينبذ الطرفان الحرب لمدة عشر سنين، فلا تقوم فيها حرب.

ثانياً: أن من جاء مسلماً من قريش يرده المسلمون إلى قريش، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا تلتزم قريش برده. وهذا المبدأ هو الذى أهاج المسلمين وتركهم يرددون سؤالاً: عَلامَ نعطى الدنية فى ديننا.

ثالثاً: أن يرجع المسلمون من غير أن يؤدوا العمرة فى عامهم هذا.

---

(١) إلزم غَرْزَه: إلزم قوله ولا تخالفه.

معالم العظمة والخلود فى عمرة القضاء

لما رجع رسول الله ﷺ عام الحديبية دون أن يؤدى العمرة، وذبح ونحر الهدْى وحَلَق رأسَه فى مكان إحصاره بالحديبية، واصطلح مع قريش على مبادئ منها: أن يرجع عامه هذا وأن يعود فى العام المقبل يؤدى عمرته، وعندما حلَّ ذو القعدة سنة سبع، خرج رسول الله وأصحابه ليؤدوا العمرة، وكان ذلك بعد رجوعه من خيبر.

يروى البيهقى: (خرج رسول الله ﷺ من العام القابل من عام الحديبية معتمراً فى ذى القعدة سنة سبع وهو الشهر الذى صدَّه فيه المشركون عن المسجد الحرام).

وفى رواية أخرى للبيهقى عن ابن عمر: (أن رسول الله ﷺ: خرج معتمراً، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقضاهم على أن يعتمر العام المقبل ولا يحمل سلاحاً عليهم إلاَّ سيوفاً ولا يقيم بها إلاَّ ما أحبوا، فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثاً أمروه أن يخرج فخرج).

و قد خلَتْ قريش بينه وبين الكعبة، وخرجوا جميعاً إلى رءوس الجبال، وخَلَتْ مكة من أهلها، ودخلها سيد الخلق وأصحابُه (على راحلته القصواء يتحدَّقون، والمسلمون متوشحو السيوف يُلَبُّون، فلما انتهى إلى ذى طَوَى وقف على ناقته القصواء والمسلمون حوله، ثم دخل من الثنية التى تطلعه على الحجون على راحلته القصواء، وابن رواحة آخذٌ بزمام راحلته يقول:

خلُّوا بنى الكفَّار عن سبيله ... إنِّى شهدتُ أنَّه رسوله

خلُّوا فكلُّ الخير فى رسوله ... يا رب إنِّى مؤمن بقيله

إنِّى رأيتُ الحقَّ فى قبوله ... نحن قتلناكم على تأويله

كما قتلناكم على تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويُذهل الخليل عن خليله[1]

- **موقف صناديد الكفر من رؤيتهم للرسول والمسلمين بعد انقضاء نسكهم:**

روى البيهقى فى دلائل النبوة بسنده عن سعيد بن المسيِّب (قال: لما قضى رسول الله نسكه فى القضاء دخل البيتَ، فلم يزل فيه حتى أذَّن بلالٌ الظهر فوق الكعبة، وكان رسول الله أمره بذلك.

فقال عكرمة بن أبى جهل: لقد أكرم الله أبا الحكم - أباه - حيث لم يسمع هذا العبدَ يقول ما يقول.

وقال صفوان بن أمية: الحمد لله الذى أذهب أبى قبل أن يرى هذا.

و قال خالد بن أسيد: الحمد لله الذى أمات أبى فلم يشهد هذا اليوم حتى يقوم بلال بن أم بلال يَنْهَق فوق الكعبة.

وأما سهيل بن عمرو ورجال معه لما سمعوا بذلك غطَّوا وجوههم)

يقول البيهقى: وقد رزق الله تعالى أكثرهم الإسلام.

وقد ساق الرسول ﷺ فى عمرة القضاء ستين بدنة هَدْياً.

ولما انتهت العمرة، وانتهت الأيام الثلاثة، ولما أصبح الرسول ﷺ يوم الرابع (أتاه سُهَيْل بن عمرو وحُوَيْطب بن عبد العزى ورسول الله ﷺ فى مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة، فصاح حويطب: نناشدك الله والعقد لما خرجتَ من أرضنا، فقد مضتْ الثلاث، فقال سعد بن عبادة: كذبتَ لا أم لك، ليس بأرضك ولا أرض آبائك، والله لا يخرج، ثم نادى رسول الله سهيلاً وحُويطباً، فقال: إنى نكحت فيكم امرأة[2] فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها ونصنع ونضع الطعام فنأكل

---

(١) دلائل النبوة.

(٢) وكان الرسول ﷺ قد تزوج بعد النسك السيدة ميمونة زوَّجها له عمه العباس فهى أخت

وتأكلون معنا؟ قالوا: نناشدك الله والعقد إلاَّ خرجت عنا، فأمر رسول الله ﷺ حتى نزل بطن سَرِف[1]، وأقام المسلمون وخلَّف رسولُ الله ﷺ أبا رافعٍ ليحمل ميمونة إليه حتى يمسى، فأقام بسرف حتى قدمت عليه ميمونة)[2].

وهكذا انتهت عمرة القضاء وأثر الرسول ﷺ فى المسلمين والمشركين، وصدق الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ﴾.

معالم العظمة والخلود فى أحداث سريَّة مُؤتَة[3]

لم يكن المسلمون مجموعات إرهابية تُغير على من تريد، بل كان لكل موقعة أسبابُها ولكل سريَّة علتُها، وهذه السرية كان لها سببٌ، وهو أن أمير بُصْرى وهى إمارة تابعة للدولة الرومانية، والدولة الرومانية هى إحدى دولتين تقودان زمام الأمور فى الكرة الأرضية فى ذلك الوقت، وتسيطران على شعوبها، والدولة الثانية هى دولة الفرس.

وأمير بصرى قتل الرسول الذى حمل كتاب النبى ﷺ، وكان هذا الرسول الحارث بن عُمَير، فخالف بذلك أبسط الأعراف الدولية لدى جميع الأمم، فالرُّسُل لا تُقْتل، فأعدَّ الرسول ﷺ حملةً كبيرة تُقَدَّر بثلاثة آلاف مقاتل، وكانت فى جمادى الأولى من السُّنَّة الثامنة من الهجرة، لدفع ضريبة الشرف والعزة والكرامة ولإنذار الروم بقوة المسلمين وإعلامهم بدين الإسلام.

زوجته، وقد لقيتْ ومن معها عناءً وأذىً من سفهاء المشركين وصبيانهم.

(١) مكان بين التنعيم وبطن مَرْو

(٢) دلائل النبوة.

(٣) اسم قرية تقع جنوب شرق عُمَان بالأردن وتسمى الآن: الكَرْك.

- **الرسول ﷺ يرتب القيادات:**

في رواية لابن إسحاق: (واستعمل الرسول ﷺ عليهم زيد بن حارثة، وقال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على النَّاس)[1]، وكانت هذه السرية في شهر جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة.

- **مغادرة الجيش المدينة:**

بدأ الجيش في الخروج من المدينة، وودَّع (عبد الله بن رواحة من ودَّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة ؟ فقال: أما والله ما بي حبُّ الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله ﷻ يذكر فيها ﴿ وإنْ منكم إلاَّ واردها كان على ربك حتما مقضياً﴾ فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟ ؛ فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين ، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً	وضربةً ذات فَرْغ تقذفُ الزَّبدا
أو طعنةً بيدي حرَّان مُجْهَزَةً	بحربةٍ تنفذ الأحشاء والكبدَا
حتى يُقَالَ إذا مَرُّوا على جَدَثِي	أرشده الله من غازٍ وقد رشَدا[2]

ثم مضى حتى نزلوا «مَعَان» من أرض الشام، فبلغهم أن هرقلَ كبيرَ الروم نزل مُآب من أرض البلقاء على رأس مائة ألف مقاتل، وانضم إليهم مائة ألف مقاتل من قبائل لَخْم وجذام والقَيْن وبهراء.

فلما بلغ ذلك المسلمون أقاموا في «معان» ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتبُ إلى رسول الله ﷺ، فنخبره بعدد عدونا، فإمَّا أن يمدنا بالرجال، وإمَّا أن

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٧٠.

(٢) المرجع السابق.

يأمرنا بأمره فنمضي له.

بيد أن عبد الله بن رواحة شجَّع النَّاس وقال: «يا قوم والله إن التي تكرهون للَّتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل النَّاس بعدد ولا قوة ولا كثرةٍ، ما نقاتلهم إلاَّ بهذا الدِّين الذى أكرمنا الله به، فانْطَلِقوا فإنما هى إحدى الحُسنيين إمَّا ظهور وإمَّا شهادة، قال: فقال النَّاس: قد والله صدق ابن رواحة فمضى النَّاس)[1].

● **لقاء الروم وحلفائهم:**

وصل المسلمون إلى تخوم البلقاء، فلقيتهم جموع الروم والقبائل العربية التى تخضع لسيطرة الروم بقرية من قرى البلقاء يقال لها: مشارف، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: «مؤتة»، فالتقى النَّاس عندها فتعبَّأ لهم المسلمون وجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بنى عَذْرة يقال له: قُطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار، يقال له: عُبادة بن مالك.

والتقى الفريقان واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم.

● **شهادة جعفر:**

ثم أخذ الراية جعفر بن أبى طالب فقاتل (حتى إذا ألجمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء، فعقرها ثم قاتل القوم حتى قتل وهو يقول:

يا حبَّذا الجنة واقترابها ... طيِّبةً وبارداً شرابها

والرُّوم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها

عليَّ إذ لاقيتُها ضِرابُها

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفر بن أبي طالب أخذ

(١) المرجع السابق ص٧١.

اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل ﷺ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء.

وروى البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «أمَّرَ رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: إن قُتل زيدٌ فجعفر، وإن قُتِل جعفرٌ فعبد الله بن رواحة. قال عبد الله: كنتُ فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفرَ بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين، من طعنة ورمية»

وفى رواية أخرى للبخارى: «ليس منها شيء فى دبره يعنى فى ظهره»، فكان مقبلاً على العدو برضىً طالباً الشهادة والخلود فى الجنان بدلاً من الذِّلَّة والفناء فى دار الفناء.

وفى رواية أخرى للبخارى: «كان ابن عمر إذا حَيَّا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابنَ ذى الجناحين».

- **مقتل عبد الله بن رواحة بعد حمل الراية:**

لما قُتِل جعفرٌ أخذ عبدُ الله بن رواحةَ الراية، ثم تقدَّم بها وهو على فرسه ويردد:

(يا نفسُ إلاَّ تُقْتَلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صَليتِ
وما تمنَّيتِ فقد أُعْطيتِ ... إن تفعلي فعلَهما هُديتِ)[1]

ويقصد بقوله: «فعلهما» : فعل زيد وجعفر.

ولما حَمَل الراية (أتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال: شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسةً، ثم سمع الحُطمة

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٧٣.

– صوت الحرب – في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا؟! ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل)[1].

- **خالد بن الوليد يحمل الراية:**

أخذ الراية ثابت بن أقرم فقال: (يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ؛ فلما أخذ الراية دافع القوم، وحاشى بهم)[2].

و قاتل خالد بن الوليد وأبلى بلاء حسناً، يروى البخارى بسنده (عن قيس بن أبى حازم، قال: سمعت خالد بن الوليد يقول: لقد دُقَّ في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسيافٍ، وصَبَرَتْ في يدي صفيحةٌ لي يمانية).

وغيَّر خالد ﷺ فى تشكيل جيش المسلمين فجعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنةً، والمقدمة والمؤخرة، وانحاز بالجيش فى «تكتيك عسكرى»، وانحاز جيش الروم، وطفق ينسحب، فظن جيش الروم أن المسلمين يستدرجونهم إلى الصحراء، وهم لا خبرة لهم فى حرب الصحراء ورجع المسلمون.

- **أثر من آثار النبوة:**

روى البخارى بسنده عن أنس (أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: أخذ الراية زيدٌ فأصيبَ، ثم أخذها جعفرٌ فأصيبَ، ثم أخذ ابن رواحةَ فأصيب. وعيناه تذرفان، حتى أخذها سيفٌ من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم).

فقد سمى الرسول ﷺ المسلمين عند انسحابهم فتحاً، كما سمى الله الصلح مع قريش فتحاً فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ لأمور:

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

١- سرية مؤتة كانت تدريباً للمسلمين على اجتياز البيداء والوصول إلى تخوم الروم، فإن هذا يصقل المسلم ويدربه على الشدائد التى سيخوضها المسلمون بعد ذلك مروراً بفتح مكة وخروجاً من جزيرة العرب، وإسقاط مُلْك كسرى وقيصر.

٢- المواجهة بين المسلمين وهم ثلاثة آلاف، وبين الروم ومَن آزرهم وهم مائتا ألف يدل على أن حساب المسلمين للمواجهات يكمن فى الإيمان لا فى العدد والعدة، وهذا هو الذى لفت إليه أنظارَ المسلمين عبدُ الله بن رواحة حين علموا وهم بأرض «معان» أن عدوهم صار مائتى ألف، وهَمُّوا بإخبار الرسول ﷺ بالمدينة، فإما أن يمدهم بالرجال وإما أن يأمرهم بأمر فيمضوا إليه، فقال لهم عبد الله بن رواحة: (يا قوم والله إن التى تكرهون لَلَّتى خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل النَّاس بعدد ولا قوة ولا كثرةٍ، ما نقاتلهم إلاَّ بهذا الدِّين الذى أكرمنا الله به، فانْطَلِقوا فإنما هى إحدى الحُسنيين إمَّا ظهور وإمَّا شهادة)

٣- الاحتكاك الإسلامى مع الروم جعل المسلمين يعرفون أسرار قتال الروم وأساليبهم عند اللقاء، فجعلتْ المسلمين يحفظون تلك الأساليب، وهذا ما نراه فى القائد «خالد بن الوليد» الذى سماه الرسول سيفاً من سيوف الله، صال وجال فى أرض الروم، وأسقط امبراطورية تهاوت تحت أقدام أبطال يحملون بين جوانحهم إيماناً ليس له مثيل ولدتهم البيداء.

- **لقاء الرسول ﷺ بالأبطال:**

روى ابن إسحاق بسنده (عن عروة بن الزبير قال: لما دنوا من حول المدينة تلقَّاهم رسول الله ﷺ والمسلمون. قال: ولقيهم الصبيان يشتدون، ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة، فقال: خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر. فأُتي بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه. قال: وجعل الناس يَحْثُونَ على الجيش التراب، ويقولون: يا فُرَّارُ، فررتم في سبيل الله ! قال: فيقول رسول الله ﷺ: ليسوا

بالفُرّار، ولكنّهم الكُرّار إن شاء الله تعالى)[1].

- **الفرق بين هؤلاء و بين المسلمين الآن:**

روى ابن إسحاق بسنده عن أم سلمة (قالت أم سلمة لامرأة سلمة بن هشام بن المغيرة: ما لي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين ؟ قالت: والله ما يستطيع أن يخرج، كلّما خرج صاح به الناس يا فُرّار، فررتم في سبيل الله، حتى قعد في بيته فما يخرج)[2].

لم يرض المسلمون إلاّ بالعزة والنصر فلما عاد الجيش عيّرهم المسلمون لأنهم لم يتتبعوا الروم داخل أراضيهم. فالمسلمون فى تلك الأيام ما تعودوا إلاّ النصر من جيوش رسول الله ﷺ. بخلاف حال المسلمين فى أيامنا هذه، فقد ذهبت ريحهم، وكُسِرَت شوكتُهم، واستُبيحتْ أراضيهم وأموالهم، وانتُهكت أعراضهم، بعد أن تفرقوا وتشرذموا، وبغى بعضهم على بعض.

وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[3].

---

(١) سيرة ابن هشام ٧٤/٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة الرعد آية ١١.

- **سبب الغزوة**

كان من مبادئ الصلح الذى أبرم فى الحديبية: أنه من أحب أن يدخل فى عقد مع رسول الله ﷺ وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه. فدخلت خُزَاعة فى عقد رسول الله ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم.

وكانت الهدنة بين رسول الله ومن دخلوا فى عهده، وبين قريش ومن دخل فى عهدهم، ولكنَّ بنى بكر وهم من حلفاء قريش اعتدوا على خزاعة بتأييد من قريش، بل شارك بعضٌ من قريش فى هذا الاعتداء، وكانوا مستخفين بالليل، (وخرج حشد من قريش متنكرين متنقِّبين، فيهم صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص، فالتقوا مع بنى بكر فى مكان اسمه الوتير، وبيَّتوا خزاعة ليلاً وهم مطمئنون آمنون، فقتلوا منهم عشرين رجلاً)[1].

وبهذا نقضت قريش ومن تبعهم العهد.

- **خزاعة تستغيث برسول الله ﷺ**

عندما خانت قريش ومن تبعها عهد الرسول ﷺ خرج عمرو بن سالم الخُزاعى حتى قدم على رسول الله ﷺ فوقف عليه فى المسجد فقال:

يا رب إنى ناشدٌ محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنَّا والدا ... ثمَّتَ أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصُرْ هداك الله نصراً أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجرَّدا ... إن سِيمَ خسفاً وجهه تربَّدا

---

(١) فقه السيرة للأستاذ محمد سعيد رمضان البوطى ص٢٧٦.

في فيلق كـالبحر يجـري مزبـداً	إن قريشـاً أخلفـوك الموعـدا
ونقضـوا ميثاقـك المؤكَّـدا	وجعلـوا لـي في كـداء رصـدا
وزعمـوا أن لسـت أدعـو أحـدا	وهـم أذلُّ وأقـل عـددا
هـم بَيَّتُونا بالوتيـر هُجَّـدا	وقتلونـا رُكَّعـاً وسُجَّـدا[1]

فقال رسول الله ﷺ: نُصِرتَ يا عمرو بن سالم، ثم عرض لرسول الله ﷺ عَنان – سحاب – فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب)[2].

- **وفد من خزاعة يطلع رسول الله ﷺ على نقض قريش للعهد:**

في رواية لابن إسحاق: (ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، وقد قال رسول الله ﷺ للناس: كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد، ويزيد في المدة، ومضى بديل بن ورقاء وأصحابه حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعُسْفَان، قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ، ليشد العقد، ويزيد في المدة، وقد رهبوا الذى صنعوا، فلما لقي أبو سفيان بديل بن ورقاء، قال: من أين أقبلت يا بديل ؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ ؛ قال: تسيَّرتُ في خزاعة في هذا الساحل، وفي بطن هذا الوادي؛ قال: أو ما جئت محمداً؟ قال: لا؛ فلما راح بديل إلى مكة، قال أبو سفيان: لئن جاء بديلٌ المدينة لقد علف بها النوى، فأتى مبركَ راحلته، فأخذ من بعرها ففتَّه، فرأى فيه النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً)[3].

---

(١) سيرة ابن هشام ٨٦/٤.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.

- **أبو سفيان يرجو المصالحة على نقضهم العهد:**

يقول ابن إسحاق: (ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان ؛ فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ - فهي زوج رسول الله ﷺ - طوته عنه ؛ فقال: يا بُنيَّة ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً،

ثم ذهب إلى أبي بكر، فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ،

فقال: ما أنا بفاعل،

ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذرَّ لجاهدتكم به.

ثم خرج فدخل على عليٍّ بن أبي طالب رضوان الله عليه، وعنده فاطمة رضي الله عنها، وعندها حسن بن عليٍّ، غلام يدبُّ بين يديها، فقال: يا عليُّ إنك أمسُّ القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي عند رسول الله ؛ فقال: ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

فالتفت إلى فاطمة، فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بُنَيَّكِ هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟

قالت: والله ما بلغ بني ذلك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ، قال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ، فانصحني ؛ قال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك ؛ قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟

قال: لا والله، ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس إني أجرت بين الناس. ثم ركب بعيره فانطلق، فلما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك ؟

قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله ما ردَّ عليَّ شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو.

قال ابن هشام: أعدى العدو.

قال أبو سفيان لقومه: ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليَّ بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا ؟ قالوا: وبم أمرك ؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت ، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال: لا، قالوا: ويلك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلتَ. قال: لا والله، ما وجدتُ غير ذلك)[1].

- **استعداد الرسول ﷺ لفتح مكة:**

في رواية لابن إسحاق: (وأمر رسول الله ﷺ بالجهاز، وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها، وهي تحرِّك بعض جهاز رسول الله ﷺ ؛ فقال: أي بُنَيَّة: أأمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه ؟ قالت: نعم فتجهز، قال: فأين ترينه يريد ؟ قالت: لا والله ما أدري. ثم إن رسول الله ﷺ أعْلَمَ الناسَ أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها. فتَجَهَّز النَّاس)[2].

وقد حرص رسول الله ﷺ على عدم تسرب أخبار مسيره إلى مكة، كما سبق ذكره في قصة حاطب بن أبى بلتعة وكتابه إلى قريش يطلعهم بما أجمع الرسول

(١) المرجع السابق ص٨٧.

(٢) المرجع السابق.

عليه من الأمر فى السير إليهم[1].

- **خروج الرسول ﷺ إلى مكة :**

خرج رسول الله ﷺ من المدينة موليّاً وجْهَهُ قِبَلَ مكة، معه المهاجرون والأنصار لم يتخلف منهم أحد، وذلك فى العشرين من رمضان سنة ثمان من الهجرة، وانضم إليهم قبائل سُليم ومُزينةُ، وعميت الأخبار عن قريش فلم يأتهم خبر عن رسول الله ﷺ، ولا يدرون ما هو فاعل حتى نزلوا «مَرَّ الظهران»، وكان الرسول ﷺ قد أمر المسلمين أن يوقدوا ناراً بالليل، وخرج العباس بن عبد المطلب على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، لعله يجد بعض الحطّابة أو ذا حاجة ليأتى أهل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنْوَةً.

يقول العباس: فوالله إني لأسير عليها، وألتمس ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب. قال: يقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال العباس: فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل ؟ قال: قلت: نعم،

قال: ما لك؟ فداك أبي وأمي، قال: قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله، قال أبو سفيان: فما الحيلة، فداك أبي وأمي،

قال العباس: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك ؛

---

(١) حديث حاطب بن أبى بلتعة بطوله سبق ذكره فى: غزوة بدر، تحت عنوان: جزاء من شهد بدراً.

قال العباس: فركب خلفي ورجع صاحباه.فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها، قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته.

حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: من هذا ؟ وقام إليَّ ؛ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة، قال: أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة، فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء.

قال: فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه.

قال العباس: قلت: يا رسول الله، إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ، فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة دوني رجل؛ فلما أكثر عمر في شأنه، قلت: مهلاً يا عمر، فوالله أن لو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف؛ فقال: مهلا يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحبَّ إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم.

فقال رسول الله ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به ؛

قال العباس: فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ ؛ فلما رآه رسول الله ﷺ، قال: ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد،

قال رسول الله ﷺ: ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى

الآن شيئاً.

فقال له العباس: ويحك ! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك.

قال: فشهد شهادة الحق، فأسلم.

قال العباس: قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً.

قال: نعم، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمِن، ومن أغلقَ بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمِن، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ : يا عباس، أحبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها.

قال العباس: فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي، حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه.

- **دخول المسلمين مكة:**

لقد فرَّق الرسول ﷺ من ذى طوى، فأمر الزبير بن العوام أن يدخل فى بعض النَّاس من كُدى، وأمر خالد بن الوليد فدخل من اللِّيْط، أسفل مكة في بعض النَّاس.

وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصبُّ لمكة بين يدي رسول الله ﷺ من أذاخر حتى نزل بأعلى مكة، ضربت له هنالك قبته.

وأمر سعد بن عبادة أن يدخل من كُداء، بيد أن سعداً سلَّم الراية لعلىِّ بن أبى طالب[1]، وأمر الرسول ﷺ بالامتناع عن إراقة الدماء والقتل، بيد أن فرقة خالد تعرضت للاعتداء فوقع قتل.

- **الرسول يأمر بقتل بعض الأشخاص:**

لقد أمر رسول الله ﷺ بقتل بعض الذين بالغوا فى إيذائه وإيذاء المسلمين، فأهدر دماءهم، وهم عبد الله بن سعد أخو بنى عامر بن لؤى، وعبد الله بن خطل،

(١) انظر سيرة ابن هشام ٩١/٤.

وكانت له قينتان تغنّيان: فُرتنى وصاحبتها. وكانتا تغنيان بهجاء الرسول، فأمر بقتلهما معه، والحويرث بن نُقَيْذ بن وهب بن عبد قصى، فلقد كان العباس بن عبد المطلب حمل السيدة فاطمة وأم كلثوم كريمتا رسول الله ﷺ عليهم فنخس الدابة فرمى بهما إلى الأرض.

ومقيس بن حُبابة، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب، وعكرمة بن أبى جهل، فلقد قتلوا جميعاً ما عدا عبد الله بن سعد فلقد أستأمن له عثمان بن عفان، وعكرمة بن أبى جهل استأمنت له زوجته بعد فراره إلى اليمن وبعضهم استؤمن له.

- **دخول رسول الله ﷺ المسجد وتطهيره من الأصنام:**

فى رواية لابن إسحاق عن ابن عباس: (دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته، فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل النبي ﷺ يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول: ﴿جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾، فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار إلى قفاه، إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع ؛ فقال تميم بن أسد الخزاعي في ذلك:

وفي الأصـنام معتبرٌ وعلم ∴ لمن يرجو الثواب أو العقابا[1]

- **أثر من آثار النبوة:**

فى رواية لابن هشام: (أنَّ فُضَالةَ بن عمير بن الملوّح الليثي أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ؛ فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ: أفضالة ؟ قال: نعم فضالة يا رسول الله ؛ قال: ماذا كنت تُحَدِّثْ به نفسك ؟

قال: لا شيء، كنت أذكر الله ؛ قال: فضحك النبي ﷺ، ثم قال: استغفر الله العظيم، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما مِنْ خلق الله شيء أحب إليَّ منه.

(١) سيرة ابن هشام ١٠٤/٤.

قال فضالة: فرجعتُ إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليهـا، فقالـت: هلمَّ إلى الحديث[1]، فأخبرها أنه أسلم، وأنَّ الإسلام يحرِّم ذلك.

- **خلُق الرسول الأعظم:**

في رواية لابن إسحاق عن أسماء بنت أبي بكر (قالت: لما وقف رسول الله ﷺ بذي طوى، قال أبو قحافة - والد أبي بكر- لابنةٍ من أصغر ولده: أيْ بُنَيَّة، أظهري بي على جبل أبي قُبيس ؛ قالت: وقد كُفَّ بصره ؛ قالت: فأشرفت به عليه، فقال: أي بنية، ماذا ترين ؟

قالت: أرى سواداً مجتمعاً، قال: تلك الخيل ؛ قالت: وأرى رجلاً يسعى بين يَدَيْ ذلك مقبلاً ومدبراً، قال: أي بنية، ذلك الوازع، يعني: الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها ؛ ثم قالت: قد والله انتشر السواد.

قالت: فقال: قد والله إذن دُفِعَت الخيلُ، فأسرعي بي إلى بيتي، فانحطت به، وتلقَّاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته، قالت: وفي عنق الجارية طوق من وَرِق - فضة-، فتلقاها رجل فاقتطعه من عنقها.

قالت: فلما دخل رسول الله ﷺ مكة، ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ؟

قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت ؛ قال: قالت: فأجْلَسَهُ بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: أسلم، فأسلم)[2].

- **الأنصار يخشون أن يبقى رسول الله بمكة:**

في رواية لابن هشام (عن يحيى بن سعيد أن النبي ﷺ حين افتتح مكة ودخلها، قام على الصفا يدعو الله، وقد أحدقتْ به الأنصار، فقالوا فيما بينهم:

---

(١) المرجع السابق.

(٢) سيرة ابن هشام ٩١/٤.

أترون رسول الله ﷺ، إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟

فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم ؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله ؛ فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال النبي ﷺ: معاذ الله! المَحْيَا محياكم، والمماتُ مماتكم)[1].

- **العفو العام عن أهل مكة:**

(لقد قام رسول الله ﷺ على باب الكعبة، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مَـأثُرَةٍ أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدميَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألاَ وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدِّية مغلَّظةً، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها.

يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾... الآية كلها.

ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا: خيراً أخٌ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء)[2].

وهكذا سقط أكبر معقل للوثنية في بلاد العرب، وتحطَّمت أكبر قوة في جزيرة العرب، وتبدَّدت وتفرَّقَتْ قيادات الكفر، وبزغت شمس التوحيد على مكة وضواحيها استعداداً لطلوعها على العالم؛ ليدخلوا بعد ذلك في دين الله أفواجاً. قال تعالى: ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

---

(١) المرجع السابق ص٩٥.

(٢) المرجع السابق ص٩٤.

معالم العظمة والخلود فى غزوة حُنَيْن[1]

- **سبب هذه الغزوة:**

النصر أحياناً لا يعجب بعض النَّاس، إمَّا حسداً على المنتصرين، وإمَّا خوفاً من أن يسودوا، ولقد اجتمع هذان الأمران فى قلوب أشراف هوازن وثقيف، فمشى بعضهم إلى بعض بعد الفتح الأعظم، فتح مكة وبعد أن طهَّرها الرسول ﷺ من الأصنام والأوثان، فأفل نجم الوثنية، وبزغ نجم التوحيد، فحشدت هوازنٌ وثقيفٌ حشوداً كبيرةً. بعد أن جَمَع أمرَهم مالك بن عوف سيِّد هوازن.

- **فلسفة مالك فى حشد الجموع:**

حشد مالك بن عوف النَّاس، وأمر بأن يأخذ كل واحد نساءه وأولاده وأمواله حتى يستميت فى القتال، (فلما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ حطَّ مع النَّاس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فلما نزل بأوطاس، اجتمع إليه النَّاس وفيهم دُريد بن الصِّمة – رجل من هوازن خطب الخنساء، وكان عمره يوم حنين ستين ومائة سنة – ، فلما نزل دريدٌ مع النَّاس، قال: بأى وادٍ أنتم؟ قالوا: بأَوْطاس. قال: نِعْمَ مجال الخيل لا حَزَنَ ضَرِس – أى وادٍ ليس خشناً صعباً – ولا سهلَ دهس، مالى أسمع رُغَاء البعير ونُهاق الحمير وبكاء الصغير، ويعار الشاء ؟

قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم.

قال دريد بن الصمة: أين مالك ؟ قيل: هذا مالك ودُعي له، فقال: يا مالك، إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإنَّ هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء ؟

---

(١) هذه الغزوة تسمى بغزوة حنين وهو الاسم الذى ذكره الحق تبارك وتعالى، فيجب أن نسميها بما سماها الله به {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا} وسماها البعض (بأوطاس) وهو المكان الذى وقعت فيه المعركة.

قال: سُقْتُ مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم، قال دريد: ولم ذاك ؟ قال مالك: أردتُ أن أجعل خلف كلِّ رجل منهم أهله وماله، ليقاتل عنهم، قال: فأنقض به، ثم قال: راعي ضأن والله ! وهل يَرُدُّ المنهزمَ شيءٌ ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك)[1].

ثم قال له دريد: يا مالك، إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نحور الخيل – خيل المسلمين– شيئاً، ارفعهم –أي الأهل والمال– إلى متمنع بلادهم وعليا قومهم، ثم ألق الصباء على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك مَنْ وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك، وقد أحرزت أهلك ومالك.

قال: والله لا أفعل ذلك، إنك قد كَبُرْتَ وكبر عقلُك. والله لتطيعُنَّني يا معشر هوازن أو لأتكئنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره مالك أن يكون لدريد بن الصِّمة فيها ذكر أو رأي ؛ فقالوا: أطعناك ؛ فقال دريد بن الصمة: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني)[2].

- **المسلمون يستعيرون أدراعاً من صفوان بن أمية :**

لَمَّا أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى هوازن وثقيف ليلقاهم، ذُكِر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً له، فأرسل إليه وهو يومئذٍ مشركٍ. فقال: يا أبا أمية أعِرْنا سلاحَك هذا نلق فيه عدوَّنا غداً، فقال صفوان: أغصباً يا محمد؟

قال: بل عاريةً مضمونةً حتى نؤديها إليك، قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها ففعل.

وخرج رسول الله ﷺ معه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه

(١) سيرة ابن هشام ١٢٢/٤.
(٢) المرجع السابق.

الذين خرجوا معه ففتحوا مكة، فكانوا اثنى عشر ألفاً، واستعمل رسول الله ﷺ عتّاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس على مكة أميراً على مَنْ تخلّف عنه من النّاس، ثم مضى رسول الله ﷺ يريد لقاء هوازن)[1].

- **خطة مالك للحرب:**

فى رواية لابن إسحاق: قال مالك للناس: (إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد.

قال ابن إسحاق: وحدثني أُمَيَّةُ بن عبد الله بن عثمان أنه حدث أن مالك بن عوف بعث عيوناً من رجاله، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم، فقال: ويلكم ! ما شأنكم ؟ فقالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلْق[2]، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، فوالله ما ردّه ذلك عن وجهه أن مضى علىً ما يريد)[3].

- **الرسول يزرع بين العدو عيناً يأتيه بالأخبار:**

فى رواية لابن إسحاق (ولما سمع بهم نبي الله ﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم.

فانطلق ابن أبي حدرد، فدخل فيهم، فأقام فيهم، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ، وسمع من مالك وأمْرِ هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، فأخبره الخبر، فقال عمر: كذب ابن أبي حدرد، فقال ابن أبي حدرد: إن كذّبتني فربما كذّبت بالحق يا عمر، فقد كذبت من هو خير مني.

---

(١) المرجع السابق ص١٢٣.

(٢) بلق: بها شعر أبيض وأسود.

(٣) المرجع السابق ص١٢٢.

فقال عمر: يا رسول الله، ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد ؟ فقال رسول الله ﷺ قد كنت ضالاً، فهداك الله يا عمر)[1].

- **هوازن تأخذ المبادرة والضرب:**

في رواية لابن إسحاق عن جابر بن عبد الله قال: (لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في وادٍ من أودية تهامة أجوف حطوط، إنما ننحدر فيه انحداراً، قال: وفي عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين، لا يلوي أحد على أحد.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمن، ثم قال: أين أيها الناس ؟ هلموا إليَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله)[2].

وفي رواية غير هذه الرواية:

(أنا النبيُّ لا كذب ∴ أنا ابن عبد المطَّلب)[3].

فانطلق الناس، إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، وكان ممن ثبت: أبو بكر وعمر وعليٌّ بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وأبو الحارث بن الحارث وابنه والفضل بن عباس وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد.

- **هزيمة المسلمين وشماتة ضعاف النفوس:**

في رواية لابن إسحاق: (فلما انهزم الناس، ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته.

---

(١) المرجع السابق

(٢) المرجع السابق ص١٢٤.

(٣) الروض الأنف هامش سيرة ابن هشام ١٤١/٤.

وصرخ كلدة بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية[1] وهو مشرك في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ ليدخل الإسلام عن قناعة بدلاً من القوة، ومع هذا خرج معهم، صرخ أخوه: ألا بطل السِّحر اليوم ! فقال له صفوان: اسكت فضَّ الله فاك، فوالله لأن يربِّني رجل من قريش أحب إلى من أن يربني رجل من هوازن)[2].

- **آثار النبوة تظهر عند محاولة قتل الرسول:**

فرح بعض ضعاف النفوس الذين أسلموا كرهاً وشملهم عفو الرسول ﷺ عند الفتح، ولكن قلوبهم ما زالت متعلقة بالوثنية، فأثناء فوضى الحرب وانهزام المسلمين هفت نفس شيبة بن أبى طلحة إلى الثأر من رسول الله ﷺ، فقد قُتِل أبوه يوم أُحُد فقال فى نفسه: اليوم أقتل محمداً.

يقول السهيلى فى رواية له عن شيبة: (فلما هممتُ به حال بينى وبينه خندق من نار وسور من حديد، قال: فالتفتُّ إلى النبى ﷺ وتبسَّم، وعرف الذى أردت، فمسح صدرى وذهب عنى الشك)[3].

- **الملائكة تحضر المعركة ولم تقاتل:**

لقد حضرتْ الملائكةُ لإرهاب هوازن وثقيف، وصرَّح بذلك الجواسيس الذين أرسلهم مالك بن عوف للتجسس على المسلمين، فرأوا الملائكة على خيل بلق.

وفى رواية لابن إسحاق عن جبير بن مطعم قال: (رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مِثْلَ البجاد الأسود – يعنى الكساء–، أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم فنظرت، فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي، لم أشك أنها الملائكة)[4].

ولقد تحدث القرآن فى سورة التوبة عن نزول الملائكة فى هذه الغزوة.

---

(١) كلدة كان أخا صفوان لأمه.
(٢) المرجع السابق ص١٢٤.
(٣) الروض الأنف على هامش سيرة ابن هشام ١٤١/٤.
(٤) المرجع السابق ص١٤٢.

● **النصر بعد الهزيمة:**

في رواية لابن إسحاق (عن العباس بن عبد المطلب قال: إني لمع رسول الله ﷺ آخذٌ بحكمة بغلته البيضاء قال: وكنت امرأً جسيماً شديد الصوت.

قال: ورسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: أين أيها الناس؟ فلم أر الناس يلوون على شيء، فقال: يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السَّمُرَة – أي المبايعين تحت الشجرة في الحديبية– قال: فأجابوا: لبيك لبيك! قال: فيذهب الرجل ليثني بعيره، فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه؛ ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره، ويخلي سبيله، فيؤم–يقصد– الصوت، حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ. حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة، استقبلوا الناس فاقتتلوا، وكانت الدعوى أول ما كانت: يا للأنصار، ثم خلصت أخيراً: يا للخزرج، وكانوا صُبُراً عند الحرب، فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون، فقال: الآن حمي الوطيس.

وقال ابن إسحاق: (بينا ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جَمَلِه يصنع ما يصنع، إذ هوى له عليٌّ بن أبي طالب رضوان الله عليه ورجل من الأنصار يريدانه، قال: فيأتيه عليٌّ بن أبي طالب من خلفه، فضرب عُرْقُوبي الجمل، فوقع على عجزه، ووثب الأنصاريُّ على الرجل، فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه، فانجعف عن رحله، قال: واجتلد الناس، فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله ﷺ)[1].

● **مسلمة تقاتل مع الرجال:**

في رواية لابن إسحاق: (عن عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ التفت فرأى أمَّ سُلَيْم بنت ملحان، وكانت مع زوجها أبي طلحة وهي حازمة وسطها بِبُرْدٍ

(١) سيرة ابن هشام ١٢٥/٤.

لها، وإنها لحامل بعبد الله بن أبي طلحة، ومعها جمل أبي طلحة، وقد خشيت من الجمل، فأدنت رأسه منها، فأدخلت يدها في حزامته مع الخطام، فقال لها رسول الله ﷺ: أُمَّ سليم ؟

قالت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أَقْتُلُ هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل ؛ فقال رسول الله ﷺ: أو يكفي الله يا أم سليم؟ قال: ومعها خنجر، فقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ قالت: خنجر أخذته إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به، قال: يقول أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم الرميصاء)[1].

- **رحمة الإسلام بالبشرية :**

روى ابن إسحاق (أن رسول الله ﷺ مرَّ يومئذ بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد، والناس متقصفون عليها فقال: ما هذا ؟ فقالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ لبعض من معه: أدرك خالداً، فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً)[2].

- **وفاء الرسول لأخته من الرضاعة :**

روى ابن إسحاق (أن رسول الله ﷺ قال يومئذ: إن قدرتم على بجاد، رجل من بني سعد بن بكر فلا يفلتنَّكم، وكان قد أحدث حدثاً، فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله، وساقوا معه الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، فَعَنَفُوا عليها في السياق ؛ فقالت للمسلمين: تعلموا والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة؛ فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما انتُهِيَ بها إلى رسول الله ﷺ، قالت: يا رسول الله، إني أختك من الرضاعة؛

(١) المرجع السابق ص١٢٥.
(٢) المرجع السابق ص١٣٠.

قال: وما علامة ذلك ؟

قالت: عضَّةٌ عَضَضْتَنيها في ظهري وأنا متوركتك ؛ قال: فعرف رسول الله ﷺ العلامة، فبسط لها رداءه، فأجلسها عليه، وخيرها وقال: إن أحببتِ فعندي مُحَبَّةٌ مُكَرَّمةٌ، وإن أحببتِ أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلتُ ؛ فقالت: بل تمتِّعني وتردني إلى قومي.

فمتعها رسول الله ﷺ، وردها إلى قومها، فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاما له يقال له: مكحول وجارية، فزوجت أحدهما الأخرى، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية[1].

ولقد تحدَّث الله عن هذه الغزوة بقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنَزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴾[2].

معالم العظمة والخلود في حصار الطائف

فرَّ كثير من المشركين الذين قاتلوا في حنين إلى قمم الجبال وإلى الطائف وحاصر الرسول ﷺ الطائف، وأثناء الحصار أصيبَ بعض أصحابه بالنبل وذلك أن جنود المسلمين اقتربوا من حائط الطائف، فأصابهم النبل ولم يقدر المسلمون دخول حائطهم، فالمشركون أغلقوا الحائط دونهم، فلما أصيبوا أمر الرسول ﷺ أصحابه بالبعد عن الحائط إلى المسجد الذى أقامه بالطائف، وحاصرهم رسول الله ﷺ وتراموا بالنبل، ورماهم رسول الله ﷺ بالمنجنيق، فالرسول ﷺ هو أول من رمى بالمنجنيق، رمى أهل الطائف، ولقد نزل الرسول ﷺ وادياً بالطائف يقال له: العقيق، وحاصرهم رسول الله ﷺ بضعاً وعشرين ليلة[3].

---

(١) المرجع السابق ص١٣٠.

(٢) سورة التوبة آية ٢٥، ٢٦.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام ١٤٨/٤ – ١٥٠.

- **رؤيا رسول الله ﷺ عند حصار الطائف:**

قال ابن إسحاق: (وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصديق وهو محاصرٌ ثقيفاً: يا أبا بكر، إني رأيت أني أهديت لي قُعْبةٌ -إناء- مملوءة زُبْداً، فنقرها ديكٌ، فهراق ما فيها. فقال أبو بكر: ما أظنُّ أن تدرك منهم يومَك هذا ما تريد، فقال رسول الله ﷺ: وأنا لا أرى ذلك)[1].

- **عبيد الطائف يفرُّون ويعلنون إسلامهم:**

ونزل على رسول الله ﷺ في إقامته ممن كان محاصراً بالطائف عبيد، فأسلموا، فأعتقهم رسول الله ﷺ، ولما أسلم أهل الطائف تكلم نفر منهم في أولئك العبيد، فقال رسول الله ﷺ: لا، أولئك عتقاء الله)[2].

- **إعراض الرسول عن مواصلة حصار الطائف وقتالهم:**

في رواية لابن إسحاق: (خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دحنا حتى نزل الجعرانة فيمن معه من الناس، ومعه من هوازن سَبْيٌ كثير، وقد قال له رجل من أصحابه يوم ظعن عن ثقيف: يا رسول الله ادع عليهم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم)[3].

- **عفو الرسول ﷺ عن مالك بن عوف:**

روى ابن إسحاق: (قال رسول الله ﷺ لوفد هوازن، وسألهم عن مالك ابن عوف ما فَعَل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال رسول الله ﷺ: أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل.

فحُمِل الخبر إلى مالك بن عوف فخرج إلى رسول الله ﷺ من الطائف، وقد كان

---

(١) المرجع السابق ص١٥٠.

(٢) المرجع السابق ص١٥٠.

(٣) المرجع السابق ص١٥٢.

مالك خاف ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال فيحبسوه، فأمر براحلته فهيئت له، وأمر بفرس له، فأتي به إلى الطائف، فخرج ليلاً، فجلس على فرسه، فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس، فركبها فلحق برسول الله ﷺ، فأدركه بالجعرانة أو بمكة، فردَّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه ؛ فقال مالك بن عوف حين أسلم:

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله	في النَّاس كُلِّهم بمثل محمَّدِ
أوْفَى وأعْطَى للجزيلِ إذا اجتدى	ومتى تشأ يخبرْكَ عما في غَدِ
وإذا الكتيبة عردت أنيابَها	بالسمهريِّ وضرب كل مهنَّدِ
فكأنه ليث على أشباله	وسط الهباءةِ خادرٌ في مرصَدِ

واستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه)[1]

- **الرسول ﷺ يرد سبايا هوازن إلى أهلها:**

يروى ابن إسحاق: (ثم أتاه وفد هوازن بالجعرانة، وكان مع رسول الله ﷺ من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء، ومن الإبل والشاء ما لا يدري ما عدته.

وعن عمرو بن شعيب: أن وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله إنا أصلٌ وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يَخْفَ عليك، فامنن علينا، منَّ الله عليك، قال: وقام رجل من هوازن، يقال له: زهير، يكنى أبا صُرَد، فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك.

فقال رسول الله ﷺ: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟.

فقالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل تَرُدُّ إلينا نساءنا وأبناءنا، فهو أحب إلينا، فقال لهم: أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليتُ الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين

---

(١) المرجع السابق ص١٥٣.

إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم.

فلما صلَّى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: وأما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم.

فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا.

فقالت بنو سليم: بلى ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: أما من تمسَّك منكم بحقه من هذا السبي، فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي أصيبه، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم)[1].

ولما فرغ رسول الله ﷺ من رد سبايا حنين إلى أهلها (ركب واتبعه النَّاس يقولون: يا رسول الله اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم، حتى ألجئوه إلى شجرة، فاختطفت عنه رداءه؛ فقال: أدُّوا عليَّ ردائي أيها الناس، فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نَعَمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً، ثم قام إلى جنب بعير، فأخذ وبرة من سنامه، فجعلها بين إصبعيه، ثم رفعها ثم قال: أيها الناس، والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم)[2]، وقسم الرسول ﷺ الغنائم.

لقد بقيت ثقيف متحصِّنة وعادوا بعد ذلك إلى بستان الإسلام، فقبل الله دعاء رسوله لهم، وبانتهاء حنين زالت آخر مقاومة للشرك، وتم فتح الحجاز عملياً وأقبلت الوفود العربية معلنةً إسلامها.

---

(١) المرجع السابق ص١٥٢.

(٢) المرجع السابق ص١٥٣، ١٥٤.

- **سبب هذه الغزوة:**

في رجب سنة تسع من الهجرة بلغ رسول الله ﷺ: أن الروم قد جمعت جموعاً، وأجلبت إلى جانبها قبائل لخم وجذام وغيرهم من نصارى العرب الذين كانوا تحت إمرة الروم (ووصلت طلائعهم إلى البلقاء، فندب النبى ﷺ النَّاس إلى الخروج، وروى الطبرانى من حديث ابن حصين أن جيش الروم كان قوامه أربعين ألف مقاتل)[١].

فأمر الرسول ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم (وذلك في زمان من عسرة الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه؛ وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلاَّ كنَّى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بَيَّنَها للناس، لبعد الشُّقَّة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم)[٢].

- **الرسول ﷺ يحث علي الإنفاق لتجهيز جيش العسرة:**

لقد دعا رسول الله ﷺ النَّاس إلى الإنفاق فى سبيل الله لتجهيز الجيش فأنفق عثمان بن عفان فى ذلك نفقةً عظيمة لم ينفق أحد مثلها.

روى الترمذى فى سننه عَن عَبْدِ الرَّحْمن بن خبَّابٍ قَالَ: (شَهِدْتُ النبيَّ ﷺ وَهُوَ يحُثّ عَلَى جَيْشِ العُسْرَةِ، فَقَامَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ فقالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيَّ مِائَةُ بَعِيرٍ بأَحْلاَسِهَا وَأَقْتَابِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمّ حَضّ عَلَى الْجيْشِ. فقامَ عُثْمَانُ بنُ عَفّانَ

(١) فقه السيرة ص٣٠٨.

(٢) سيرة ابن هشام ١٧٣/٤.

فقَال يا رسَولَ اللّهِ عَلَيّ مَائتَا بعير بأَحْلاَسِهَا وَأقتَابهَا في سَبيل اللّهِ، ثُمّ حَضّ عَلَى الْجَيْش. فقامَ عُثْمَانُ بنُ عَفّانَ فقالَ يا رسول الله عَلَيّ ثلاثُمائَةِ بَعِير. بأحْلاَسِهَا وَأقْتَابهَا في سبَيل اللّهِ، فأنَا رَأيْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَنْزلُ عَن المِنْبَر وَهُوَ يَقُولُ: ما عَلَى عُثْمَانَ ما عَمِلَ بَعْدَ هَذِهِ. ما عَلَى عُثْمَانَ ما عَمِلَ بعْدَ هَذِه).

وروى البيهقي (عن الأحنف بن قيس قال: سمعت عثمان يقول لسعد ابن أبي وقاص وعلي وطلحة: أنشدكم بالله هل تعلمون أن النبي ﷺ قال: من جهّز جيش العسرة غَفَر الله له فجهزتهم حتى ما يفقدون خطاماً ولا عقالاً، قالوا: اللهم نعم).

حال المؤمنين الذين لا يجدون ما ينفقون ويريدون الجهاد:

روى ابن إسحاق: (إنّ رجالا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ، وهم البكّاءون، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة فقال: ﴿لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.

قال ابن إسحاق: (فبلغني أن ابن يامين بن عمير بن كعب النضري لقي أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفل وهما يبكيان، فقال: ما يبكيكما؟ قالا: جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه؛ فأعطاهما ناضجاً -بعير يُنقل عليه الماء- له فارتحلاه، وزوّدهما شيئا من تمر، فخرجا مع رسول الله ﷺ)[1].

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[2].

---

(١) المرجع السابق ص١٧٤.

(٢) سورة التوبة آية ٩١، ٩٢.

- **النفاق يظهر في العسرة:**

لقد كانت غزوة تبوك في أيام الحر الشديدة، وظهرت قذارة المنافقين المختلفة ونذالتهم المتباينة. يروى ابن إسحاق: (قال رسول الله ﷺ للجَدِّ بن قيس أحد بني سلمة وهو من المنافقين: يا جَدُّ، هل لك العام في جِلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله، أو تأذنُ لي ولا تَفْتنِّي، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدِّ عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنت لك. ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[1] أي: إن كان إنما خشي الفتنة من نساء بني الأصفر، وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة أكبر، بتخلفه عن رسول الله ﷺ)[2]

وظهر لون آخر من قذارتهم، قال بعضهم لبعض: (لا تنفروا في الحر، زهادة في الجهاد، وشكا في الحق، وإرجافا برسول الله ﷺ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ، فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[3].

- **أبو خيثمة يترك الراحة والطعام ويلحق برسول الله:**

يروى ابن إسحاق (أنَّ أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه، قد رشَّتْ كل واحدة منهما عريشها، وبرَّدت له فيه ماء، وهيَّأت له فيه طعاما، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ في الضحِّ والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل باردٍ، وطعام مهيأ، وامرأةٍ حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنصف.

---

(١) سورة التوبة آية ٤٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة التوبة آية ٨١.

ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألْحَقَ برسول الله ﷺ، فهيِّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم قدم ناضحه فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل بتبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله ﷺ فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنباً، فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ ففعل، حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: كُنْ أبا خيثمة ، فقالوا: يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل فسلَّم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أولى لك يا أبا خيثمة، ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر. فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير)[1].

- **تحذير الرسول ﷺ في الحِجْر:**

حين مرَّ رسول الله ﷺ بالحِجْر وهي أرض ثمود ورسولهم صالحٌ عليه السلام فعقروا الناقة فأهلكهم الله بالصيحة فحذرهم رسول الله ﷺ بقوله: (لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذَّبين إلاَّ أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم مثل ما أصابهم)[2].

يروى ابن إسحاق: (وقد كان رسول الله ﷺ حين مرَّ بالحجر نزلها، واستقى الناس من بئرها، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: لا تشربوا من مائها شيئا، ولا تتوضأوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئا، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له. ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ﷺ إلا أن رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في

(١) سيرة ابن هشام ١٧٥/٤، ١٧٦.
(٢) دلائل النبوة.

طلب بعير له، فأمَّا الذي ذهب لحاجته فإنه خنق على مذهبه؛ وأما الذي ذهب في طلب بعيره فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طيئ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه، ثم دعا رسول الله ﷺ للذي أصيب على مذهبه فشفي، وأما الآخر الذي وقع بجبلي طيئ، فإن طيئاً أهدته لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة)[1].

● **خبر أبي ذرّ الغفاري وأثر النبوة فيه:**

(ثم مضى رسول الله ﷺ سائراً، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلَّف فلان، فيقول: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه، حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلَّف أبو ذر، وأبطأ به بعيره؛ فقال: فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، ونزل أبو ذرٍ عن ظهر بعيره، لما أبطأ به، فأخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، ونزل رسول الله في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده؛ فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذر. فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده.

وروى ابن إسحاق بسنده عن ابن مسعود، قال: (لما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة، وأصابه بها قدره، لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن اغسلاني وكفِّناني، ثم ضعاني على قارعة الطريق فأول ركب يمر بكم فقولوا هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ، فأعينونا على دفنه، فلما مات فَعَلا ذلك به ثم وضعاه على قارعة الطريق، وأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق عُمَّار-يريدون

(١) سيرة ابن هشام ١٧٦/٤.

العمرة–، فلم يرعهم إلا بالجنازة على ظهر الطريق قد كادت الإبل تطؤها، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ، فأعينونا على دفنه، قال: فاستهل عبد الله بن مسعود يبكي ويقول: صدق رسول الله ﷺ، تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، ثم نزل هو وأصحابه فواروه)[١].

- **الصلح مع صاحب أيلة:**

(ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه «يَحْنَةُ بنُ رؤبة» صاحب أيلة، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح، فأعطوه الجزية، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتابا فهو عندهم)[٢].

وأرسل الرسول ﷺ خالد بن الوليد إلى «أُكَيْدر دومة»، وهو رجل من كندة كان مَلِكاً عليها، وكان نصرانياً فأسره خالد، ولمَّا قدم به خالد على رسول الله ﷺ حقن دمه وصالحه على الجزية.

وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة دون أن يقع التحام بينه وبين الروم، فلم يجد جيوشاً وربما انسحبت هذه الجيوش إلى داخل البلاد حتى يستدرجوا جيش المسلمين، فلم يدخل المسلمون بلادهم.

وأيضاً كانت هذه المعركة بياناً عملياً للمسلمين على التدريب وعلى اجتياز الصحراء وكيف يتعاملون مع المناخ القاسي فى الصحراء المحرقة؟، وجعلت الروم يفكرون فى أمر هذه القوة التى تُجيد القتال فى الصحراء، ولقد بسطت نفوذها على شبه الجزيرة العربية، فأصبح للجزيرة ميلاد جديد وهو ميلاد التوحيد بعد موت الوثنية واندثارها إلى الأبد.

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/١٧٧.

(٢) المرجع السابق ص١٧٨.

- **الثلاثة الذين خلفوا عن رسول الله ﷺ**

قدم رسول الله ﷺ المدينة وكان قد تخلّف عنه رهط من المنافقين، وتخلف هؤلاء الثلاثة: كعب بن مالك ومُرَارَةُ بن الربيع وهلال بن أمية، وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: لا تُكَلِّمُنَّ أحداً من هؤلاء الثلاثة، فلم يكن غيابهم عن تبوك نفاقاً ولا فقراً، بل كان تقاعساً وفتوراً وركوناً إلى الراحة وخوفاً من الحر، أمّا عدم خروج المنافقين فمنشأه الكفر الباطنى وشكُّهم القلبى، فلما أتى المنافقون رسول الله ﷺ يعتذرون إليه عن الخروج معه ففضح الله سرائرهم، قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللّـهُ مِنْ أَخْبَـارِكُمْ وَسَيَرَى اللّـهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

ولما كان الثلاثة الذين تخلفوا مؤمنين مقصِّرين تاب الله عليهم وعفا عنهم بعد عذاب العزلة التى ضُربت عليهم من ذويهم وأقاربهم وقومهم، فالناس لا يكلمونهم، وإذا كلموا أحداً لا يرد، واستمر ذلك خمسين يوماً، فأنزل الله توبتهم: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّـهِ إِلاَّ إِلَيْـهِ ثُمَّ تَـابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُـواْ إِنَّ اللّـهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2].

وهكذا انتهت أحداث تبوك بغنائم كثيرة غنمها خالد بعد أسره لأكيدر دومة، وتعلم فيها المسلمون دروساً نافعة.

إسلام ثقيف

قدم رسول الله ﷺ من تبوك فى شهر رمضان، وقدم عليه فى ذلك الشهر وفد ثقيف، فقد كان رسول الله ﷺ تركهم بعد حصارهم ولم ينل منهم، فلما تركهم دعا

(١) سورة التوبة آية ٩٤.

(٢) سورة التوبة آية ١١٨.

لهم بالهداية كما سبق. فخرج منهم عروة بن مسعود الثقفى، وقد تتبع أثر رسول الله ﷺ فأدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، (وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان منهم، فقال عروة: يا رسول الله، أنا أحب إليهم من أبصارهم.

فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف لهم على علية له، وقد دعاهم إلى الإسلام، وأظهر لهم دينه، رَمَوْه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله، فتزعم بنو مالك أنه قتله رجل منهم، يقال له: أوس بن عوف أخو بني سالم بن مالك، وتزعم الأحلاف أنه قتله رجل منهم من بني عتاب بن مالك، يقال له: وهب بن جابر، فقيل لعروة: ما ترى في دمك ؟

قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال فيه: إن مثله في قومه لكمثل صاحب ياسين في قومه)[1].

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً، ثم إنهم ائتمروا ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا.

- **حج أبي بكر بالناس سنة تسع:**

أقام رسول الله ﷺ بقية شهر رمضان وشوالاً وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج سنة تسع ليقيم للمسلمين حجهم، والنَّاس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم، فخرج أبو بكر ﷺ ومَنْ معه من المسلمين، ونزلت سورة براءة فى نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم أن لا يصد عن الكعبة أحد جاءه ولا يخاف أحد فى الشهر الحرام، وكان

(١) سيرة ابن هشام ١٨٤/٤.

ذلك عهداً عاماً بينه وبين النَّاس من أهل الشرك، وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله ﷺ وبين قبائل من العرب وخصائص إلى آجال مسماة، فنزلت فيه وفيمن تخلَّف من المنافقين عنه في تبوك[1].

معالم العظمة والخلود في بني عامر وأربد بن قيس

«قصة عامر بن الطفيل»

قدم وفد بني عامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد من قيس

- **عامر بن قيس يدبّر الغدر بالرسول ﷺ:**

قدم عامر عدوُّ الله على رسول الله ﷺ وهو يريد الغدر به، وقد قال له قومه: يا عامر إن الناس قد أسلموا فأَسْلِمْ، قال: والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش؟ – يريد رسول الله ﷺ – .

ثم قال لأربد صاحبه: إذا قدمنا على الرجل، فإني سأشغل عنك وجهه، فإذا فعلتُ ذلك فاعْلُهُ بالسيف.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر بن الطفيل: يا محمد، خالني، قال: لا والله حتى تؤمن بالله وحده، قال: يا محمد خالني، وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به، فجعل أربد لا يفعل شيئاً، قال: فلما رأى عامر ما يصنع أربد، قال: يا محمد خالني، قال: لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له، فلما أبي عليه رسول الله ﷺ قال: أما والله لأملأنَّها عليك خيلاً ورجالاً، فلما ولي قال رسول الله ﷺ: اللهم اكفني عامر بن الطفيل.

فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأربد: ويلك يا أربد ! أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندي على نفسي منك، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً، قال: لا أبا لك ! لا تعجلْ عليَّ، والله ما هممت

(١) انظر المرجع السابق ص١٨٦، ١٨٧.

بالذي أمرتني به من أمره إلا دخلتَ بيني وبين الرجل– يريد: رسول الله ﷺ–، حتى ما أرى غيرك أفأضربك بالسيف يا عامر ؟)[1].

● **موت عامر بدعاء سيد الخلق عليه:**

(وخرجوا راجعين إلى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه، فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يقول: يا بني عامر، أغدَّةٌ كغُدَّة الإبل وموتاً في بيت سلوليَّة! ومات الطفيل.

● **موت أربد:**

ثم عاد أصحاب الطفيل بعد أن واروه التراب إلى أرض بني عامر شاتين (فلما قدموا أتاهم قومهم، فقالوا: ما وراءك يا أربد ؟ قال: لا شيء والله، لقد دعانا – يقصد رسول الله ﷺ – إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن، فأرميه بالنَّبْل حتى أقتله، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يتبعه، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما.

وأنزل الله ﷻ فى عامر وأربد: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[2].

عام الوفود

كانت السنة التاسعة فى هجرة الرسول ﷺ مناط الفخر وذروة القوة، ففيه تتابعت الوفود من أرجاء الجزيرة العربية لتعلن الولاء والطاعة ولتؤمِّن مستقبلها، ودخلت هذه الوفود تحت راية الإسلام، وتعلموا مبادئ الإسلام، ورحلوا عن المدينة سفراء لقبائلهم حاملين مشاعل الإسلام، ومن هذه الوفود وفد عبد القيس ووفد تميم ووفد بني سعد بن بكر ووفد اليمن ثقيف وغيرهم.

---

(١) المرجع السابق ٢٠٦/٤، ٢٠٧.

(٢) سورة الرعد الآيات ٨–١١.

معالم العظمة والخلود في إسلام عديّ بن حاتم الطائي

- **أولاً: سفّانة بنت حاتم الطائي:**

(من ربّات الفصاحة والبلاغة والحُسن والجمال والجود والكرم، كان أبوها يعطيها من إبله فتهبها وتعطيها النّاس، فقال لها أبوها: يا بنية إن الكريمين إذا اجتمعا في المال أتلفاه، فإما أن أعطي وتُمسكي وإمّا أن أمسك وتعطي، فإنّه لا يبقى على هذا شيء، فقالت: والله لا أمسك أبداً، وقال أبوها: وأنا والله لا أمسك أبداً، قالت: فلا نتجاور، فقاسمها ماله وتباينا.

وأُتي بسفّانةَ النبيُّ ﷺ وذلك في أسرى طيء، قال عليُّ بن أبي طالب: لمّا أُتينا بسبايا طيء كانت في النساء جارية صمّاءُ، حوراءُ العينين، لعساءُ لمياءُ عيطاءُ، شماء الأنف، معتدلة القامة، ردماء الكعبين، خدلجة الساقين، لفّاء الفخذين، خميصة الخصر، ضامرة الكشحين، مصقولة المتنين[1].

فلما رأيتُها أعجبت بها فقلت: لأطلبنّها إلى رسول الله ﷺ ليجعلها من فيئي فلما تكلمتْ أنسيتُ جمالها لمّا سمعتُ من فصاحتها.

فقالت: يا محمد، هلك الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيتَ أن تخلّي عني فلا تشمت بي أحياء العرب، فإني بنت سيِّد قومي، كان أبي يفك العاني، ويحمي الذِّمار ويَقْري الضيف، ويشبع الجائع، ويفرِّج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يَرُدَّ طالب حاجة قط أنا ابنة حاتم الطائي.

فقال لها رسول الله ﷺ: يا جارية هذه صفة المؤمن، لو كان أبوك مسلماً

---

(١) صمّاء: رقيقة الصوت، حوراء العينين: شديدة البياض مع شدة السواد والسعة. لعساء: شديدة حمرة الشفتين احمراراً قاتماً. لمياء: رقيقة الشفة. عيطاء: جميلة العنق في بعض الطول. شماء الأنف: رفيعة الأنف. ردماء الكعبين: مستديرة الكعبين ضامرة الخصر: ليس لها كرش. مصقولة المتن: منمقة الظهر.

لترحمنا عليه، خلُّوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب مكارم الأخلاق، ثم أسلمت وحسن إسلامها)[1].

فعلى فرض صحة هذه الرواية فالإمام عليٌّ يدرك أن سفانة صارت أمةً بأسرها، وعورة الأمة كعورة الرجل ما بين السرة والركبة.

وفي رواية لابن إسحاق أن عدى بن حاتم قال: (وقد بلغ رسولَ الله ﷺ هربي إلى الشام، قال: فجُعِلَتْ بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد، كانت السبايا يحبسن فيها، فمر بها رسول الله ﷺ فقامت إليه، وكانت امرأة جزلة، فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليَّ منَّ الله عليك.

قال: من وافدك ؟ قالت: عديُّ بن حاتم.

قال: الفارُّ من الله ورسوله ؟

قالت: ثم مضى رسول الله ﷺ وتركني، حتى إذا كان من الغد مرَّ بي، فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس.

قالت: حتى إذا كان بعد الغد مرَّ بي، وقد يئست منه، فأشار إليَّ رجل من خلفه أن قومي فكلميه، قالت: فقمت إليه، فقلت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليَّ منَّ الله عليك. فقال ﷺ: قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة، حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنيني.

فسألت عن الرجل الذي أشار إليَّ أن أكلمه، فقيل: عليُّ بن أبي طالب رضوان الله عليه. وأقمت حتى قدم ركبٌ من بلي أو قُضاعة، قالت: وإنما أريد أن آتي أخي بالشام، فجئتُ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قدم رهط من قومي، لي فيهم ثقة وبلاغ. قالت: فكساني رسول الله ﷺ وحملني، وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمتُ الشام.

---

(١) أعلام النساء: لعمر رضا كحّالة ١٩٦/٢، ١٩٧ ط مؤسسة الرسالة.

قال عدي: فوالله إنّي لقاعد في أهلي إذ نظرت إلى ظعينة –مسافرة– تصوب إليَّ تَؤُمُّنا، قال: فقلت: ابنة حاتم. قال: فإذا هي هي، فلما وقفتْ عليَّ انسحلتْ تقول: القاطع الظالم، احتملت بأهلَكَ وولدك، وتركت بقيَّة والدك عورتك! قال: قلت: أي أُخَيَّه لا تقولي إلا خيراً، فوالله ما لي من عذر لقد صنعتُ ما ذكرتِ. قال: ثم نزلت فأقامت عندي،

فقلت لها وكانت امرأة حازمة: ماذا تَرَيَنْ في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن مَلِكاً فلن تذلَّ في عزِّه، وأنت أنت، قال: قلت: والله إن هذا الرأي.

- **آثار النبوة تظهر مع عدى:**

قال: فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال: مَن الرجل؟

فقلت: عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ، فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها.

قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملك!

قال: ثم مضى بي رسول الله ﷺ، حتى إذا دخل في بيته، تناول وسادةً من أدم محشوة ليفا، فقذفها إليَّ، فقال: اجلس على هذه.

قال عدى: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: بل أنت، فجلستُ عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض.

قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك.

ثم قال: إيه يا عدي بن حاتم، لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم، وقلة عددهم، فوالله

ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف.

ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله، ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم، قال: فأسلمت.

وكان عدي يقول: قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكونن، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها، لا تخاف حتى تحج هذا البيت، وايم الله لتكون الثالثة، ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه)[1].

وهكذا تتابعت الوفود ودخل النّاس فى دين الله أفواجاً.

تم الكتاب

(١) سيرة ابن هشام ٢١١/٤، ٢١٢.

خاتمة

وبعد هذا السجل الحافل فى حياة أعظم الخالدين محمد ﷺ والذى عرضنا فيه لمعالم العظمة والخلود فى شخصه وحياته ﷺ .. يخرج على العالم أحد هؤلاء الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فيبسط لسانه إلى سيرة سيد المرسلين بالسوء والكذب، مؤازرة ومناصرة لأولئك الذين يبسطون أيديهم إلى أمة محمد بالجيوش المسلحة بأحدث أنواع أسلحة الدمار، طمعاً فى خيراتها وسلباً لحقوقها، فالكفر ملة واحدة.

فقد طلع على البشرية الرجل الذى يمثل المسيحيين فى العالم وهو بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر ، طلع بما طفحت به قريحته وزفر بحسده وحقده على الإسلام ورسول الإسلام ، وهذا البابا يكمل قصة الحرب الصليبية المعاصرة فهى ميدانية وعلى أرض الإسلام فى العراق و أفغانستان و فلسطين ولبنان. وهذه الميادين موقدة تقودها أمريكا و أوروبا و الربيبة إسرائيل، ويستخدم أعداء الإسلام أحدث الأسلحة التى أتت على الأخضر واليابس ودمرت تلك البلاد تحت مسمى القضاء على الإرهاب، ويأتى البابا بما طفح به فمه ليؤكد هذه الحرب الصليبية وليباركها معنوياً، و كان البابا يلقى محاضرة ساق فيها الإساءة إلى الرسول ﷺ و الإسلام ويدَّعى أنه نقله عن كتاب لرجيل يسىء إلى الرسول والمسلمين ، و الذى يفعل ذلك يعلن للمسيحيين فى العالم عداوته للإسلام و المسلمين ، و لمَّا ثارت ثائرة المسلمين ذوداً عن حياض عقيدتهم وقدسية رسولهم ، وانتصاراً لإسلامهم وكرامتهم ، إذا بذلك اللئيم يأبى الإعلان عن اعتذاره ، و لكن الفاتيكان يعلن أنه أسىء فهم كلام البابا. و البابا إذ يفترى هذه الاتهامات التى ليس لها ظل فى النصوص الإسلامية وليس لها واقع فى التاريخ الإسلامى بل هى منافية لمبادئ الإسلام و أخلاقه وهى شنشنة نعرفها من الغرب عموماً ، فهم يقذفون بها المسلمين فى كل عصر، فتلك أيديهم ملوثة بدماء المسلمين بعد أن أجروا أنهاراً من الدماء فى بلاد الإسلام ،

وللأسف يشعلون نيران الحروب بحجة القضاء على الإرهاب، وهم أهل الإرهـاب و فلسطين شاهدة على إرهابهم ، و كذلك لبنان صاحب الأرض المحروقة التى أبـادت حربها كلّ شجر وحجر .

وكتابنا هـذا فيـه رد علـى كـلام البابـا و أمثالـه، ودحـض لفريتـه، وإعـلاء للحقيقة الخالدة، وإظهار للحق و إزهاق للباطل إن الباطل كان زهوقا.

فهرس المحتويات

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

